الحساب الصحيح من بنيان الحكم الرشيد

بحث تفصيلي في بيان علم الحساب وأهميته في ونصرة الحق وإقامة الميزان

تأليف

زكريا يوسف محمد أبوقرين الطرابلسي

قال الشافعي رحمه الله:

أُحِبُّ الصالِحينَ وَلَستُ مِنهُم لَعَلّي أَن أَنالَ بِهِم شَفاعَه
وَأَكرَهُ مَن تِجارَتُهُ المَعاصي وَلَو كُنّا سَواءً في البِضاعَه

المحتويات

المقدمة **9**

1 علم الحساب والغاية منه **15**

1.1 المقدمة 15

1.2 الحساب داخل في أسماء الله وصفاته وأفعاله 20

1.3 الحساب داخل في أمر الله الشرعي 22

1.4 الجهل بالحساب من الأمية 27

1.5 نهج القرآن في تعلم الحساب 33

1.6 معرفة الوقت بحساب حركة الأفلاك 34

1.7 مفاهيم خاطئة حول الأرض والشمس والقمر 37

1.8 بطلان الإستدلال بالمشاهدة فقط 45

1.9 الحساب بين الإفراط والتفريط 50

2 الميزان الكوني والميزان الشرعي **57**

2.1 المقدمة 57

2.2 الميزان الكوني 58

2.3 الميزان الشرعي 69

2.4 الميزان بمعنى العدل والميزان المحسوس 79

2.5 الإرادة الكونية والإرادة الشرعية 80

2.6 الهداية الكونية والهداية الشرعية 84

2.7 الأصل في هذا الكون استقراره وثباته وتوازنه وبركته 87

2.8 الظلم ينافي الميزان الكوني والميزان الشرعي 90

2.9 المراد بالعلم والميزان 93

2.10 أقسام الميزان الكوني 97

2.10.1 الميزان السببي 97

2.10.2 الميزان الغيبي 103

2.11 أقسام الميزان الشرعي 113

2.11.1 الميزان الفطري 113

2.11.2 الميزان الديني 115

2.12 الغاية من إرسال الرسل وإنزال الكتب 120

2.13 تفاوت الرسل في العلم والفضل ودعوتهم واحدة 123

2.14 الإصلاح وأنواعه 125

2.15 الحكمة والرشاد 128
2.16 مكانة أهل العلم الشرعي 131
2.17 حال الأنبياء وأتباعهم مع الميزان الشرعي 133
2.18 حال الأمم مع الحق والميزان الشرعي 135
2.18.1 الدولة الكافرة الظالمة الهالكة 139
2.18.2 الدولة المسلمة الظالمة 140
2.18.3 الدولة الكافرة الظالمة 144
2.18.4 الدولة الكافرة العادلة 145
2.18.5 الدولة المؤمنة العادلة 147
2.18.6 ملخص حال الأمم 149

3 حساب الله 153

3.1 مقدمة 153
3.2 صفة العد والحساب 156
3.3 التجارة مع الله في الدنيا 158
3.4 القبر أول منازل الآخرة 158
3.5 يوم القيامة 160
3.5.1 البعث 161
3.5.2 المحشر 161
3.5.3 الحساب يبدأ عند الميزان وقبل الجزاء 161

4 الحكم الرشيد **167**

4.1 مقدمة 167

4.2 أركان الحكم الرشيد 168

4.3 شروط الحكم الرشيد 171

4.4 واجبات الحكم الرشيد 172

4.5 الحكم الرشيد في زمن الصحابة 175

4.6 مختصر سيرة معاوية بن أبي سفيان 179

4.7 مختصر سيرة عمر بن عبد العزيز 181

4.8 الحساب في زمن الحكم الرشيد 194

4.9 عودة الحكم الرشيد في آخر الزَّمانِ 199

4.10 معادلات 201

4.11 نص الفصل الأول - الصفحة الثانية 202

4.12 نص الفصل الأول - الصفحة الثالثة 203

5 علم الحساب في الشريعة **205**

5.1 مقدمة 205

5.2 الحساب داخل في المعاملات 205

5.3 أمثلة حسابية من القرآن والسنة 207

5.3.1 مكوث أهل الكهف 207

5.3.2 مكوث الوحي من عيسى عليه السلام إلى محمد ﷺ 208

5.3.3 عدد ساعات اليوم والليلة 209
5.3.4 نسبية الوقت في القرآن 211
5.3.5 ظاهرة الغلاف الجوي 213
5.3.6 ظاهرة تعاقب الليل والنهار 213
5.3.7 ظاهرة توسع الكون 214
5.3.8 ظاهرة المجال المغنطيسي 215

6 الحساب الكوني 217

6.1 مقدمة 217
6.2 جداول 218
6.3 مراجع باستخدام BibTeX 219
6.4 نص الفصل الثاني - الصفحة الثانية 220
6.5 نص الفصل الثاني - الصفحة الثالثة 221

7 الذكاء الإصطناعي 223

7.1 مقدمة 223
7.2 المعرفة والوعي والإدراك 223

8 رد شبه الملحدين 225

8.1 مقدمة 225
8.2 المعرفة والوعي والإدراك 225

9 الملحق **227**

9.1 مسألة كروية الأفلاك لشيخ الإسلام بن تيمية 227

9.2 مسألة دوران الأرض حول نفسها وحول الشمس 230

9.3 مسألة أول ما خلق الله 235

9.3.1 الأحاديث الخاصة بالمسألة 236

9.3.2 أقوال أهل العلم 238

9.4 مسألة يدين الله 243

9.5 مسألة أثقل المخلوقات 244

9.6 مسألة تفاوت الزمان 244

9.7 مسألة فناء النار 245

9.8 مسألة العدل مع الكفار 245

9.9 مسألة الخروج على ولي أمر المسلمين 248

9.10 مسألة التفرق في الدين 252

9.11 مسألة تجريح الأعيان 252

9.12 دعاء النبي ﷺ 253

المصادر **258**

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد الله العزيز العليم فالق الحب والنوى خلق كل شئ بقدر معلوم فقدره تقديرا. فالق الإصباح وجعل الليل سكنا والشمس والقمر حسبانا فقدر للقمر منازلا وجعل الشمس تجري لمستقر لها وكل في فلك يسبحون. لا إله إلا هو وحده لا شريك له إيمانا بروبوبيته وتسليما وإقرارا بألوهيته وتصديقا بأسمائه وصفاته على الوجه الذي يحب ويرضى من غير تحريف ولا تمثيل ولا تكييف ولا تعطيل. بعث الرسل بالحق والميزان مبشرين ومنذرين وليبينوا للناس أمور دنيهم ودنياهم ومن أجلها إقامة التوحيد بإفراده سبحانه وحده بالعبادة بالطريقة التي ارتضاها وإقامة الميزان بالقسط والعدل بين الناس. ومن رحمته أنه أرسل محمدا ﷺ خاتما للنبيئين وأنزل عليه القرآن هدى وبشرى للمتقين، أما بعد:

هذا كتاب ألفته لشرح علم الحساب وأهميته في دين الإسلام وإقامة أركان الحكم الرشيد. فالعلم بالحساب يدخل في الكثير من العلوم: منها العلوم الشرعية كالمواريث، والمواقيت، والمعاملات، ومنها العلوم الكونية السببية النافعة مثل الهندسة، والفلك، والطب، والفيزياء، الكيمياء، وعلوم الحاسب الآلي كعلوم البيانات وعلوم الآلة والذكاء الإصطناعي وغيرها من العلوم النافعة التي لا يمكن فهمها

وإتقانها إلا بالحساب الصحيح. وسعيا إلى بيان الحق الموافق لأمر الله الكوني والشرعي معا، وجدت أن هذا البحث لا يكتمل إلا بالجمع بين العلم الكوني الحديث والعلم الشرعي الصحيح. ورغم قلة العلم وضعف العمل ولا حول ولا قوة إلا بالله، لم يكن لي إلا أن أستعين بالله العزيز العليم وأتوكل عليه، راجيا توفيقه وطالبا لفضله ورحمته، مستفيدا مما حصلته من العلوم الكونية في مجال الحساب والهندسة والفيزياء والكيمياء وعلوم البيانات والذكاء الإصطناعي، ومجتهدا في الأمور الشرعية المهمة المتعلقة بهذا البحث في العقيدة والتفسيير لبيان أهمية الحساب في الإسلام وفي إقامة الحكم الرشيد متبعا في ذلك ما جاء في كتاب الله عز وجل وسنة نبه محمد ﷺ وسبيل المؤمنين من سلف هذه الأمة وعلماءها.

ولقد سميت هذا الكتاب: "الحساب الصحيح من بنيان الحكم الرشيد". فالحساب هو وسيلة يحتاجها الناس لغايات عديدة منها ما هو فرض، ومنها ما هو نافع، ومنها ما هو بخلاف ذلك. ولا يكاد يوجد علم إلا والحساب داخل فيه، ولهذا فقد حثنا الله جل جلاله في أكثر من موضع في كتابه العظيم لتعلم العدد والحساب. فالحساب هو مفتاح العلوم الكونية النافعة وهو السبيل لفهمها وبه تكشف العديد من حقائق وأسرار هذا الكون. وهو الأساس الذي تبنى عليه الهندسة بكافة أنواعها وفروعها. وهو العلم الذي به تبنى قوانين الفيزياء والكيمياء وغير ذلك من العلوم السببية. وهو أساس علوم البيانات والآلة والذكاء الإصطناعي. وفيه قوه الحجة العقلية في رد شبه الإلحاد. وفيه معرفة الله عز وجل بأسمائه وصفاته وأفعاله. فإن كانت الغاية من الحساب هي منفعة الناس بالعموم في أمور دينهم ودنياهم وإقامة الميزان الشرعي الذي أمر الله به، كان هذا الحساب صحيحا، وكان من بنيان الحكم الرشيد، وكان سببا في الزيادة في الإيمان وإقامة العدل بين الناس بالقسط، وسبيلا للتطور العلمي والحضاري، وقوة في دحر الأعداء ونشر الحق ونصرته.

اسئل الله العلي العظيم أن يجعل هذا العمل خالصا لوجهه الكريم وأن يبارك فيه ويجعله سببا لعودة أمة الإسلام إلى الطريق المستقيم، الطريق الذي فيه يقام الحق والميزان معا، وأن يجعل دعوتنا دعوة الراسخين في العلم كما في قوله تعالى: وَالرَّاسِخونَ فِي العِلمِ يَقولونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِن عِندِ رَبِّنا وَما يَذَّكَّرُ إِلّا أُولُو الأَلبابِ ﴿٧﴾ رَبَّنا لا تُزِغ قُلوبَنا بَعدَ إِذ هَدَيتَنا وَهَب لَنا مِن لَدُنكَ رَحمَةً ۚ إِنَّكَ أَنتَ الوَهّابُ ﴿٨﴾ رَبَّنا إِنَّكَ جامِعُ النّاسِ لِيَومٍ لا رَيبَ فيهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ لا يُخلِفُ الميعادَ ﴿٩﴾آل عمران. اللهم اجعل دعائنا كدعاء نبينا ﷺ كما جاء عن عائشة أم المؤمنين أن النبي ﷺ كان إِذَا قَامَ مِنَ اللَّيْلِ افْتَتَحَ صَلَاتَهُ: اللَّهُمَّ رَبَّ جِبْرَائِيلَ، وَمِيكَائِيلَ، وإِسْرَافِيلَ، فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ، عَالِمَ الغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ، أَنْتَ تَحْكُمُ بيْنَ عِبَادِكَ فِيما كَانُوا فيه يَخْتَلِفُونَ، اهْدِنِي لِما اخْتُلِفَ فيه مِنَ الحَقِّ بإِذْنِكَ، إِنَّكَ تَهْدِي مَن تَشَاءُ إلى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (صحيح مسلم). وكما جاء عن عبدالله بن عمر أن نبينا ﷺ قلَّما يقوم من مجلس حتى يدعو بهؤلاء الدعوات لأصحابه: اللهمَّ اقسِمْ لنا مِنْ خشيَتِكَ ما تحولُ بِهِ بينَنَا وبينَ معاصيكَ، ومِنْ طاعَتِكَ ما تُبلِّغُنَا بِهِ جنتَكَ، ومِنَ اليقينِ ما تُهَوِّنُ بِهِ علَيْنَا مصائِبَ الدُّنيا، اللهمَّ متِّعْنَا بأسماعِنا، وأبصارِنا، وقوَّتِنا ما أحْيَيْتَنا، واجعلْهُ الوارِثَ مِنَّا، واجعَلْ ثَأْرَنا عَلَى مَنْ ظلَمَنا، وانصرْنا عَلَى مَنْ عادَانا، ولا تَجْعَلِ مُصِيبَتَنا في دينِنا، ولَا تَجْعَلْ الدنيا أكبرَ هَمِّنَا، ولَا مَبْلَغَ عِلْمِنا، ولَا تُسَلِّطْ عَلَيْنا مَنْ لَا يرْحَمُنا (صحيح الترمذي). وكما جاء عن زيد بن أرقم رضي الله عنه أنه قال: لا أُعلِّمُكم إلا ما كان رسولُ اللهِ ﷺ يُعلِّمُنا: اللَّهمَّ إني أعوذُ بك من العجزِ والكسلِ، والبخلِ والجبنِ، والهَرَمِ وعذابِ القبرِ، اللَّهمَّ آتِ نفسي تقْوَاها وزكِّها أنت خيرُ من زكَّاها أنت وليُّها ومولاها، اللَّهمَّ إني أعوذُ بك من قلبٍ لا يخشعُ ومن نفسٍ لا تشبعُ وعلمٍ لا ينفعُ ودعوةٍ لا يُستجابُ لها (صحيح النسائي).

اللهم اعنا على إقامة الحق واجعلنا من المهتدين واعنا على إقامة الميزان واجعلنا من المقسطين

واهدنا إلى الرشاد واجعلنا من المصلحين وزدنا علما نافعا واجعلنا من الخاشعين

اللهم اهدنا إلى الإسلام واجعلنا من الذاكرين واهدنا إلى الإيمان واجعلنا من المخلصين

واهدنا إلى الإحسان واجعلنا من الموقنين

اللهم ربنا نسألك الصلاح والصدق والصبر واليقين والهدى والسداد والتقى والعفاف والغنى

واجعلنا اللهم من الشاكرين والفائزين

اللهم ربنا أوزعنا أن نشكر نعمتك التي أنعمت علينا وعلى والدينا وأن نعمل صالحا ترضاه

وأصلح لنا في ذريتنا أنا تبنا إليك وإنا من المسلمين وأدخلنا برحمتك في عبادك الصالحين

اللهم اغفر لنا ولوالدينا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان

ولجميع المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات الأحياء منهم والأموات

وأدخلنا جميعا في رحمتك وأنت أرحم الرحمين

وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

ملاحظة:

هذا البحث ما هو إلا اجتهاد شخصي للمؤلف وقد يحتوي على أخطاء ونقص، فما وافق الحق فمن الله جل جلاله وما خالفه فمن نفسي واستغفر الله وأتوب إليه. يمكن للقارئ الكريم المساهمة بالنقض البنَّاء في تصحيح وتحسين هذا الكتاب بإرسال ملاحظاته ومقترحاته وتعليقاته على البريد الإلكتروني.

علم الحساب والغاية منه

1.1 المقدمة

الحساب من حيث اللغة له العديد من المعاني وهذا البحث يتناول المعنى اللغوى الذي يشمل العدُّ والإحصاء والتقدير والتفصيل، ويمتد هذا المعنى ليشمل أيضا المكافأة والجزاء والحفظ والعلم والعدل، ومصدره حَسَبَ مثل حَسَبَ الشيء أي عدَّه وأحصاه وقدَّره. وحِسَاب على وزن فِعَال بمعنى محسوب أي مفعول مثل كتاب أي مكتوب. والذي يَحْسُب الشيء يقال له حَاسِب وجمعه حَاسِبُون عند الرفع وحَاسِبِين عند النصب والجر. ويأتي اسم الحسيب بمعنى عليم على وزن فعيل وبمعنى حاسب على وزن فاعل وهو الحافظ، الكافئ، المكافئ، والمجازي بعلم وعدل. والحسيب هي صيغة مبالغة لإسم الفاعل حاسب مثل عليم لإسم الفاعل عالم. ويقال أيضا على الحَاسِب والحسيب أنه مُحَاسِب على وزن مفاعل وجمعه مُحَاسِبون عند الرفع ومُحَاسِبين عند النصب والجر. والذي أُجْرِيَ له الحساب يقال له مُحَاسَب (أي مفعول به أول) وجمعه مُحَاسَبون عند الرفع ومُحَاسَبين عند النصب والجر. والشيء الذي حُسِبَ يقال له مَحْسُوب (أي مفعول به ثاني) وجمعه مَحْسُوبُون عند الرفع ومَحْسُوبِين عند النصب والجر.

وأما في الشرع فمدار الدين كله على الحساب أي أن الله عز وجل خلق الناس لحكمة عظيمة وهي عبادته وحده لا شريك له وإنه سبحانه لم يخلقهم عبثا بل إنهم مكلفون ومُحَاسَبون على أعمالهم صغيرها وكبيرها ظاهرها وباطنها. وهذا الحساب يترتب عليه الجزاء العاجل في الدنيا والجزاء الآجل في الآخرة. ويدخل الحساب أيضا في المعاملات بين الناس التي بينها الشرع كالزكاة والمواريث والبيع والشراء وغير ذلك. والله جل جلاله هو الحَاسِب وهو المُحَاسِب الذي يُحَاسِب المكلفين بالعلم والعدل وهو الحسيب الكافئ لعباده الصالحين. والمكلفون من الجن والإنس مُحَاسَبُون على أعمالهم ومُحَاسِبُون لأنفسهم. وجميع الأعمال مَكْتُوبَة ومَحْسُوبَة لا يخفى منها شيئ عند الله تبارك وتعالى. والحساب يوم القيامة يشمل الجزاء الذي يكون إما جنة أو نار ولا يكتمل الحساب إلا بذلك. ولذلك فقد سمى الله جل جلاله يوم القيامة بيوم الحساب وهو يوم الدين. ويكون الحساب يوم القيامة عند الميزان وهذا فيه علاقة الحساب بالميزان وأن الميزان هو عدل الميزان الشرعي الذي كلفنا الله به في صورته الحسية.

وفي الإصطلاح فإن الحساب هو ميزان معنوى لتقدير وتفصيل الأشياء بالأعداد (أو الأرقام) وإحصائها بالجمع (أي الزيادة) والطرح (أي النقصان) والضرب (أي المضاعفة) والقسمة (أي التقسيم) وغير ذلك من العمليات الحسابية والتي بها يضبط الميزان وتعرف المقادير المتغيرة والثابتة والعلاقات بينها. وعرف الحساب قديما وحديثا وله العديد من المسميات والأنواع ويعرف أيضا بالرياضيات وهو الأساس الذي تبنى عليه الهندسة بكافة أنواعها وفروعها. فالهندسة لا تقوم إلا بالحساب الصحيح الذي به يمكن بناء معادلات ونماذج رياضية للتعبير بدقة عن العلاقات البسيطة والمعقدة والعوامل المؤثرة فيها. وهذا لأنه بالحساب تعرف المجاهيل بعدة طرق منها ما هو سهل وبسيط ويحسب ذهنيا ومنها ما هو صعب ومعقد ويحسب كتابيا أو بإستخدام الطرق الحديثة. والحساب حاله كحال الميزان الحسي يبنى على الوزن ولهذا فقد سماه الخوارزمي رحمه الله بالجبر والمقابلة بحيث

يبنى الحساب على التساوي بين المتغيرات لجبر ما اختل من الميزان وعليه يمكن حساب ما جهل منها وهو ما نعرفه اليوم بالتساوي (أي علامة =) في المعادلات الرياضية بجميع أنواعها وأشكالها. فيكون بذلك الطرف الأيمن والأيسر بالنسبة لعلامة التساوي في المعادلات الرياضية ككفتان الميزان تماما ولا يستقيم ذلك إلا بالحساب الصحيح الذي به يمكن تحقيق العدل في المعاملات.

ولهذا فإن الآيات الشرعية التي تأمر بالوفاء في الكيل والميزان بالقسط في المعاملات بين الناس هي بلا شك تشمل الحساب وهذا لأن الحساب في أصله داخل في معنى الميزان. ومن الأمثلة على تطبيقات علم الحساب في اتباع آيات الله الشرعية كحساب الزكاة والصدقات وأوقات الصلاة والمواريث والبيع والشراء وغيرها من المعاملات التي يحتاج إليها الناس. ومن الأمثلة على تطبيقات علم الحساب في فهم آيات الله الكونية كمعرفة حركة الشمس والقمر والأرض وغيرها من الظواهر الطبيعية التي خلقها الله لما في ذلك من مصالح دينية مثل التفكر في عظمة الله والزيادة في الإيمان ومصالح دنيوية مثل حساب الوقت والمواسم. فعلم الحساب من الضروريات التي يحتاج إليها الناس في أمور دينهم ودنياهم وهو مفتاح جميع العلوم الكونية السببية الظاهرة وهو الوسيلة لتحقيق الغاية العظيمة التي أمر الله بها وهي إقامة الميزان الشرعي.

ولهذا كان البحث في علم الحساب من الأمور التي حث الله تعالى عليها في أكثر من موضع في كتابه العظيم. قال تعالى: وَجَعَلنَا اللَّيلَ وَالنَّهارَ آيَتَينِ ۖ فَمَحَونا آيَةَ اللَّيلِ وَجَعَلنا آيَةَ النَّهارِ مُبصِرَةً لِتَبتَغوا فَضلًا مِن رَبِّكُم وَلِتَعلَموا عَدَدَ السِّنينَ وَالحِسابَ ۚ وَكُلَّ شَيءٍ فَصَّلناهُ تَفصيلًا ﴿١٢﴾ الإسراء. يقول السعدي رحمه الله في تفسيره: (وَلِتَعْلَمُوا) بتوالي الليل والنهار واختلاف القمر (عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ) فتبنون عليها ما تشاءون من مصالحكم. (وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلًا) أي: بينا الآيات وصرفناه لتتميز الأشياء ويستبين الحق من الباطل [1]. وقال تعالى: هُوَ الَّذي جَعَلَ الشَّمسَ ضِياءً وَالقَمَرَ نورًا وَقَدَّرَهُ مَنازِلَ لِتَعلَموا

عَدَدَ السِّنينَ وَالحِسابَ ۚ ما خَلَقَ اللَّهُ ذٰلِكَ إِلّا بِالحَقِّ ۚ يُفَصِّلُ الآياتِ لِقَومٍ يَعلَمونَ ﴿٥﴾يونس. يقول السعدي رحمه الله في تفسيره: وفي هذه الآيات الحث والترغيب على التفكر في مخلوقات الله، والنظر فيها بعين الاعتبار، فإن بذلك تنفتح البصيرة، ويزداد الإيمان والعقل، وتقوى القريحة، وفي إهمال ذلك، تهاون بما أمر الله به، وإغلاق لزيادة الإيمان، وجمود للذهن والقريحة [1]. وقال تعالى: الشَّمسُ وَالقَمَرُ بِحُسبانٍ ﴿٥﴾الرحمن. يقول السعدي في تفسيره: أي: خلق الله الشمس والقمر، وسخرهما يجريان بحساب مقنن، وتقدير مقدر، رحمة بالعباد، وعناية بهم، وليقوم بذلك من مصالحهم ما يقوم، وليعرف العباد عدد السنين والحساب [1].

وفي هذه الآيات الحث والترغيب في علم الحساب وهذا فيه الحكمة البالغة من الله جل جلاله. ومن ذلك حتى يقوم الناس بالقسط والحساب الصحيح في جميع معاملاتهم وعلى الوجه المطلوب. ومن ذلك أيضا أن علم الحساب هو مفتاح جميع العلوم الكونية السببية الظاهرة[1] التي يمكن فيها العد والقياس والتي لا يمكن في الغالب فهمها فهما صحيحا من دون الحساب. ومن ذلك الظواهر الطبيعية كحركة الأفلاك وغيرها والتي جعل الله لها أقدارها بحيث تتبع حساب متقن لا تحيد عنه ولا تميل. فعلم الحساب به يفهم الميزان الكوني من آيات الله الكونية وبه يقام الميزان الشرعي باتباع آيات الله الشرعية. وهذا لأن علم الحساب ما هو إلا صورة من صور الميزان ولكن ميزان معنوى، وأما الميزان المعروف الذي توزن به الأشياء فهو ميزان حسي. فالميزان تقدّر به الأشياء بالوزن، والمكيال تقاس به الأشياء بالحجم، وأما الحساب فتحسب به الأشياء بالعدد لكل ما هو مقاس وزنا أو حجما أو ثمنا أو غير ذلك من وحدات القياس الأخرى. ولهذا فقد قرن الله جل جلاله الحساب مع العدد فلا حساب

[1] ظاهرة بالحجة العقلية والقياس في العلم التجريبي ولا يشترط أن تكون ظاهرة للحواس. فالعديد من الظواهر يمكن قياسها ولا يمكن رؤيتها على سبيل المثال.

دون عد بالإحصاء أو القياس ولو على وجه التقريب. كما أنه أيضا لا رياضيات ولا هندسة دون حساب صحيح.

ومن المعلوم أن الناس يتفاوتون في قدراتهم الحسابية كل بحسب إجتهاده وبما أودعه الله جل جلاله فيهم من إدراك وعقل وعلم. والأشياء أيضا تتفاوت في إمكانية ودقة حسابها، فمنها السهل والمعروف كعدد ساعات اليوم، ومنها الصعب والمعقد كحركة السحاب والمطر، ومنها المستحيل من الأمور الغيبية كموعد الساعة الكبرى أو الصغرى. وهذا فيه أن الإنسان قد يخفى عليه العديد من الأمور وقد يتخلل حسابه النقص وبالأخص ما يصعب إدراكه أو إدراك أسبابه. ولكن الله جعل الناس متوافقين في أصل العدد والحساب بفطرتهم. ولهذا فإن العدد والحساب من الأمور التي توافقت عليه جميع الحضارات البشرية ولم تختلف في أصل هذا العلم إلا في طرق التعبير عنه كالرموز المستخدمة في ذلك. والله جل جلاله له كمال العدل في حسابه وهذا لأن حسابه وتقديره كامل لا نقص فيه لأن الله هو العليم بكل شيء والقادر على كل شيء. وفي معرفة حساب الله العديد من المصالح منها أن الله قائم بالقسط في الدنيا والآخرة، وفي الميزان الكوني والميزان الشرعي كما سيأتي بيانه في الفصل الثاني. وفي معرفة ذلك الإستعداد ليوم الحساب الذي فيه يحاسب الله المكلفين كما سيأتي بيانه في الفصل الثالث. وفي هذه المعرفة أيضا الترغيب في إقامة الحق والميزان مع الأخذ بالأسباب والتي بها يمكن تحقيق الحكم الرشيد كما سيأتي بيانه في الفصل الرابع.

1.2 الحساب داخل في أسماء الله وصفاته وأفعاله

العد والإحصاء والحساب كلها داخلة في أسماء الله جل جلاله وصفاته وأفعاله. ومن ذلك ما دلت عليه أسماءه الحسنى سبحانه وتعالى ومنها العليم والحكيم والحسيب والحفيظ واللطيف والخبير والحي والقيوم والرقيب والمحيط والشهيد والحكم والوكيل والعدل. وهذا من كمال عدله وحكمته سبحانه ومن ذلك حتى يعطي لكي ذي حق حقه يوم الحساب. ويستثنى من ذلك أنه سبحانه يرزق من يشاء بغير حساب كما أنه يوفي للصابرين أجرهم بغير حساب. ولقد أثبت سبحانه في مواضع كثيره في كتابه العظيم أنه سبحانه أحصى كل شيء عددا، وأنه على كل شيء حسيبا، وأن كل شيء عنده بمقدار، وأنه سبحانه فصَّل كل شيء تفصيلا، وأنه سبحانه سريع الحساب وأسرع الحاسبين كما يليق بجلاله بدون تشبيه أو تكييف أو تعطيل أو تمثيل.

فالله جل جلاله قدر المقادير كلها وأحصاها عددا، وسبق علمه بذلك وكتبه في اللوح المحفوظ قبل خلق السموات والأرض. ومن كمال عدله سبحانه أنه يقوم بمحاسبة كل نفس يوم الحساب وهو سبحانه أسرع الحاسبين كما قال تعالى: ثُمَّ رُدّوا إِلَى اللَّهِ مَولاهُمُ الحَقِّ ۚ أَلا لَهُ الحُكمُ وَهُوَ أَسرَعُ الحاسِبينَ ﴿٦٢﴾الأنعام. وجاء في تفسير الطبري رحمه الله: وهو أسرع من حسب عددكم وأعمالكم وآجالكم وغير ذلك من أموركم أيها الناس وأحصاها وعرف مقاديرها ومبالغها لأنه لا يحسب بعقد يد ولكنه يعلم ذلك ولا يخفى عليه منه خافية، لا يَعزُبُ عَنهُ مِثقالُ ذَرَّةٍ فِي السَّماواتِ وَلا فِي الأَرضِ وَلا أَصغَرُ مِن ذٰلِكَ وَلا أَكبَرُ إِلّا فِي كِتابٍ مُبينٍ ﴿٣﴾سبأ [2].

فالعد والإحصاء والحساب من كمال حكمة الله سبحانه وتعالى وعدله. ومن أعظم ذلك أن الله

عز وجل قائم بالقسط وهو العدل الظاهر في حكمه الكوني[2] والشرعي والجزائي. فيكون عدله سبحانه ظاهر لنفسه في حكمه الكوني بالميزان الكوني الذي وضعه في يده، وظاهر لخلقه في حكمه الشرعي بالميزان الشرعي الذي كلفنا به في الدنيا، وظاهر لخلقه في حكمه الجزائي بالميزان الشرعي الذي يحاسبنا به في الآخرة. ولهذا فقد شهد الله جل جلال لنفسه بالقسط في حكمه كله الكوني والشرعي والجزائي في أعظم شهادة في كتابه العظيم فقال جل في علاه: شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلهَ إِلّا هُوَ وَالمَلائِكَةُ وَأُولُو العِلمِ قائِمًا بِالقِسطِ ۚ لا إِلهَ إِلّا هُوَ العَزيزُ الحَكيمُ ﴿١٨﴾آل عمران. وأخبر سبحانه أنه أرسل الرسل بالحق والميزان الشرعي ليقوم الناس بالقسط بحسب ما كلفهم به فقال تعالى: لَقَد أَرسَلنا رُسُلَنا بِالبَيِّناتِ وَأَنزَلنا مَعَهُمُ الكِتابَ وَالميزانَ لِيَقومَ النّاسُ بِالقِسطِ(الحديد). وأخبر أنه سبحانه أنزل الكتب بالحق والميزان الشرعي في قوله تعالى: اللَّهُ الَّذي أَنزَلَ الكِتابَ بِالحَقِّ وَالميزانَ ۗ وَما يُدريكَ لَعَلَّ السّاعَةَ قَريبٌ ﴿١٧﴾ (الشورى). وأخبر سبحانه أنه سيضع موازين القسط يوم القيامة لحساب المكلفين في حكمه الجزائي المترتب على حكمه الشرعي الذي كلفهم به فقال تعالى: وَنَضَعُ المَوازينَ القِسطَ لِيَومِ القِيامَةِ فَلا تُظلَمُ نَفسٌ شَيئًا ۖ وَإِن كانَ مِثقالَ حَبَّةٍ مِن خَردَلٍ أَتَينا بِها ۗ وَكَفىٰ بِنا حاسِبينَ ﴿٤٧﴾الأنبياء. وجعل الرسل عليهم الصلاة والسلام شاهدين على ذلك يوم الحساب فقال سبحانه: وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَسولٌ ۖ فَإِذا جاءَ رَسولُهُم قُضِيَ بَينَهُم بِالقِسطِ وَهُم لا يُظلَمونَ ﴿٤٧﴾يونس.

فتأمل كيف أن الله عز وجل وصف نفسه بأنه قائم بالقسط في حكمه الكوني، وأمر عباده بالقسط في حكمه الشرعي، وأنه سبحانه سيحاسبهم بالقسط يوم الحساب في حكمه الجزائي. وهذا كله من كمال عدله وحكمته سبحانه وتعالى. ومن تمام عدله أنه سبحانه حرم الظلم على نفسه في حكمه

[2]حكم الله الكوني هو حكم الله القدري التابع لإرادته والقضاءي النافذ بقدرته والذي فيه شأن الله عز وجل وتدبيره لهذا الكون بحكمته ورحمته وعدله، والذي سبق علم الله به أزلا وكتابته له في اللوح المحفوظ قبل خلق السموات والأرض.

الكوني والجزائي وجعله محرما على عباده في حكمه الشرعي كما أخبر النبي ﷺ في الحديث القدسي فيما روى عن الله تبارك وتعالى أنه قال: يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرما. فلا تظالموا [3].[3]

1.3 الحساب داخل في أمر الله الشرعي

أرسل الله عز وجل الرسل وأنزل الكتب أولا لإقامة الحق ومن أعظم ذلك عبادة الله وحده لا شريك له، وثانيا لإقامة الميزان الشرعي ليقوم الناس بالقسط فيما بينهم. ولقد كان الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام أكثر الناس إعتبارا بآيات الله الكونية وأعلم الناس بأحكام الله الشرعية والجزائية وأكملهم إدراكا وعقلا. ولهذا فقد سعى الرسل إلى إقامة الحق أولا بالدعوة إلى توحيد الله في عبادته، وإلى إقامة الميزان الشرعي ثانيا بالدعوة إلى القسط والعدل بين الناس. فلزم بذلك معرفتهم للكيل والميزان وما يدخل في ذلك من العد والحساب الذي به تحفظ الأموال والحقوق في المعاملات بين الناس. فالحساب يمكن حفظه أو كتابته وفي صحته وبيانه القسط الذي أمر الله به. والغش في الحساب أو الجهل به من مخالفة الميزان الشرعي ومن الظلم والفساد الذي لا يرضى الله به ومن أسباب تعجيل سخط الله في الدنيا قبل الأخرة.

وقد كان يوسف عليه السلام عالما بالحساب حافظا وكاتبا له كما في قوله تعالى: قالَ اجعَلني عَلى خَزائِنِ الأَرضِ إِنّي حَفيظٌ عَليمٌ ﴿٥٥﴾يوسف. فقد جاء في تفسير البغوى والطبري معنى (إِنّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ): أي كاتب حاسب حفيظ للخزائن عليم بوجوه مصالحها، وقيل: أي حفيظ للحساب عليم بالألسن أعلم لغة كل من يأتيني. وجاء في تفسير القرطبي: إني حاسب كاتب، وأنه أول من كتب في

[3]صحيح مسلم: 2577.

القراطيس. ويقول السعدي في تفسير ذلك: (إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ) أي: حفيظ للذي أتولاه، فلا يضيع منه شيء في غير محله، وضابط للداخل والخارج، عليم بكيفية التدبير والإعطاء والمنع، والتصرف في جميع أنواع التصرفات، وليس ذلك حرصا من يوسف على الولاية، وإنما هو رغبة منه في النفع العام، وقد عرف من نفسه من الكفاءة والأمانة والحفظ ما لم يكونوا يعرفونه. فلذلك طلب من الملك أن يجعله على خزائن الأرض، فجعله الملك على خزائن الأرض وولاه إياها [1]. وهذا فيه أنه بالحساب الصحيح تحفظ الأموال وتعطى الحقوق بالعدل وبه يقام الميزان الشرعي لتحقيق العدل بين الناس.

ولقد كان النبي ﷺ يرشد الناس إلى الحساب الصحيح ويحثهم عليه بحسب ما أوحي له وفي هذا دليل نبوته فهو نبي أمي لا يحسب فعَنْ أَبِي سَعِيدٍ وَأَبِي هُرَيْرَةَ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ اسْتَعْمَلَ رَجُلًا عَلَى خَيْبَرَ فَجَاءَهُ بِتَمْرٍ جَنِيبٍ فَقَالَ: «أَكُلُّ تَمْرِ خَيْبَرَ هَكَذَا؟» قَالَ: لَا وَاللَّهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ, إِنَّا لَنَأْخُذُ الصَّاعَ مِنْ هَذَا بِالصَّاعَيْنِ وَالصَّاعَيْنِ بِالثَّلَاثِ فَقَالَ: «لَا تَفْعَلْ بِعِ الْجَمْعَ بِالدَّرَاهِمِ ثُمَّ ابْتَعْ بِالدَّرَاهِمِ جَنِيبًا». وَقَالَ: «فِي الْمِيزَانِ مِثْلَ ذَلِكَ» (مُتَفَقٌ عَلَيْهِ). وهذا فيه حرص النبي ﷺ حيث علم أنه بزيادة الصاع لا تثبت قيمة البيع لا حجما ولا وزنا ولا ثمنا. فيكون من أخذ صاعين بدل صاع فقد اشترى بنصف قيمة ما باع، بينما من أخذ ثلاثة بدل اثنين فقد اشترى بثلثي قيمة ما باع، وهكذا. وهذا من الظلم في المعاملات الذي لا يقع إلا خطأ أو جهلا أو غشا. فأخبر النبي ﷺ أن هذا بخلاف الميزان وهو الحساب الصحيح في البيع والشراء، بل ونهى عن ذلك وأمر بأخذ القيمة عند البيع ومن ثم الشراء حتى تثبت القيمة بالنسبة للنوع وزنا أو حجما. وفيه أيضا أن الرسول ﷺ سمى الحساب الصحيح ميزانا في قوله "في الميزان مثل ذلك". ولهذا فإن الحساب في أصله ما هو إلا صورة معنوية للميزان الحسي.

وغير ذلك من المواقف الأخرى التي كان النبي ﷺ يبين فيها الحساب الصحيح للناس كبيان

عدد ساعات اليوم وأيام الشهر وغير ذلك من الأمور التي تنفع الناس في دينهم ودنياهم. ومن ذلك بيان أحب الصلاة والصيام عند الله تبارك وتعالى فعن عبد الله بن عمرو أَنَّ رَسولَ اللَّهِ ﷺ قالَ له: أَحَبُّ الصَّلَاةِ إلى اللَّهِ صَلَاةُ دَاوُدَ عليه السَّلَامُ، وأَحَبُّ الصِّيَامِ إلى اللَّهِ صِيَامُ دَاوُدَ، وكانَ يَنَامُ نِصْفَ اللَّيْلِ ويقومُ ثُلُثَهُ، ويَنَامُ سُدُسَهُ، ويَصُومُ يَوْمًا، ويُفْطِرُ يَوْمًا. ومجموع النصف مع الثلث والسدس هو واحد وهو مجموع ساعات الليلة الواحدة من بعد صلاة العشاء إلى أذان صلاة الفجر. ولا يحسب ذلك من غروب الشمس لأن النبي ﷺ أولا بدأ بالنوم وثانيا جعل الثلث لصلاة قيام الليل والثلثين للنوم ولم يدخل صلاتي المغرب والعشاء في ذلك، فدل على أن ساعات الليل المذكورة في هذا الحديث تبدأ من بعد صلاة العشاء مباشرة. فلو إنتهت صلاة العشاء عند التاسعة مساءا وكانت صلاة الفجر عند السادسة صباحا، كان مجموع ساعات الليل الخاصة بالقيام والنوم معا 9 ساعات. وبهذا تكون ساعات النوم الأولى قبل قيام الليل أربعة ساعات ونصف (أي من 9:00 م إلى 01:30 ص)، وتكون ساعات القيام ثلاث ساعات (من 01:30 ص إلى 4:30 ص)، وساعة ونصف من النوم قبل الفجر (من 4:30 ص إلى 6:00 ص). ولو أدخلت صلاتي المغرب والعشاء وما بينهما في ذلك للزم دخولهم في ثلث القيام وبالتالي يكون المغرب أول قيام الليل، والعشاء منتصف قيام الليل، وقيام الليل آخر قيام الليل وكلها جميعا ثلث الليل وكانت باقي الثلثين للنوم وهذا غير راجح لأن النبي ﷺ بدأ بالنوم فدل على أن ذلك إنما يكون من بعد صلاة العشاء، والله أعلم.

ومن ذلك أن النبي ﷺ بين للناس حساب العشرة الأضعاف من الحسنات خلال اليوم والليلة في الذكر وأنها تذهب مثلها من السيئات في العدد فقال: خَصْلتانِ لا يُحافِظُ عليهِما عبدٌ مُسلمٌ إلا دخل الجنةَ، ألا وهُما يَسِيرٌ، ومَن يعملْ بِهِما قَليلٌ، يُسَبِّحُ اللهَ في دُبُرِ كُلِّ صلاةٍ عَشْرًا (10)، ويَحمَدُه عشْرًا (10)، ويُكبِّرُه عشْرًا (10)، (ومجموع ذلك 30 في الصلاة الواحدة)، فذلِكَ خَمسُونَ ومِائَةٌ باللِسانِ

(150 = 30 × 5 أي في الصلوات الخمس)، وألفٌ وخَمسُمِائةٌ في المِيزانِ (1500 = 150 × 10 أي عشرة أضعافها). ويُكبِّرُ أربعًا وثلاثِينَ إذا أخَذَ مَضْجَعَهُ (34)، ويَحمدُه ثلاثًا وثلاثِين (33)، ويُسَبِّحُ ثلاثًا وثلاثِينَ (33)، فتِلكَ مائةٌ باللِسانِ (100 = 34 + 33 + 33 أي حاصل جمعها)، وألْفٌ في المِيزانِ (1000 = 100 × 10 أي عشرة أضعافها)، فأيُّكُمْ يَعْملُ في اليومِ والليلةِ ألْفينِ وخَمسَمائةِ سَيِّئَةٍ (2500 = 1500 + 1000 أي عدد الحسنات الكلي المترتب على هذا الذكر خلال اليوم والليلة) (صحيح الجامع، وصححه الألباني). وكل ذلك فيه دليل على نبوته ﷺ فهو أمي لا يحسب ولكن لا ينطق إلا بالحق كما أخبر ذلك الله عز وجل في كتابه العظيم: وَما يَنطِقُ عَنِ الهَوىٰ ﴿٣﴾ إِن هُوَ إِلّا وَحيٌ يوحىٰ ﴿٤﴾ النجم. فلك أن تتأمل في حكمة الله عز وجل في الحث على تعلم العدد والحساب وكيف أن النبي ﷺ كان يبين للناس الحساب الصحيح في الأعمال الصالحة للمحافظة عليها طلبا لرضوان الله جل جلاله وجنته وعلما بأن الله كان على كل شيء حسيبا كما في قوله تعالى: وَإِذا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحسَنَ مِنها أَو رُدُّوها ۗ إِنَّ اللَّهَ كانَ عَلىٰ كُلِّ شَيءٍ حَسيبًا ﴿٨٦﴾ اللَّهُ لا إِلـٰهَ إِلّا هُوَ ۚ لَيَجمَعَنَّكُم إِلىٰ يَومِ القِيامَةِ لا رَيبَ فيهِ ۗ وَمَن أَصدَقُ مِنَ اللَّهِ حَديثًا ﴿٨٧﴾ النساء.

ولقد جاء عن النبي ﷺ أنه دعى لمعاوية تعلم الحساب مع كتاب الله عز وجل في شهر رمضان المبارك فعن العرباض بن سارية أنه قال سمِعتُ النَّبيَّ ﷺ وهوَ يَدعو إلى السَّحورِ في شهرِ رمضانَ: هَلُمَّ إلى الغداءِ المبارَكِ ثمَّ سمعتُه يقولُ: اللَّهمَّ علِّمْ مُعاويةَ الكِتابَ، والحِسابَ ، وقِهِ العَذابَ. وفي رواية أخرى: اللهم علمه الكتاب ومكن له في البلاد وقه العذاب [4][5][6][7].[4] ولعل هذا فيه الإشارة الكافية لأهمية علم الحساب وأنه من الدين وأنه من أسباب التمكين لأن به يقام العدل في الحكم كما سيأتي بيانه في فصل الحكم الرشيد. وفي هذا الحديث العديد من الأسرار، لعل من ذلك

[4] أحمد: 17152، وأورده الذهبي في سير أعلام النبلاء وبن كثير في البداية والنهاية، والإمام الألباني في السلسلة الصحيحة.

أن النبي ﷺ علم أن معاوية رضي الله عنه سيكون ملكا على الشام فدعى له تعلم الحساب حتى يقيم العدل في حكمه فقد صح عن النبي ﷺ أنه قال: أَوَّلُ هذا الأمرِ نُبَوَّةٌ ورحمةٌ، ثُمَّ يكونُ خلافةً ورحمةً، ثمَّ يكونُ مُلكًا ورحمةً [7].[5] ولقد إستجاب الله جل جلاله هذا الدعاء لنبيه ﷺ فقد كان معاوية رضي الله عنه أول ملوك المسلمين بعد الخلفاء الراشدين وكان حكما عدلا حتى عرف بالمهدي عند أئمة التابعين فقد جاء عن مجاهد رحمه الله أنه قال: "لو رأيتم معاوية لقلتم هذا المهدي". وقال قتادة رحمه الله: "لو أصبحتم في مثل عمل معاوية لقال أكثركم: هذا المهدي". وقد ذكر عند الأعمش عمر بن عبد العزيز وعدله، فقال الأعمش: "فكيف لو أدركتم معاوية؟ قالوا: يا أبا محمد، يعني في حلمه؟ قال: لا والله، ألا بل في عدله". ولهذا يقول شيخ الإسلام بن تيمية: اتفق العلماء على أن معاوية أفضل ملوك هذه الأمة فإن الأربعة قبله كانوا خلفاء نبوة وهو أول الملوك [8].[6]

ومن هذا يعرف أن علم الحساب هو علم صادق وشريف ودقيق به يقام العدل والقسط في الحكم والمعاملات وهو من بنيان الحكم الرشيد. ولهذا فقد نقل شيخ الإسلام بن تيمية رحمه الله إعتناء أهل السنة في زمانه بالعلوم الصادقة ومنها الحساب وخص الخوارزمي في ذلك فقال: ولهذا يرغب كثير من علماء السنة في النظر في العلوم الصادقة الدقيقة كالجبر والمقابلة وعويص الفرائض والوصايا والدور وهو علم صحيح في نفسه [.] وأما "حساب الفرائض" فمعرفة أصول المسائل وتصحيحها والمناسخات وقسمة التركات. وهذا الثاني كله علم معقول يعلم بالعقل كسائر حساب المعاملات وغير ذلك من الأنواع التي يحتاج إليها الناس. ثم قد ذكروا حساب المجهول الملقب بحساب الجبر والمقابلة في ذلك وهو علم قديم لكن إدخاله في الوصايا والدور ونحو ذلك أول من عرف أنه أدخله فيها محمد بن موسى

[5] صححه الألباني في السلسلة الصحيحة: 3270.
[6] مجموع الفتاوى: 4/478.

الخوارزمي. وبعض الناس يذكر عن علي بن أبي طالب أنه تكلم فيه وأنه تعلم ذلك من يهودي وهذا كذب على علي [8].[7]

1.4 الجهل بالحساب من الأمية

ومن البلايا في زماننا هذا أن المسلمين قد غفلوا عن أهمية علم الحساب حتى ظن الكثير منهم أنه ليس من الدين في شيء فضيعوه وتأخروا فيه علما وتهاونوا في عملا بعد أن كانوا روادا فيه ووضعوا أسسه بالإيمان الصادق للبشرية جمعاء. فقد تمكن المسلمون بناءا على آيات الله التي تأمر بالقسط والعدل في الميزان من وضع أسس وقواعد علم الجبر والمقابلة في زمن هارون الرشيد على يدي العالم الجليل محمد بن موسى الخوارزمي رحمه الله تعالى. فسبقوا بذلك كل الأمم الأخرى كما سيأتي وكان الخوارزمي أول من كتب المعادلات الجبرية وأول من حلها بطريقته التي عرفت بإسمه "الخوارزميات" حتى أطلق عليه أبو الحساب، وأبو الجبر، وأبو الخوارزميات. فاعتنت وتسابقت وتهالفت على علمه الأمم الأخرى وكان سببا في نهوضها وإزدهارها بل وأيضا تسلطها على أمة الإسلام. وفي المقابل تأخر المسلمون في علم الحساب وفُقِدَ كتاب الخوارزمي وسرق وما طبع إلا بعد ألف عام من تأليفه بعد أن تشبعت الحضارات الأخرى من علمه وبالأخص الحضارات الغربية. فقد ترجم كتابه إلى أغلب اللغات الأوروبية وأعتني به في جامعاتهم وأدخلت مصطلحاته إلى معاجمهم وكان هذا هو المفتاح والسر وراء نهضتهم العلمية في كافة العلوم الكونية السببية النافعة. فتقدموا في كافة المجالات ولا زلنا نرى إلى يومنا هذا تأثير علم الجبر والخوارزميات في جميع علوم التكنولوجيا وبالأخص في مجال الحاسوب والذكاء الإصطناعي بجميع أنواعه. وأصبحنا نسعى لتعلم هذه العلوم منهم بعد أن تعلموها منا. وما هذا إلا لأن تضيع علم

[7] مجموع الفتاوى 9/214.

الحساب والجهل به من الأمية التي جاء الإسلام بالحث على خلافها من طلب العلم ونشره وإقامة الحق والميزان.

فالأمية لا تكون فقط بعدم القدرة على القراءة والكتابة كما هو شائع، وإنما ايضا بعدم القدرة على الحساب الصحيح وعلى الوجه المطلوب. ومما يأكد هذا قوله ﷺ عندما سأل عن عدد الأيام في الشهر فقال ﷺ: إِنَّا أُمَّةٌ أُمِّيَّةٌ، لا نَكْتُبُ ولَا نَحْسُبُ، الشَّهْرُ هَكَذَا وهَكَذَا. يَعْنِي مَرَّةً تِسْعَةً وعِشْرِينَ، ومَرَّةً ثَلَاثِينَ" (صحيح البخاري). فجعل ﷺ الجهل بعلم الحساب في زمانه من الأمية. ولا ينبغي أن يستدل بهذا على عدم تعلم الحساب والأخذ به فهذا الإستدلال باطل يخالف كتاب الله عز وجل وسنة نبيه ﷺ كما تقدم. وإنما المقصود بالأمية في هذا الحديث هو الرسول ﷺ وأصحابه رضوان الله عليهم أجمعين الذين وصفهم الله جل جلاله بالأمية، أي أنهم في غالبهم لا يكتبون ولا يحسبون. وقد بين الله جل جلاله الأمية في حق نبيه في قوله تعالى: فَآمِنوا بِاللَّهِ وَرَسولِهِ النَّبِيِّ الأُمِّيِّ الَّذي يُؤمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِماتِهِ وَاتَّبِعوهُ لَعَلَّكُم تَهتَدونَ ﴿١٥٨﴾ الأعراف. والأمية في القراءة والكتابة والحساب لا تعارض النبوة في شيء بل هي دليل على صدق النبي ﷺ. وقد بين الله جل جلاله الأمية في حق الصحابة رضوان الله عليهم في قوله تعالى: هُوَ الَّذي بَعَثَ فِي الأُمِّيّينَ رَسولًا مِنهُم يَتلو عَلَيهِم آياتِهِ وَيُزَكّيهِم وَيُعَلِّمُهُمُ الكِتابَ وَالحِكمَةَ وَإِن كانوا مِن قَبلُ لَفي ضَلالٍ مُبينٍ ﴿٢﴾ الجمعة. وهذا هو المعنى الصحيح كما بين ذلك الشيخ ابن باز رحمه الله حيث قال: فكل إنسان لم يتعلم ولم يكتب يقال له: أمي، والأمة العربية هكذا كان الغالب عليها أنها أمية لا تكتب ولا تقرأ، هذا الغالب على أمة محمد ﷺ [هـ]. ومن ذلك أيضا أنها كانت أمة لا تحسب كما بين ذلك النبي ﷺ.

وهذا لا يعنى بحال من الأحوال أن تبقى أمة الإسلام أمة أمية على اللاحقين منها. فقد جاءت الشريعة أولا بالحث على القراءة والكتابة، وثانيا بالحث على الحساب لرفع الأمية عن أمة الإسلام.

فكان أول ما أنزل الله "إقرا" وفيه الحث لأمة الإسلام على تعلم القراءة والكتابة وطلب العلم ونشره. يقول تعالى: اقرَأْ بِاسمِ رَبِّكَ الَّذي خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ الإِنسانَ مِن عَلَقٍ ﴿٢﴾ اقرَأْ وَرَبُّكَ الأَكرَمُ ﴿٣﴾ الَّذي عَلَّمَ بِالقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ الإِنسانَ ما لَم يَعلَم ﴿٥﴾العلق. ومن ثم جاء الحث على التأمل في آيات الله الكونية في مواضع كثيرة ليس فقط لمجرد التفكر في خلق الله ولكن أيضا لتعلم العدد والحساب كما جاء في قوله تعالى: هُوَ الَّذي جَعَلَ الشَّمسَ ضِياءً وَالقَمَرَ نورًا وَقَدَّرَهُ مَنازِلَ لِتَعلَموا عَدَدَ السِّنينَ وَالحِسابَ ۚ ما خَلَقَ اللَّهُ ذٰلِكَ إِلّا بِالحَقِّ ۚ يُفَصِّلُ الآياتِ لِقَومٍ يَعلَمونَ ﴿٥﴾يونس. وكان هذا الحث على القراءة والكتابة والحساب منذ بداية فجر الإسلام في العهد المكي الذي اتسم بالدعوة إلى التوحيد الخالص. فدل ذلك على أن دين الإسلام هو دين الحضارة التي تبنى على الحق والعدل معا. ولهذا فإن كل إنسان لم يتعلم الحساب مع القراءة والكتابة يكون أميا كما بين ذلك النبي ﷺ. والله حث هذه الأمة في كتابه العظيم على العلم الذي يتأتى بالقراءة والكتابة حتى تقيم الحق، وعلى تعلم العدد والحساب حتى تقيم الميزان الشرعي بالعدل والقسط في جميع المعاملات بين الناس.

وفي ذلك الحكمة البالغة من الله جل جلاله حتى يكون لأمة الإسلام دعوة الحق والميزان ويكون الحساب مفتاحا للعلوم الكونية السببية النافعة، فتأخذ بالأسباب وتتقدم في كافة المجالات على سائر الأمم الأخرى كما كان الحال في زمن هارون الرشيد في بداية العصر الإسلامي الذهبي قبل أن تعصف به رياح البدع والأهواء. وبالأخص فتنة خلق القرآن في زمن الإمام أحمد رحمه الله وما جاء بعد ذلك في زمن شيخ الإسلام بن تيمية رحمه الله. ورغم ذلك فقد جعل أهل السنة أوقات فراغهم لتعلم الحساب والهندسة كما نقل ذلك شيخ الإسلام بن تيمية في قوله: وكذلك كثير من متأخري أصحابنا يشتغلون وقت بطالتهم بعلم الفرائض والحساب والجبر والمقابلة والهندسة ونحو ذلك؛ لأن فيه تفريحا للنفس وهو علم صحيح لا يدخل فيه غلط. وقد جاء عن عمر بن الخطاب أنه قال: "إذا لهوتم فالهوا

بالرمي وإذا تحدثتم فتحدثوا بالفرائض". فإن حساب الفرائض علم معقول مبني على أصل مشروع فتبقى فيه رياضة العقل وحفظ الشرع. لكن ليس هو علما يطلب لذاته ولا تكمل به النفس [8].[8] فتأمل في وصف شيخ الإسلام لعلم الحساب أن فيه حفظا للشرع وهذا من المصالح الدينية العظيمة.

وكل هذا فيه اهتمام السلف بعلم الحساب والهندسة في أوقات فراغهم رغم إنشغالهم بالأمور العظيمة الأخرى في بيان الحق ورد البدع والشبهات التي عصفت بذلك الزمان كعلم الكلام أي الفلفسة في الدين والعقائد التي تخالف صريح كتاب الله جل جلاله وسنة نبيه ﷺ. وهذا لأن الجهل بعلم الحساب يترتب عليه العديد من المفاسد الدينية والدنيوية. فمن المفاسد الدينية أن التفريط بالحساب الصحيح يؤدي إلى الظلم والفساد في المعاملات والمواريث والزكاة والصدقات وغيرها. ومن المفاسد الدنيوية أن الجهل بالحساب يؤدي إلى الجهل بالعلوم الكونية السببية النافعة والتي لا سبيل لفهمها فهما صحيحا إلا بالحساب كالهندسة والطب وما يترتب على ذلك من التخلف الحضاري عن سائر الأمم الأخرى في كافة الصناعات والمجالات الأخرى. وقد كان الإمام الشافعي رحمه الله يتحسر على تأخر المسلمين في علم الطب في زمانه كما نقل ذلك الإمام الذهبي رحمه الله في سير أعلام النبلاء أن الإمام الشافعي قال: لا أعلم علمًا بعد الحلال والحرام أنبل من الطب إلَّا أن أهل الكتاب قد غلبونا عليه. وقال حرملة: كان الشافعي يتلهف على ما ضيع المسلمون من الطب ويقول: ضيعوا ثلث العلم ووكلوه إلى اليهود والنصارى [5].

ولقد كان النبي ﷺ كان يأمر أصحابه بالأخذ بالعلم السببي النافع مثل الرمي لحاجة المسلمين له فقال: مَن عَلِمَ الرَّمْيَ، ثُمَّ تَرَكَهُ، فليسَ مِنَّا، أوْ قدْ عَصَى (صحيح مسلم، وصححه الألباني). ولهذا فإن العلوم الكونية السببية النافعة كالهندسة والطب وغيرها، التي يحتاج إليها المسلمين والتي هي من فروض الكفاية، تكون

[8] مجموع الفتاوى 9/129.

واجبة عند حاجة المسلمين لها في دينهم ودنياهم وفي تضييعها ضعف المسلمين والحاجة إلى الكفار والإعتماد عليهم والإنهزام أمامهم. وفي الأخذ بها قوة للمسلمين وكفايتهم عن غيرهم. فكيف بتضييع مفتاحها وهو علم الحساب الذي جاءت الشريعة بالحث عليه لإقامة العدل بين الناس. فالحساب هو علم الإتقان ولقد كان النبي ﷺ يحث أمته على الإتقان في كل شئ فعن عائشة أم المؤمنين أن النبي ﷺ قال: إنَّ اللهَ تعالى يُحِبُّ إذا عمِلَ أحدُكمْ عملًا أنْ يُتقِنَهُ [9].[9] فالإتقان في علم الحساب الذي به يحصل القسط في المعاملات واجب لا ينبغى أن يتهاون فيه لأن خلاف ذلك يترتب عليه الظلم في المعاملات.

ولا يزال علماء السنة يحثون على هذه العلوم النافعة إلى زماننا هذا. يقول الشيخ ابن باز رحمه الله: لا شكَّ أن الدراسة للعلوم الدنيوية أمرٌ مطلوبٌ، والله يقول سبحانه: وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ [الأنفال:60]، فالمسلمون بحاجةٍ إلى العلوم الدنيوية حتى يستعينوا بها على طاعة الله، وعلى الاستغناء عمَّا في أيدي الناس، وعلى جهاد أعداء الله، مع كون المسلمين يتعلَّمون الجيولوجيا والهندسة والطب وغير ذلك مما يُعينهم، وكذلك ما يخترعون في القوة التي يُجاهد بها الأعداء، كل ما يُعينهم على جهاد الأعداء واتِّقاء شرِّ الأعداء ويغنيهم عن الأعداء فهو أمرٌ مطلوبٌ: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ [النساء:71]، وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ [الأنفال:60]. فالاشتغال بالعلوم الدنيوية التي تنفع المسلمين إن كان لله، أُجِرَ عليها، مع فائدتها العظيمة، وإن كان يتعلَّمها للدنيا ليستفيد في دنياه فهذا مباحٌ ولا يضرُّه ذلك. لكن العلوم الدينية أهم، فليأخذ منها بنصيبٍ، ويجتهد في تعلم دينه، والتَّفقه في دينه، ثم مع ذلك يتعلم ما ينفعه في دنياه إذا استطاع ذلك، وإذا جمع بين الأمرين فهو خيرٌ إلى خيرٍ، يقول النبيُّ ﷺ: مَن يُرد الله به خيرًا يُفقهه في الدين، فإذا تفقَّه في دينه واستفاد مع ذلك في

[9] صحيح الجامع: 1880، وقال الألباني حديث حسن.

دنياه طبًّا أو صنعةً أخرى تنفعه أو أشياء مما ينفع العبدَ في هذه الدنيا؛ فذلك خيرٌ إلى خيرٍ [.] فتعلم العلوم الدنيوية أمرٌ مفيدٌ ونافعٌ، بشرط ألا يشغل عن علم الآخرة وعمَّا ينفعه في الآخرة، فإن جمع بينهما فقد جمع خيرًا إلى خيرٍ، وإن صلحت نيته في علوم الدنيا كانت عبادةً، وإذا تعلَّمها للدنيا فليس له ولا عليه، تعلم شيئًا مباحًا، لا حرج عليه، لكن متى صلحت نيته وأراد بهذا نفع المسلمين وتقويتهم ضدّ عدوهم؛ جمع الله له الخيرين: الأجر، ومع ذلك النَّفع بهذا المُتعلَّم ☐.[10]

فالحساب وما يبنى عليه من شتى العلوم الأخرى وبالأخص الهندسة فيها العديد من المنافع المعرفية التي تطور الإدراك ومن أهم ذلك قوة الإستدلال العقلى في فهم الأسباب والبحث فيها ومناقشتها وإثباتها بالحجة والبرهان وبالحقائق وليس بمجرد الآراء. وقلما وجدت مهندسا بارعا في مجاله إلا ورأيت فيه قوة الحجة والإستدلال العقلي. فإن إجتمع ذلك مع الصدق في النظر في مختلف المعطيات كان ذلك سببا في إنجاز ما يصعب إنجازه. ولعل من ذلك ما ذكره الشيخ صالح آل الشيخ حفظه الله من خلال دراسته للرياضيات والفيزياء والكيمياء في كلية الهندسة فقال: في كلية الهندسة [.] وجدت البيئة التي فيها مناقشة عقلية قوية، فيها بحث عن البرهان، فيها بحث عن المشكلة وحلها، فيها فهم حقائق الأشياء [.] الهندسة تخصصات، فيها تخصص العمارة، وفيها تخصص الهندسة المدنية، فيها تخصص الهندسة الميكانيكية والهندسة الكيميائية، وفيها تخصص الهندسة الكهربائية [.] وفي كلية الهندسة كان يقال لنا كلمة آنشتاين المشهورة: "الجنون هو أن تفعل نفس الشيء مرارا وتكرارا وتتوقع نتائج مختلفة" [.] إذا تخرجت بصير مهندس هذا شرف ما في شيء، أفتخر يعني لو كنت مهندسا لما عابني ذلك بالعكس، وأحترم كل المهندسين لأنهم عقول نافعة والبشرية كلها بنيت بالهندسة [.] الذين أسدوا للبشرية نفعا في حياتهم هم المهندسين [.] هم الذين بنوا الطرق والمباني، هم الذين مدوا

[10] فتاوى الدروس، ما حكم وأهمية دراسة العلوم الدنيوية؟.

جسور الحياة. التقنية الآن المفيدة كلها عمل مهندسين، فثلث أرباع الحياة عمل مهندسين، والطب جزء والباقي منظمون ينظمون الحياة ↗. ولقد نوه الشيخ حفظه الله التشابه بين علم الحديث وعلم الهندسة وأن دراسته للهندسة كانت باعثا له للإهتمام بعلم الحديث لما فيه من قواعد وأصول في تقرير أسانيد الأحاديث كما في الهندسة من قواعد وقوانين في تقرير العمليات الحسابية.

1.5 نهج القرآن في تعلم الحساب

إن أفضل طريقة لفهم علم الحساب وتعلمه والبحث فيه هي التأمل والتفكر في آيات الله الكونية وهي الظواهر الطبيعية التي خلقها الله وجعل لها الميزان الكوني لفهمها وحسابها. فهي المرجع لنا لتعلم الحساب وللتحقق من صحته. وهذا النهج هو نهج القرآن وهو أفضل الطرق وأحسنها. فجميع الآيات الشرعية التي تدل على تعلم العدد الحساب جائت مقرونة بالآيات الكونية كالليل والنهار والشمس والقمر. ويمكن أيضا دراسة علم الحساب مجردا من أي تطبيقات وهذا نهج معروف.[11] ولكن الجمع بين العلوم الطبيعية كعلم الفيزياء والحساب لمحاولة محاكاة الظواهر الطبيعية هي الطريق الأمثل لتعلم وتطوير علم الحساب وهذا معروف لأهل هذا العلم.[12] وبهذا يكون الميزان الكوني طريقا لتعلم الحساب الصحيح ومن ثم يكون الحساب الصحيح وسيلة لإقامة الميزان الشرعي الذي أمرنا الله به. وهذا النهج فيه العديد من المصالح الدينية والدنيوية ومنها الزيادة في الإيمان ومعرفة قدرة الله جل جلاله ومعرفة فضله علينا والرقي بالحضارة في تطوير الطرق الحسابية وأدائها على الوجه المطلوب.

ومن أهم الظواهر الطبيعية التي يزداد بها الإيمان ويتعلم منها الحساب هي حركة الأفلاك من

[11] يعرف هذا المجال اليوم بالرياضيات البحتة وقد وجد فيه أن أغلب المفاهيم الرياضية لها تطبيقاتها.

[12] يعرف هذا المجال اليوم بالرياضيات الفيزيائية وهو من أهم مجالات وتخصصات الرياضيات التطبيقية.

الكواكب والنجوم وبالأخص الأرض والشمس والقمر التي بها يعرف الوقت كما قال تعالى: وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيلَ وَالنَّهارَ وَالشَّمسَ وَالقَمَرَ ۖ وَالنُّجومُ مُسَخَّراتٌ بِأَمرِهِ ۗ إِنَّ في ذٰلِكَ لَآياتٍ لِقَومٍ يَعقِلونَ ﴿١٢﴾النحل. فجعل سبحانه هذه الأفلاك في حركة منتظمة كما في قوله تعالى: وَهُوَ الَّذي خَلَقَ اللَّيلَ وَالنَّهارَ وَالشَّمسَ وَالقَمَرَ ۖ كُلٌّ في فَلَكٍ يَسبَحونَ ﴿٣٣﴾الأنبياء. وقال تعالى: لَا الشَّمسُ يَنبَغي لَها أَن تُدرِكَ القَمَرَ وَلَا اللَّيلُ سابِقُ النَّهارِ ۚ وَكُلٌّ في فَلَكٍ يَسبَحونَ ﴿٤٠﴾يس. وبمعرفة ذلك يزداد الإيمان ويعرف فضل الله علينا ودقة خلقه وأنه سبحانه هو بديع السماوات والأرض خالق كل شيء بقدر معلوم فقدره تقديرا. ولهذا فقد حثنا وأوصانا الله عز وجل بالتدبر والنظر في هذه الآيات العظيمة وذكرنا بذلك في غالب آيات القرآن حتى نعرف فضل الله علينا ونتفع بذلك ونوقن بلقائه كما في قوله تعالى: اللَّهُ الَّذي رَفَعَ السَّماواتِ بِغَيرِ عَمَدٍ تَرَونَها ۖ ثُمَّ استَوىٰ عَلَى العَرشِ ۖ وَسَخَّرَ الشَّمسَ وَالقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجري لِأَجَلٍ مُسَمًّى ۚ يُدَبِّرُ الأَمرَ يُفَصِّلُ الآياتِ لَعَلَّكُم بِلِقاءِ رَبِّكُم توقِنونَ ﴿٢﴾الرعد.

1.6 معرفة الوقت بحساب حركة الأفلاك

ومن أعظم النعم التي بها تقوم مصالح الناس الدينية والدنيوية هي معرفة الوقت الذي جعله الله جل جلاله بحسب حركة الأفلاك كما أرشد في كتابه العظيم. ولهذا يعرف الوقت بالعد والحساب لحركة الأفلاك المتناسقة والمتزنة وهذا من فضل الله جل جلاله على الناس أجمعين. فدوران الأرض حول نفسها وحول الشمس يعرف به تتابع الليل والنهار حيث قال تعالى: وَهُوَ الَّذي جَعَلَ اللَّيلَ وَالنَّهارَ خِلفَةً لِمَن أَرادَ أَن يَذَّكَّرَ أَو أَرادَ شُكورًا ﴿٦٢﴾الفرقان، ومقدار كل منهما 12 ساعة على خط الإستواء كما بين ذلك النبي ﷺ في قوله: يَومُ الجُمُعةِ ثِنْتا عَشرةَ ساعةً. ودوران القمر حول الأرض ومعها حول

الشمس يعرف به منازل القمر والتي بها تعرف أيام الشهر حيث قال تعالى: وَالقَمَرَ قَدَّرناهُ مَنازِلَ حَتّىٰ عادَ كَالعُرجونِ القَديمِ ﴿٣٩﴾يس، ومقداره 29 أو 30 يوما كما بين ذلك النبي ﷺ في قوله: الشَّهْرُ هَكَذَا وهَكَذَا. يَعْنِي مَرَّةً تِسْعَةً وعِشْرِينَ، ومَرَّةً ثَلَاثِينَ.[13] ودوران الأرض والقمر جميعا حول الشمس يعرف به السنة ومقداره 12 شهر منها أربعة حرم كما بين ذلك ربنا سبحانه وتعالى في قوله: إِنَّ عِدَّةَ الشُّهورِ عِندَ اللَّهِ اثنا عَشَرَ شَهرًا فِي كِتابِ اللَّهِ يَومَ خَلَقَ السَّماواتِ وَالأَرضَ مِنها أَربَعَةٌ حُرُمٌ ذٰلِكَ الدّينُ القَيِّمُ فَلا تَظلِموا فيهِنَّ أَنفُسَكُم وَقاتِلُوا المُشرِكينَ كافَّةً كَما يُقاتِلونَكُم كافَّةً وَاعلَموا أَنَّ اللَّهَ مَعَ المُتَّقينَ ﴿٣٦﴾التوبة.

ويعتدل طول الليل والنهار في الأرض على خط الإستواء طول العام فيكون عنده الليل 12 ساعة والنهار (أو اليوم) 12 ساعة وبهذا يكون اليوم كاملا 24 ساعة. ولا يزيد طول اليوم الكامل عن 24 ساعة ولكن يزداد طول النهار ويقصر فوق وأسفل خط الإستواء بحسب أوقات السنة. فإذا قصر النهار طال الليل وإذا طال النهار قصر الليل بنفس ذلك المقدار. وقد جاء عن جابر بن عبد الله أن النبي قال: يَومُ الجُمعةِ ثِنْتا عَشرةَ ساعةً. فإن كان المراد الساعة التي هي 60 دقيقة، لا يكون ذلك على طول العام إلا على خط الإستواء. ويمكن معرفة مقدار هذه الساعة بطول النهار وقصره بتقسيم عدد ساعات النهار على 12. فمثلا لو قصر طول النهار من 12 ساعة إلى 10 ساعات يكون مقدار الساعة 50 دقيقة. ولو زاد طول النهار إلى 14 ساعة يكون مقدار الساعة 70 دقيقة، وهكذا. وتأمل في أن النبي ﷺ قد دل على عدد ساعات الليل والنهار بالمتوسط الذي لا يعتدل طول العام إلا على خط الإستواء، ولم يقيد ذلك بالمكان أو أوقات السنة فدل هذا على العموم وهذا بلا شك صحيح ومن دلائل نبوته ﷺ.

[13] صحيح البخاري: الرقم.

وقد ذكر سبحانه وتعالى في كتابه الكريم أنه جعل الليل والنهار في الأرض خلفة، وأنه سبحانه يكور الليل على النهار ويكور النهار على الليل في الأرض، وأنه سبحانه يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل في الأرض. فدل ذلك أن الأرض كروية تدور حول نفسها بزاوية مائلة بالنسبة لمدارها حول الشمس وأن الأرض هي التي تدور حول الشمس وليس العكس. وهذا فيه أن الله يكور الليل على النهار بدوران الأرض حول نفسها وليس بدوران الشمس عليها. وبهذا يخلف الليل والنهار كل منهما الأخر ويلج أحدهما في الأخر بإستمرار فما طال من الليل يدخل في النهار والعكس بحسب مكان الأرض في مدارها وإتجاه درجة ميلانها بالنسبة للشمس.

ولهذا تتابع الفصول الأربعة وهي الشتاء والربيع والصيف والخريف خلال السنة الواحدة. وهذا لأن الأرض تدور حول نفسها بزاوية دوران مائلة تقدر 23.5 درجة بالنسبة لمحور دورانها حول الشمس. وهذه الزاوية هي التي تتسبب في طول النهار وقصره فوق وأسفل خط الإستواء خلال السنة الواحدة. فلو كانت الأرض تدور حول نفسها بشكل عمودي بالنسبة للشمس لما كانت الفصول الأربعة ولما قصر أو طال النهار خلال العام الواحد في نفس البلد. ولو كانت الأرض تدور حول نفسها بشكل أفقي بالنسبة للشمس لما كانت الفصول الأربعة ولأستغرق الليل والنهار عاما كاملا. ولك أن تتصور حكمة الله البالغة في ميل زاوية دوران الإرض بالنسبة للشمس بهذه الدرجة الدقيقة لكي تتابع كل المواسم الأربعة خلال العام الواحد فتكون بذلك فترة كل موسم 3 شهور وتتابع جميعها خلال 12 شهرا لتتم العام الواحد كما يتتابع الليل والنهار خلال 24 ساعة ليتم اليوم الكامل. وتتباع هذه المواسم ابتداءا من الشتاء الذي يقصر فيه النهار فيبرد فيه الجو وتكثر فيه الأمطار، والربيع الذي يتوسط فيه النهار بعد قصره فيعتدل فيه الجو بعد برودته فتتلون فيه الأشجار، والصيف الذي يطول فيه النهار بعد توسطه فيسخن فيه الجو بعد إعتداله، إلى الخريف الذي يتوسط فيه النهار بعد طوله فيعتدل

فيه الجو بعد سخونته فتسقط الأشجار أوراقها. وتتفاوت الأشجار والحيونات ومصالح الناس في هذه الفصول والمواسم كل بحسب ما قدر الله جل جلاله له وهذا من فضل الله ورحمته.

وقد ذكر الله جل جلاله هذه الفصول والمواسم التي بتتابعها تسقط الأمطار فتنموا الأشجار وتتلون ثم تصفر فتسقط أوراقها كما في قوله تعالى: أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً فَسَلَكَهُ يَنابِيعَ فِي الأَرضِ ثُمَّ يُخرِجُ بِهِ زَرعًا مُختَلِفًا أَلوانُهُ ثُمَّ يَهيجُ فَتَراهُ مُصفَرًّا ثُمَّ يَجعَلُهُ حُطامًا ۚ إِنَّ فِي ذٰلِكَ لَذِكرىٰ لِأُولِي الأَلبابِ ﴿٢١﴾ الزمر. يقول ابن كثير في تفسيره: وكثيرا ما يضرب الله تعالى مثل الحياة الدنيا بما ينزل الله من السماء من ماء، وينبت به زروعا وثمارا، ثم يكون بعد ذلك حطاما، كما قال تعالى: وَاضرِب لَهُم مَثَلَ الحَياةِ الدُّنيا كَماءٍ أَنزَلناهُ مِنَ السَّماءِ فَاختَلَطَ بِهِ نَباتُ الأَرضِ فَأَصبَحَ هَشيمًا تَذروهُ الرِّياحُ ۗ وَكانَ اللَّهُ عَلىٰ كُلِّ شَيءٍ مُقتَدِرًا ﴿٤٥﴾ الكهف [10]. وكل هذا فيه تذكير من الله لعباده لكي يعتبروا بذلك ويستحضروا أن الله قادر على بعثهم وحسابهم كما قال تعالى: فَانظُر إِلىٰ آثارِ رَحمَتِ اللَّهِ كَيفَ يُحيِي الأَرضَ بَعدَ مَوتِها ۚ إِنَّ ذٰلِكَ لَمُحيِي المَوتىٰ ۖ وَهُوَ عَلىٰ كُلِّ شَيءٍ قَديرٌ ﴿٥٠﴾ التوبة.

1.7 مفاهيم خاطئة حول الأرض والشمس والقمر

وأما من فسر كلام الله على أن الأرض في حقيقتها ثابتة لا تدور حول نفسها وأن الشمس هي التي تدور عليها فهذا كلام خاطئ لا يصح عقلا ولا يثبت شرعا وإن فُهِمَ أن ظاهر الأدلة في ذلك وهذا لأن الله جل جلاله وصف هذه الآيات بالنسبة للمشاهد من الأرض. فالله جل جلاله يخاطب الناس بما يناسب عقولهم كما في قوله تعالى: وَهُوَ أَهوَنُ عَلَيهِ (الروم) أي بالنسبة للعقول فالله على كل شئ قدير. وثبات سطحها لا ينافي دورانها حول نفسها بالنسبة لمن هو عليها كالذي يثبت على سطح المركوب

المنتظم في السير. وهذا لأنه بالنسبة لمن هو على الأرض فإنه يشاهد الشمس تدور عليه بتعاقب الليل والنهار. ولكن في حقيقة الأمر أنه ثابت على سطح الأرض التي تدور حول نفسها في غاية الإنتظام فلا يشعر بدورانها ويظهر له أن الشمس تدور عليه ولكن الأرض الكروية هي التي تدور حول نفسها وهذه الدورة الكاملة هي التي مقدارها 24 ساعة والتي فيها يتعاقب الليل والنهار.

فدورة الأرض الواحدة حول نفسها تستغرق 24 ساعة، ودورة القمر حول نفسه مقيدة بدورانه حول الأرض فيتم دورة كاملة عند تمام دورته على الأرض ومقدارها 29 أو 30 يوما. ولهذا فإن وجه القمر ثابت لا يتغير بالنسبة لمن هو في الأرض. وقد ثبت أن الشمس تدور حول نفسها ومقدار ذلك 27 يوم وقد صور ذلك بالتلسكوبات. وقد ثبت أيضا أن الشمس وما معها من كواكب في هذا النظام الشمسي تدور جميعا حول مجرتنا كما تدور الأرض ومعها القمر حول الشمس. ويمكن معرفة ذلك بالنجوم الثابتة في السماء والتي جعلها الله تبارك وتعالى ثابتة بالنسبة للأرض وللنظام الشمسي كله للإهتداء بها كما في قوله تعالى: وَهُوَ الَّذي جَعَلَ لَكُمُ النُّجومَ لِتَهتَدوا بِها في ظُلُماتِ البَرِّ وَالبَحرِ ۗ قَد فَصَّلنَا الآياتِ لِقَومٍ يَعلَمونَ ﴿٩٧﴾ (الأنعام). فدل هذا على ثباتها بالنسبة للمجموعة الشمسية وأنها تدور معها وهذا من فضل الله ورحمته بعباده. ولا يلزم بالقول بدوران الأرض حول نفسها أن الشمس ثابتة لا تتحرك وإنما الشمس ثابتة بالنسبة لمن يدور عليها من الكواكب ولكنها تدور حول نفسها وتتحرك حول المجرة مع كواكبها في النظام الشمسي كما أن الأرض ثابتة بالنسبة للقمر وهم معا يدورون حول الشمس.

وقد أرشدنا الله جل جلاله أن كل الأفلاك في فلك يسبحون، وهذا يعنى أن الأرض لها فلك أي مدار تسير عليه كما للشمس والقمر وسائر الكواكب والنجوم الأخرى وأن كل منهم يسبح في هذه المدارات أي في حركة مستمرة يدور حول نفسه بحسب ما قدر الله عز وجل لها. فالفلك هو

المدار والسباحة هي الدوران. وقد جاء في تفسير ابن كثير عن معنى قوله تعالى: وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسَبَحونَ ﴿٤٠﴾ (يس) أي: يدورون. قال ابن عباس: يدورون كما يدور المغزل في الفلكة. وكذا قال مجاهد: فلا يدور المغزل إلا بالفلكة، ولا الفلكة إلا بالمغزل، كذلك النجوم والشمس والقمر، لا يدورون إلا به، ولا يدور إلا بهن [10]. فتأمل تشبيه الصحابة لحركة الأفلاك بحركة المغزل في الفلكة وهذا فيه أن الصحابة رضوان الله عليهم قد فهموا ذلك فهما صحيحا من النبي ﷺ. وهذا موافق للعلم الحديث المؤكد وفيه دليل نبوته ﷺ وأن هذا الوصف لا يأتي قبل 1400 عام إلا من العليم الخبير الذي خلق هذا النظام وأتقنه سبحانه وتعالى. فمن المعروف أن المغزل لا يغزل به إلا بتدويره حول نفسه وهذا فيه وصف السباحة وهي الدوران. ومن تمام معرفتهم أنهم شبهوا مدار الأفلاك بالمغزل الذي يسير في الفلكة أي في مداره وهذا فيه إثبات السير مع الدوران لكل الأفلاك. وهذا يدل على أن الأرض تدور حول نفسها كما يدور القمر والشمس وسائر الكواكب والنجوم الأخرى. وأنها جميعا تسير مع الدوران في مداراتها ومن ذلك حركة القمر حول الأرض وحركة الأرض حول الشمس وحركة الشمس حول المجرة وكذالك سائر النجوم والكواكب الأخرى تدور حول نفسها وتسير في أفلاكها وهذا معروف وثابت بالمشاهدة والقياس والحساب وبالأخص في النظام الشمسي.

وبهذا يعلم أن الأفلاك الصغيرة تتبع الأفلاك الأكبر حجما والأثقل وزنا وكلها تتابع في سلسلة مقيدة بذلك لا تحيد عنه ولا تميل في نظام بديع ودقيق وجميل لا يدل إلا على عظمة الخالق وعظيم سلطانه وكمال علمه وواسع فضله. فكل الأفلاك تسير في حركة مستمرة ومتناسقة ومنتظمة بإستمرار تدور حول نفسها وتسير في مداراتها.[14] ومن ذلك حركة الشمس والقمر والليل والنهار في الأرض

[14] وهذا الدوران والسير يكون غالبا عكس عقارب الساعة بالنسبة للأقطاب الأفلاك الشمالية. والسير يكون في حركة دائرية تشبه حركة الطواف حول الكعبة. ولكن لا يوجد دليل شرعي على هذا التشابه. وكل ميسر لما خلق له بأمر الله تعالى.

كما في قوله تعالى: وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمسَ وَالقَمَرَ دائِبَينِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيلَ وَالنَّهارَ ﴿٣٣﴾ (إبراهيم). يقول السعدي رحمه الله: (وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ) لا يفتران، ولا ينيان، يسعيان لمصالحكم، من حساب أزمنتكم ومصالح أبدانكم، وحيواناتكم، وزروعكم، وثماركم [1]. وتستمر هذه الحركة المنتظمة إلى أن يشاء الله كما في قوله تعالى: خَلَقَ السَّماواتِ وَالأَرضَ بِالحَقِّ ۖ يُكَوِّرُ اللَّيلَ عَلَى النَّهارِ وَيُكَوِّرُ النَّهارَ عَلَى اللَّيلِ ۖ وَسَخَّرَ الشَّمسَ وَالقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجري لِأَجَلٍ مُسَمًّى ۗ أَلا هُوَ العَزيزُ الغَفّارُ ﴿٥﴾ (الزمر). [1] يقول السعدي رحمه الله: (لِأَجَلٍ مُسَمًّى) وهو انقضاء هذه الدار وخرابها، فيخرب الله آلاتها وشمسها وقمرها، وينشيء الخلق نشأة جديدة ليستقروا في دار القرار، الجنة أو النار [1].

ومن جعل الأرض ثابتة لا تدور حول نفسها ولا تسير في فلكها فقد خالف النقل والعقل ونفي عنها السير في الفلك والسباحة فيه وهي الدوران. بل ويترتب على هذا الفهم الخاطئ معارضة الآيات الشرعية التي تدل على تكوير الليل والنهار في الأرض بدورانها حول نفسها لأن هذه الحركة جائت مستقلة دون حركة الشمس والقمر. ومن قال أن قوله تعالى: وَهُوَ الَّذي خَلَقَ اللَّيلَ وَالنَّهارَ وَالشَّمسَ وَالقَمَرَ ۖ كُلٌّ في فَلَكٍ يَسبَحونَ ﴿٣٣﴾ الأنبياء لا يشمل الأرض فقد خالف سياق الآيات التي عممت هذا الحكم الكوني على هذه الأفلاك والتي إشتملت على الليل والنهار اللذان يكونان في الأرض. ومما يوضح هذا المعنى أن الله عز وجل وصف النهار بأنه يجلي الشمس وأن الليل يغشي الشمس في قوله تعالى: وَالشَّمسِ وَضُحاها ﴿١﴾ وَالقَمَرِ إِذا تَلاها ﴿٢﴾ وَالنَّهارِ إِذا جَلّاها ﴿٣﴾ وَاللَّيلِ إِذا يَغشاها ﴿٤﴾ الشمس، فدل هذا على أن الليل والنهار يكونان بحركة مستقلة وهي حركة الأرض وليس حركة الشمس. ولهذا لما كان سياق الآيات السابقة عن الشمس، جعل الله تعالى ظهور الشمس بالنهار وغيابها بالليل. وعندما كان سياق الآيات عن الليل والنهار لم يجعل ذلك مقيدا بالشمس كما في قوله تعالى: وَاللَّيلِ إِذا يَغشىٰ ﴿١﴾ وَالنَّهارِ إِذا تَجَلّىٰ ﴿٢﴾ الليل، فجعل سبحانه تجلي النهار وتغشى الليل

مستقلان فدل على أن الليل والنهار يكونان بإستمرار دوران الأرض حول نفسها وأن الشمس ثابتة بالنسبة للأرض التي تدور عليها، والله أعلم ﷻ.

وقد ظن الناس قديما أن الشمس بل والسماء كلها هي التي تدور حول الأرض أخذا بالمشاهدة فقط ولقلة علمهم بالحساب وعدم الإعتبار بمنازل القمر وفصول السنة ومواضع النجوم الثابتة في السماء وماذا يترتب على هذا القول الخاطئ. فلو كانت الشمس هي التي تدور حول الأرض بنفس زاوية الميل لتعاقبت علينا الفصول الأربعة خلال اليوم والليلة الواحدة وهذا لا يكون. ولو كانت الشمس هي التي تدور حول الأرض لوافقت منازل القمر تعاقب الليل والنهار وكان بذلك الشهر هو نفسه اليوم والليلة وهذا لا يكون. بل إن هذا يلزم أن القمر يتبع الشمس في دورتها اليومية حول الأرض وأن الشمس تدور على القمر مرة في الشهر رغم بعدها فلزم أن تكون الشمس في حركة سريعة وهذا بعكس ما هو مشاهد خلال ظاهرة الكسوف. والعديد من الظواهر الطبيعية الأخرى كظاهرة المد والجزر التي لا تستقيم بالقول بثبات الأرض ودوران الشمس عليها. وهذا الظن سببه أن الإنسان على الأرض لا يشعر بدورانها ولا بكرويتها وهذا أولا لأن حركة الأرض في مدارها مع دورانها حول نفسها في غاية الإنتظام والتناسق، وثانيا لأن حجم الأرض حتى بالنسبة لنظر الإنسان كبير جدا فيصعب عليه إدراك كرويتها فضلا عن إدراك حركتها دون الإبتعاد عنها.

ولا يستقيم أن يقال الأرض مسطحة في شكلها بالكلية وإنما هي مسطحة بالنسبة لمن عليها لكبر حجمها ولكن كروية في شكلها الكلي. فلو كانت مسطحة في شكلها بالكلية لإختلت كل الظواهر الطبيعية الأخرى التي نعرفها. ومن ذلك تعطل منازل القمر وإنعدام ظاهرة الكسوف والخسوف وغيرها من الظواهر الأخرى. فمن قال أن الأرض مسطحة جعل الشمس والقمر على مسافة واحدة من الأرض ولو كان ذلك حقا لما حجب القمر الشمس في ظاهرة الكسوف ولضرب كل منهما الآخر

ولختل هذا النظام كله ولما حجبت الأرض ضوء الشمس عن القمر في ظاهرة الخسوف. ولو كان القمر أبعد من الشمس لما حجب القمرُ الشمسَ ولما رأينا الخسوف على البدر في ظلمة الليل ولتعطلت منازل القمر فما رأينا إلا البدر. وأما من جعل الأرض مسطحة ولكن القمر أقرب من الشمس فقد عطل منازل القمر ولما رأينا البدر أبدا فضلا عن الخسوف في ظلمة الليل.

وقد نقل شيخ الإسلام بن تيمية عن السلف وكذلك اجماع أهل العلم في زمانه على أن كل الأفلاك كروية، راجع 9.1 مسألة كروية الأفلاك لشيخ الإسلام بن تيمية. إلا أن شيخ الإسلام نقل أيضا أن الأرض في وسط السماء وأن السماء كالقبة تدور حول الأرض نظرا لأن جميع الكواكب تدور جميعا من المشرق إلى المغرب على ترتيب واحد وهذا صحيح بالنسبة للمشاهد كالذي يرى أن الشمس تدور عليه بتعاقب الليل والنهار. ولكن في حقيقة الأمر أن الأرض هي التي تدور حول نفسها فتبدو للمشاهد وكأن السماء بكاملها تدور عليه. فلو كانت السماء هي التي تدور حول الأرض لما تغيرت مواضع النجوم الثابتة التي يهتدى بها خلال العام الواحد ولزم بهذا القول أن نجوم الإستدلال ثابتة في اليوم والليلة كما في العام الواحد وهذا غير صحيح. وبهذا لا يلزم أن تكون الأرض في وسط السماء ومحور الكون كله بل هي في جزء صغير جدا منه تدور حول نفسها وتسير في مدارها حول الشمس.

ورغم أن الشيخ ابن باز رحمه الله كان يرى بثبات الأرض بالكلية فقال: "وبين سبحانه وتعالى أنه ثبتها بالجبال وأرساها وجعلها لها أوتادا. فالواجب التمسك بهذا والأخذ بهذا وأنها لا تميد ولا تضطرب ولا تدور. ولو دارت لأحسوا بها العباد من أجل الزلازل. ولو زلازل قليلة عرفها الناس. وربما هلك من حولها إذا عظمت الزلزلة وتهدمت البيوت وسقطت الأشجار وهلك الناس بأقل زلزلة."، إلا أنه قال: "ومن شاهد أشياء وتيقنها يقينا وأن هناك حركة لا تمنع وصف الأرض بأنها غير مائدة وأنها قرار وأنه دوران خاص لا ينافي كونها قرارا ولا ينافي كونها قد أرسيت بالجبال ولا ينافي كونها لا

تميد، من تيقن هذا وعرفه بقلبه وصدقه بعينه فلا لوم عليه إذا اعتقد ذلك [.] فأنا أعتقد، وقد كتبت هذا في كتابا من مدة سنوات، أعتقد أنها قارة كما قال الله وأنها لا تدور ولا تضطرب ولا تتحرك بل هي ثابتة" ↗. كما أن الشيخ ابن باز رحمه الله لم يغلق باب البحث والإجتهاد في هذه المسألة فقال رحمه الله: "ولا يمكن أن نسلم لهم ذلك إلا بدليل من كتاب الله وسنة رسوله عليه الصلاة والسلام أو شئ نلمسه بأيدينا ونراه بأبصارنا ونعقله لا شبهة فيه. فإذا وجد ذلك أمكن تأويل أن تميد بالإضطراب الذي يضر الناس وأن الحركة التي لا تضر الناس من دوران وغيره لا تخالف الميد الذي ذكره الله" ↗. وكل هذا فيه أن العبرة إنما تكون بالحجة والبرهان.

فلا يلزم القول بدوران الأرض حول نفسها بحدوث الإطراب لها فقد جعل الله جل جلاله هذه الحركة في غاية الإنتظام والإتقان وذلك صنع الله الذي أتقن كل شيء. ومن فسر أن الجبال أوتادا يعني ثبات الأرض بالكلية فهذا بلا شك تفسير خاطئ. فلا تقوم بذلك الحجة بل هو حجة على عكس ذلك كما بين ذلك الشيخ الألباني رحمه الله، راجع 9.2 مسألة دوران الأرض حول نفسها وحول الشمس. فقد جعل الله جل جلاله الجبال أوتادا لتثبيت سطح الأرض حتى لا تطرب ولا يلزم بهذا ثبات الأرض وعدم حركتها بالكلية. وقد جاء في تفسير ابن كثير في معنى قوله تعالى: أَلَمْ نَجْعَلِ الأَرْضَ مِهادًا ﴿٦﴾ وَالجِبالَ أَوتادًا ﴿٧﴾النبأ أي: جعلها لها أوتادا أرساها بها وثبتها وقررها حتى سكنت ولم تضطرب بمن عليها [10]. وهذا لا يلزم ثباتها بالكلية بل ثبات سطحها. وقد جاء في معجم اللغة أن معنى أوتاد أي وتد: ما رُزَّ وثبت في الحائط أو الأرض من خشب وغيره: «وتد الخيمة». فدل ذلك على أن المراد هو ثبات سطحها وليس ثباتها بالكلية. كما أن القول بثبات الأرض بالكلية بالجبال ينافي الحجة العقلية، فلا يمكن تثبيت شيئ بالكلية بوتد غرس فيه وللزم بهذا القول أن تغرس الجبال في شئ آخر ثابت غير الأرض مع أرتباطها به لتثبيتها بالكلية وهذا بخلاف الواقع. ولعل

مثال ذلك أن وتد الخيمة تربط به الخيمة ويغرس في الأرض الثابتة ولو غرس في الخيمة نفسها لما ثبتت البتة. ولقد جاء هذا المعنى في حديث أنس بن مالك أن النبي ﷺ قال للأعرابيِّ الَّذي تركَ النَّاقةَ سائبةً متوكل علَى اللهِ: فقالَ لهُ: اعقِلها و توَكَّلْ [9].[15] فلزم بذلك أن تربط الناقة في شئ آخر ثابت كالجدار أو الشجر وهذا معروف. وقد ثبت بالقياس والحساب في علم الجيولوجيا أن سطح الأرض عبارة عن صفائح تكتونية تتحرك بإستمرار وتتصادم مع بعضها البعض مما يسبب العديد من الظواهر الطبيعية الأخرى مثل تكون الجبال وتصاعد الحمم البركانية والزلازل نتيجة لهذه التصادمات والتحركات. وهذا فيه أن الله جل جلاله جعل لهذه الظواهر أسبابها بحكمته وعلمه. وقد ثبت أن الجبال لها جدور عظيمة تمتد في أعماق الأرض وكأنها مسامير تمنع طبقات سطح الأرض من الإنزلاق والتحرك وهذا من فضل الله ورحمته بعباده كما في قوله تعالى: وَأَلقَىٰ فِي الأَرضِ رَواسِيَ أَن تَميدَ بِكُم وَأَنهارًا وَسُبُلًا لَعَلَّكُم تَهتَدونَ ﴿١٥﴾ النحل.

ودوران الأرض حول نفسها مع كرويتها لا يتعارض مع كونها ممهدة ومسطحة بالنسبة لمن يعيش فيها ويمشي عليها. فمن المعروف أن السطح المكور لا يعرف تكويره بالنسبة لمن هو عليه إن كبر حجمه أو صغر جزء القياس والنظر فيه. ولهذا تعرف كروية الأرض بالإستدلال بكروية الشمس والقمر وبالمشاهدة كما هو معروف وثابت بالصور الملتقطة من الفضاء. ولقد وافق الشيخ الألباني رحمه الله الحقيقة العلمية الكونية للنظام الشمسي الحديث، فراجع 9.2 مسألة دوران الأرض حول نفسها وحول الشمس. إلا أن الشيخ الألباني رحمه الله أعاز ظاهرة الفصول الأربعة إلى قرب الأرض وبعدها من الشمس وهذا غير صحيح. فمن المعروف والمؤكد علميا أن زاوية ميلان الأرض بالنسبة لمحور دورانها حول الشمس هي التي تتسبب في ظاهرة الفصول الأربعة بشكل متعاكس في نصف الكرة

[15] الجامع الصغير: 1948، وقال الألباني حديث حسن.

الأرضية الشمالي والجنوبي. في الحقيقة قد تبين أن الأرض تكون أقرب إلى الشمس في فصل الشتاء في نصفها الشمالي من فصل الصيف. ولكن يتعرض كل نصف لأشعة شمس أقل أو أكثر بحسب اتجاه زاوية ميلان الأرض بالنسبة للشمس. ولهذا يتعرض النصف الشمالي للأرض في الشتاء لأشعة شمس أقل من النصف الجنوبي وهذا يسبب في برودة الجو وتساقط الثلوج. والعكس في الصيف حيث تكون الأرض أبعد من الشمس ولكن زاوية ميلانها تتسبب في تعرض النصف الشمالي لأشعة شمس أكبر من النصف الجنوبي وهذا يسبب في حرارة الجو وجفافه. وتتعاكس الفصول في النصف الجنوبي من الكرة الأرضية بالنسبة للنصف الشمالي بحيث يكون الشتاء في النصف الجنوبي عندما يكون الصيف في النصف الشمالي والعكس. وهكذا مع فصلي الربيع والخريف. وكل هذا سببه زاوية ميلان الأرض بالنسبة للشمس وليس قربها أو بعدها منها. وهذا كله فيه دليل ربوبية الله عز وجل وفضله على خلقه.

1.8 بطلان الإستدلال بالمشاهدة فقط

إن الأشياء الظاهرة في العلم الكوني السببي تكون قابلة للقياس والحساب ولهذا يمكن إثباتها بالعلم التجريبي بما تقوم به الحجة العقلية. وهذا أنما يكون في العلم الكوني السببي الظاهر وليس في العلم الغير ظاهر كعلم الغيب الذي لا يدرك إلا بالوحي من عند الله تبارك وتعالى. ولكن الأخذ بالمشاهدة فقط في تقرير وقائع وحقائق هذه الأشياء دون الإعتبار بطرق الإستدلال الأخرى يؤدي إلى الخطأ في وصفها على الوجه الصحيح. فالعديد من الظواهر الكونية السببية القابلة للقياس لا تظهر بوضوح للمشاهد، وقد تظهر بشكل مغاير تماما للواقع، وقد لا تظهر بالكلية. فعدم مشاهدتها لا يلزم عدم

وجودها كما أن مشاهدتها على وجه معين لا يلزم حقيقتها إلا إذا توفرت الحجة في إثبات ذلك مع عدم وجود المانع بطرق الإستدلال الأخرى. وهذا يشمل الحجة العقلية مع القياس والتجربة والحساب. ولهذا لا يمكن الإعتماد على الإستدلال بالمشاهدة فقط في تقرير حقائق الأشياء. بل إن ذلك قد يكون مضللا في بعض الأحيان. ولهذا يجب أن يكون الإستدلال بالمشاهدة معتبرا في تقرير حقائق الأشياء إذا كان مدعوما بالحجة البالغة والدليل القاطع ولا يوجد ما ينافي ذلك من طرق الإستدلال الأخرى.

إن الفرق بين الإستدلال بالمشاهدة فقط والإستدلال لمعرفة حقائق الأشياء كالفرق بين النظر بمعنى مجرد الرؤية والبصر بمعنى الإدراك. فالنظر فيه رؤية الشئ على ظاهره وأما البصر فيه إدراك الشئ على حقيقته. ومن ذلك أن الله عز وجل نفى إدراك الأبصار له على الإطلاق في قوله تعالى: لا تُدرِكُهُ الأَبصارُ وَهُوَ يُدرِكُ الأَبصارَ ۖ وَهُوَ اللَّطيفُ الخَبيرُ ﴿١٠٣﴾الأنعام. مع إثبات النظر له في الجنة كما في قوله تعالى: وُجوهٌ يَومَئِذٍ ناضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلىٰ رَبِّها ناظِرَةٌ ﴿٢٣﴾القيامة. وجاء بيان ذلك في تفسير السعدي رحمه الله: (لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ) لعظمته، وجلاله وكماله، أي: لا تحيط به الأبصار، وإن كانت تراه، وتفرح بالنظر إلى وجهه الكريم، فنفي الإدراك لا ينفي الرؤية، بل يثبتها بالمفهوم. فإنه إذا نفى الإدراك، الذي هو أخص أوصاف الرؤية، دل على أن الرؤية ثابتة. فإنه لو أراد نفي الرؤية، لقال "لا تراه الأبصار" ونحو ذلك [1]. وقد جاء هذا المعنى في قوله تعالى: وَإِن تَدعوهُم إِلَى الهُدىٰ لا يَسمَعوا ۖ وَتَراهُم يَنظُرونَ إِلَيكَ وَهُم لا يُبصِرونَ ﴿١٩٨﴾الأعراف. فقد أثبت الله جل جلاله مجرد النظر لهم على الظاهر ونفى عنهم البصر وهو إدراك الشئ على حقيقيته. وجاء في تفسير السعدي رحمه الله معنى ذلك: فتراهم ينظرون إليك، وهم لا يبصرون حقيقة [.] وقيل: إن الضمير يعود إلى المشركين المكذبين لرسول الله صلى الله عليه وسلم، فتحسبهم ينظرون إليك يا رسول الله نظر

اعتبار يتبين به الصادق من الكاذب، ولكنهم لا يبصرون حقيقتك وما يتوسمه المتوسمون فيك من الجمال والكمال والصدق [1].

ولا يلزم أن تكون ظاهر الأشياء موافق لحقيقتها على الإطلاق. فالعديد من الأشياء قد لا تدرك على حقيقتها بمجرد النظر فقط كما هو معروف مع السراب. ولقد ضرب الله جل جلاله السراب مثلا على أعمال الكفار في قوله تعالى: وَالَّذِينَ كَفَروا أَعمالُهُم كَسَرابٍ بِقيعَةٍ يَحسَبُهُ الظَّمآنُ ماءً حَتّىٰ إِذا جاءَهُ لَم يَجِدهُ شَيئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفّاهُ حِسابَهُ ۗ وَاللَّهُ سَريعُ الحِسابِ ﴿٣٩﴾ النور. وقد جاء في تفسير البغوي: "السراب" الشعاع الذي يرى نصف النهار عند شدة الحر في البراري ، يشبه الماء الجاري على الأرض يظنه من رآه ماء ، فإذا قرب منه انفش فلم ير شيئا. وهذا فيه الحجة العقلية في مخالفة ظاهر الشيء لحقيقته [11]. وهذا فيه أن الإستدلال بالمشاهدة فقط على وجود الماء من بعيد في وضح النهار دون تأكيد ذلك بطرق الإستدلال الأخرى يكون غير صحيح وغير موافق للواقع.

ولهذا فإن الأخذ بالمشاهدة فقط كالنظر لا يلزم بذلك إدراك حقيقة الأشياء كما هو الحال مع البصر. وبهذا يتبين أن البصر أكمل من النظر. كما أن الله جل جلاله وصف نفسه بالبصير وهو الخبير المطلع على كل من في السموات والأرض كما في قوله تعالى: إِنَّ اللَّهَ يَعلَمُ غَيبَ السَّماواتِ وَالأَرضِ ۚ وَاللَّهُ بَصيرٌ بِما تَعمَلونَ ﴿١٨﴾ الحجرات. فالبصر هو النظر مع إدراك الأشياء على حقيقتها مع معرفة مراد الله منها والإعتبار بها. ولهذا تكرر في كتاب الله جل جلاله أن العبرة تكون لأولي الأبصار ولم يأتي لفظ أولي الأنظار ولو لمرة واحدة فدل ذلك على أن العبرة في معرفة الحق وإتباعه والإنتفاع به وليس فقط مجرد النظر في الأشياء دون إدراك حقيقتها والإعتبار بها. ولهذا فإن جميع الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وصفوا بالبصر لإعتبارهم بآيات الله على وجهها الصحيح كما في قوله تعالى عن يعقوب عليه السلام: فَلَمّا أَن جاءَ البَشيرُ أَلقاهُ عَلىٰ وَجهِهِ فَارتَدَّ بَصيرًا ۖ قالَ أَلَم أَقُل لَكُم إِنّي أَعلَمُ مِنَ

اللَّهِ ما لا تَعلَمونَ ﴿٩٦﴾يوسف. ولهذا أثبت الله سبحانه وتعالى ذلك له ولأبويه إبراهيم وإسحاق في قوله تعالى: وَاذكُر عِبادَنا إِبراهيمَ وَإِسحاقَ وَيَعقوبَ أُولِي الأَيدي وَالأَبصارِ ﴿٤٥﴾ص. وقال تعالى في حق من يدعوا الناس لدعوة الحق: قُل هـٰذِهِ سَبيلي أَدعو إِلَى اللَّهِ ۚ عَلىٰ بَصيرَةٍ أَنا وَمَنِ اتَّبَعَني ۖ وَسُبحانَ اللَّهِ وَما أَنا مِنَ المُشرِكينَ ﴿١٠٨﴾يوسف.

وطرق الإستدلال التي يحصل بها الإدراك لحقائق الأشياء هي ثلاثة: السمع والبصر والعقل، وقد جائت مجتمعة في قوله تعالى: قُل هُوَ الَّذي أَنشَأَكُم وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمعَ وَالأَبصارَ وَالأَفـِٔدَةَ ۖ قَليلًا ما تَشكُرونَ ﴿٢٣﴾الملك. ولكن الله جل جلاله جعل هذه الطرق على مراتب وأساس ذلك العقل، فمتى أغلق العقل إنسد طريق الإستدلال بالسمع والبصر والدليل قوله تعالى: أَفَلَم يَسيروا فِي الأَرضِ فَتَكونَ لَهُم قُلوبٌ يَعقِلونَ بِها أَو آذانٌ يَسمَعونَ بِها ۖ فَإِنَّها لا تَعمَى الأَبصارُ وَلـٰكِن تَعمَى القُلوبُ الَّتي فِي الصُّدورِ ﴿٤٦﴾الحج. فدل على أن العمي لا يكون بمجرد إنتفاء النظر ولكن إنتفاء البصيرة والتي محلها القلب. وجاء في تفسير ابن كثير رحمه الله: أي: ليس العمى عمى البصر، وإنما العمى عمى البصيرة، وإن كانت القوة الباصرة سليمة فإنها لا تنفذ إلى العبر، ولا تدري ما الخبر [10]. وجاء في تفسير البغوي: معناه أن العمى الضار هو عمى القلب، فأما عمى البصر فليس بضار في أمر الدين [11].

ولقد ذم الله تبارك وتعالى المشركين والمنافقين في عدم قدرتهم على الإنتفاع بطرق الإستدلال هذه في معرفة الحق وإتباعه رغم تعددها وتنوعها. ولم يذكر سبحانه وتعالى النظر فقط في طرق الإستدلال بل أضاف السمع والعقل مع البصر كما في قوله تعالى: وَمِنهُم مَن يَستَمِعونَ إِلَيكَ ۚ أَفَأَنتَ تُسمِعُ الصُّمَّ وَلَو كانوا لا يَعقِلونَ ﴿٤٢﴾ وَمِنهُم مَن يَنظُرُ إِلَيكَ ۚ أَفَأَنتَ تَهدِي العُميَ وَلَو كانوا لا يُبصِرونَ ﴿٤٣﴾يونس. يقول السعدي في تفسيره لهذه الآيات: وهذا الاستفهام، بمعنى النفي المتقرر، أي: لا تسمع الصم الذين لا يستمعون القول ولو جهرت به، وخصوصًا إذا كان عقلهم معدومًا [.]

وأما سماع الحجة، فقد سمعوا ما تقوم عليهم به حجة الله البالغة، فهذا طريق عظيم من طرق العلم قد انسد عليهم، وهو طريق المسموعات المتعلقة بالخير. ثم ذكر انسداد الطريق الثاني، وهو: طريق النظر فقال: وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْظُرُ إِلَيْكَ فلا يفيده نظره إليك، ولا سبر أحوالك شيئًا، فكما أنك لا تهدي العمي ولو كانوا لا يبصرون، فكذلك لا تهدي هؤلاء. فإذا فسدت عقولهم وأسماعهم وأبصارهم التي هي الطرق الموصلة إلى العلم ومعرفة الحقائق، فأين الطريق الموصل لهم إلى الحق؟ [1]. وهذا فيه بيان طرق الإستدلال الموصل إلى الحق وهذا يشمل السمع والعقل والبصر معا فدل على بطلان الإكتفاء بالنظر فقط دون العقل.

ولهذا فإن الأخذ بالنظر فقط دون الإعتبار بطرق الإستدلال الأخرى وخصوصا مع وجود الموانع لها يؤدي إلى الخطأ في الإستدلال كما هو الحال في القول بدوران الشمس حول الأرض. فكيف لو أن الموانع بالقول بدوران الشمس حول الأرض قد إجتمعت حتى بالنظر. ومن ذلك أنه في ظاهرة الكسوف عندما يحجب القمر الشمس تشاهد أن الشمس ثابتة وأن القمر هو الذي يسير فيحجب الشمس ثم يذهب عنها وليس العكس، فدل على أن الشمس ثابتة بالنسبة للأرض والقمر وأن هذه الحركة لا تكون إلا نتيجة لدوران الأرض حول نفسها مع دوران القمر حولها كما هو معروف بمنازل القمر. فالحجة العقلية قائمة بذلك فكيف إن إجتمع ذلك مع النص الشرعي الذي دل على الحجة العقلية في هذا الأمر على وجه الخصوص كما في قوله تعالى: إِنَّ فِي خَلْقِ السَّماواتِ وَالأَرضِ وَاختِلافِ اللَّيلِ وَالنَّهارِ لَآياتٍ لِأُولِي الأَلبابِ ﴿١٩٠﴾آل عمران. فدل ذلك على وجوب الإعتبار بالحجة العقلية مع النظر لتحقق البصيرة التي بها يمكن إدراك الحقيقة كما في قوله تعالى: يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيلَ وَالنَّهارَ ۚ إِنَّ فِي ذٰلِكَ لَعِبرَةً لِأُولِي الأَبصارِ ﴿٤٤﴾النور. ويقول السعدي رحمه الله في تفسيره: أي: لذوي البصائر، والعقول النافذة للأمور المطلوبة منها، كما تنفذ الأبصار إلى الأمور المشاهدة الحسية. فالبصير ينظر إلى

هذه المخلوقات نظر اعتبار وتفكر وتدبر لما أريد بها ومنها، والمعرض الجاهل نظره إليها نظر غفلة، بمنزلة نظر البهائم [1].

1.9 الحساب بين الإفراط والتفريط

ينسب لشيخ الإسلام بن تيمية قوله عن الخوارزمي: "وإن كان علمه صحيحا إلا إن العلوم الشرعية مستغنية عنه وعن غيره". ولكن هذا القول لم يثبت عن شيخ الإسلام وهو مخالف لما نقله شيخ الإسلام ومن ذلك حرص علماء السنة على تعلم الحساب والإشتغال به للإستفادة من علم الجبر والمقابلة الذي ألفه الخوارزمي رحمه الله. بل إن شيخ الإسلام قال عن علم الحساب أنه علم صحيح لا يدخل فيه غلط وأن فيه حفظا للشرع كما تقدم. فهذا بلا شك من التدليس والتفريط في هذا العلم العظيم الذي ابتلينا به في زماننا. وإنما كان شيخ الإسلام يرد على من غلى في علم الحساب وأراد أن يجعل الشريعة متوقفة عليه من غلاة المنطق الذين يقدمون العقل على النقل وبالأخص في مسألة وجوب الأخذ بالرؤية. وعليه فإن شريعة الإسلام غير متوقفة على الحساب كما أنها غير متوقفة على القراءة والكتابة ولهذا كان الرسول ﷺ وأصحابه الكرام في غالبهم أميين. ولكن شريعة الإسلام جاءت بالحث على تعلم القراءة والكتابة أولا لنشر الحق وبيانه، وتعلم الحساب والأخذ به ثانيا لإقامة الميزان بالقسط في المعاملات بين الناس كما بين الله جل جلاله ذلك في كتابه العظيم. فدل هذا على وجوب الأخذ بعلم الحساب مع القراءة والكتابة على اللاحقين من أمة الإسلام وبالأخص متى أحتاج المسلمين لذلك حتى يبنوا عليه مصالحهم الدينية والدنيوية.

ما انتشرت هذه المفاهيم الخاطئة إلا بالأخذ بالمشاهدة فقط دون الإعتبار والنظر والبحث في

علم الحساب مع القياس والحجة العقلية مما زاد الفراغ بين العلم الكوني والعلم الشرعي حتى شاع بين الناس تعارض الأمرين وهذا يخالف أمر الله. فالله جل جلاله أرشدنا إلى النظر في آياته الكونية ليس فقط لمجرد التفكر فيها ولكن أيضا لتعقلها وفهمها على الوجه الصحيح ولتعلم الحساب منها. فكان هذا التقصير سببا إلى جمود القلب حتى أصبح الناس أقل نظرا لآيات الله تعالى وأقل إعتبارا بها. وهذا فيه تفويت للعديد من المصالح الدينية والدنيوية ومن أهم ذلك أن النظر في آيات الله الكونية والإعتبار بها والتفكر فيها وفي كفيتها وتعلم تفاصيلها على الوجه الصحيح يورث خشيته سبحانه وتعالى ومعرفته ومعرفة دقة خلقه وفيه دليل ربوبيته وأولوهيته وبيان صفاته. وقد ترتب على هذا الخلط والتضارب العديد من المفاسد حتى شاع بين الناس الفصل والخلاف بين العلم الكوني والعلم الشرعي فأصبح الناس في غالبهم بين نقيضين. فريق يأخذ بالعلم الشرعي ويرد العلم الكوني، وفريق يأخذ بالعلم الكوني ويرد العلم الشرعي. ومن أسباب ذلك تكلم أهل العلم الكوني خلافا للعلم الشرعي فأخطئوا كثيرا وضلوا ضلال بعيدا حتى وصلوا بذلك إلى الإلحاد. وتكلم أهل العلم الشرعي في بعض مسائل الدنيا خلافا للعلم الكوني المؤكد والثابت فأخطئوا في بعضها وأصابوا في بعضه الأخر بحسب ما فهموه وعقلوه. فحبذ لو لم يُتَكَلَّمُ في العلم الكوني أخذا بالعلم الشرعي فقط، وحبذ لو لم يُتَكَلَّمُ في العلم الشرعي أخذا بالعلم الكوني فقط، إلا بعد الجمع بينهما والبحث والإجتهاد في ذلك سعيا إلى معرفة الحق وبيانه. فالله جل جلاله الذي شرع هذا الدين وأنزل القرآن العظيم هو من خلق هذا الكون، فلا يكون أن يتعارض الأمر الكوني المؤكد مع الأمر الشرعي الثابت والصحيح إلا بالفهم الخاطئ. ولهذا فقد ألف شيخ الإسلام بن تيمية في ذلك كتاب درء تعارض العقل والنقل [12].

ونتيجة لهذه المفاهيم الخاطئة ذهب الناس في ذلك بين مغال أراد أن يجعل الشريعة متوقفة على الحساب، وبين مجاف أراد أن يجعل الشريعة مستغنية عن الحساب. وهذا كله باطل يخالف أمر

الله الذي حث عليه في كتابه العظيم. فلو كان الشرع يدرك بالعقل والحساب فقط أو مقدما عليه لما أرسل الله جل جلاله الرسل وأنزل الكتب ولكتفى الناس بعقولهم في إدراك وحساب أمر الله جل جلاله وهذا باطل. ولو كانت الشريعة مستغنية عن الحساب والعقل لما أرشدنا الله جل جلاله في آياته الشرعية بالنظر في آياته الكونية للتفكر فيها ولتعلم الحساب منها في أكثر من موضع في كتابه العظيم. ولكان هذا الإتقان في هذه الآيات الكونية لعبا وقد نزه الله عز وجل نفسه عن ذلك كله فقال جل في علاه: وَما خَلَقنَا السَّماواتِ وَالأَرضَ وَما بَينَهُما لاعِبينَ ﴿٣٨﴾ ما خَلَقناهُما إِلّا بِالحَقِّ وَلـٰكِنَّ أَكثَرَهُم لا يَعلَمونَ ﴿٣٩﴾ (الدخان).

فمن أراد أن يجعل الشريعة متوقفة على الحساب والعقل فقط فقد خالف منهج السلف والأخذ بأيسر الأمور التي جاء بها دين الإسلام ومن ذلك غلاة المنطق الذين أرادوا تقديم العقل على النقل فخالفوا صريح الكتاب والسنة كما بين ذلك شيخ الإسلام بن تيمية في مسألة الرؤية. ولقد صح عن النبي ﷺ أنه قال: صومُوا لِرُؤيتِه، وأفْطِرُوا لِرُؤيتِه، وانْسُكُوا لها، فإنْ غُمَّ عليكم فأتِمُّوا ثلاثينَ، فإنْ شَهِدَ شاهِدانِ مُسلِمانِ فصُومُوا وأفْطِرُوا [4].[16] ولهذا فقد قرر أهل السنة والجماعة قديما وحديثا بالأخذ بالرؤية للهلال بدلا من الحساب أولا أخذا بأمر النبي ﷺ وثانيا حتى لا يستأثر بذلك أهل المنطق ممن قل فيهم من أتقن الحساب حقا فضلا عن الفهم الصحيح لدين الإسلام. وإلا فإن الله جل جلاله يقول: الشَّمسُ وَالقَمَرُ بِحُسبانٍ ﴿٥﴾الرحمن، وهذا يمكن حسابه حسابا صحيحا لمن أتقن هذا العلم وصدق في ذلك. فلا يمنع أن يحسب ذلك ولو على وجه التقريب مع الأخذ بالرؤية وإجراء دراسات وبحوث والإجتهاد في ذلك لتطوير طرق حسابية دقيقة موافقة للرؤية وإختبار ذلك ومراجعته مع متابعة أهل العلم الشرعي وأهل الفلك لتقريب وجهات النظر بما يوافق العلم الشرعي

[16] مسند أحمد: 18895، النسائي: 2116، وصححه الألباني في صحيح الجامع.

الصحيح مع العلم الكوني الثابت.

ومن المسائل التي أخطأ فيها بعض أهل العلم الشرعي المعاصرين رغم ثبوت عكس ذلك بالقياس والحساب هي القول بأن الشمس هي التي تدور على الأرض وأن الأرض ثابتة بالكلية وهذا القول خاطئ كما تقدم بيانه. وسبب ذلك هو عدم الإعتبار بما ثبت بالحساب والقياس رغم أن جميع آيات العدد الحساب في القرآن الكريم جائت مقرونة بالليل والنهار والشمس والقمر وفيها الإشارة الواضحة بالإعتبار بالحساب من الله تبارك وتعالى. وهذا فيه مخالفة الصواب وقد يفهم منه عند البعض التزهيد في العلوم الكونية السببية النافعة وكأنها تزييف للواقع وهذا غير صحيح. وقد يكون ذلك سببا في عدم فهم آيات الله الكونية على وجهها الصحيح وأن ذلك قد يؤدي إلى قلة التدبر فيها والإعتبار بها عند أهل الإيمان. وقد يؤدي ذلك أيضا إلى التخلف الحضاري أو تصوير دين الإسلام أنه مخالف للحضارة. وقد يستغل ذلك الملحدين لتضليل الناس عن الدين زعما بأن أهل الإيمان لا يعتبرون بالقياس والعلم المؤكد. وقد يلحد من ثبت له عكس ما أقره أهل الإيمان فهما بأن الإيمان يتعارض مع الواقع، إلى غير ذلك من المصائب. والصواب في هذا أن الأرض تسبح أي تدور حول نفسها وتسير في فلكها حول الشمس مع دورانها وبهذا فالشمس بالنسبة للأرض ثابتة كما أنها ثابتة بالنسبة لسائر الكواكب الأخرى في المجموعة الشمسية بسبب ظاهرة الجاذبية وجميعهم يتحركون معا حول المجرة كما هو معروف. ويحفظ للمخطئ في ذلك من أهل السنة والجماعة فضله ويعرف حقه علينا ولا ينقص ذلك من قدرهم شيئا فقد قدموا لأمة الإسلام الكثير من الخير ما يصغر أمامه هذه الأخطاء التي لا تخالف أساس الدين. ولكن لما كثر إستغلال هذا الأمر من الملحدين وأعداء الدين وضعاف الإيمان وجب البحث في هذا الأمر لبيان الحق في ذلك والتنبيه وعليه. ولقد تعلمنا من علماء السنة قديما وحديثا الرجوع إلى الحق في كل شيء متى إستبان ذلك فرحم الله علماء السنة في كل زمان ومكان.

ويستفاد من هذا الأمر أن البشر بطبيعتهم يخطئون ويصيبون والله وحده فوق كل ذي علم عليم. قال ابن عباس: الله العليم، وهو فوق كل عالم. وقال أيضا: يكون هذا أعلم من هذا، وهذا أعلم من هذا، والله فوق كل عالم. وقال الحسن البصري: ليس عالم إلا فوقه عالم، حتى ينتهي إلى الله عز وجل [10]. ويفهم أيضا أن البشر لا يزالون يتقدمون في الحضارة بحسب ما فتح الله عليهم من المعرفة في الأمور الكونية. ودين الإسلام العظيم هو دين الحضارة فحق على أهله أن يكونوا في مقدمة الحضارة في كل العلوم الكونية السببية النافعة بما يرضي الله كما كان الحال في زمن هارون الرشيد رحمه الله. ومن المعلوم أنه يصعب على أهل العلم الشرعي معرفة العلوم الكونية أو التكلم فيها أخذا بظاهر الأدلة الشرعية فقط وبالأخص في الأمور التي تتطلب الخبرة والمعرفة والبحث في المجالات المختلفة كالفلك، والطب، والهندسة، والحساب، وغيرها من علوم الدنيا. كيف لا والنبي ﷺ قد قال بعدما نهى الناس عن تلقيح النخل: أَنْتُمْ أَعْلَمُ بِأَمْرِ دُنْيَاكُمْ (صحيح مسلم). وقال أيضا ﷺ: إِنْ كَانَ يَنْفَعُهُمْ ذلكَ فَلْيَصْنَعُوهُ، فإِنِّي إِنَّما ظَنَنْتُ ظَنًّا، فلا تُؤَاخِذُونِي بالظَّنِّ، وَلَكِنْ إِذَا حَدَّثْتُكُمْ عَنِ اللهِ شيئًا، فَخُذُوا به، فإِنِّي لَنْ أَكْذِبَ عَلَى اللهِ عَزَّ وَجَلَّ (صحيح مسلم). حتى قال لهم ﷺ: إِنَّما أَنَا بَشَرٌ، إِذَا أَمَرْتُكُمْ بشَيءٍ مِن دِينِكُمْ، فَخُذُوا به، وإِذَا أَمَرْتُكُمْ بشَيءٍ مِن رَأْيِي، فإِنَّما أَنَا بَشَرٌ (صحيح مسلم). فجعل كلامه ﷺ في أمور الدنيا ظن ورأي، وقال: (لا تُؤَاخِذُونِي به) ولكن كلامه في أمر الله حق. وبين النبي ﷺ أنه بشر يخطئ ويصيب في أمور الدنيا كغيره من البشر ولهذا قال: (إِنَّما أَنَا بَشَرٌ، إِذَا أَمَرْتُكُمْ بشَيءٍ مِن دِينِكُمْ، فَخُذُوا به، وإِذَا أَمَرْتُكُمْ بشَيءٍ مِن رَأْيِي، فإِنَّما أَنَا بَشَرٌ). وهذا من تواضعه وصدقه ﷺ فهو الصادق الأمين الذي لا يكذب على الله ولا على الناس عليه الصلاة والسلام.

وأما الطريق القويم في دين الله عز وجل هو الأخذ بعلم الحساب والبحث فيه وتعلمه من آيات الله الكونية كما أرشدنا ربنا سبحانه وتعالى في كتابه العظيم. وهذا فيه تنشيط للعقل وقوة الحجة في

إثبات صنع الخالق ورد شبه الملحدين. وفيه تفريح للنفس وزيادة في الإيمان حتى يعرف الإنسان أن الله عز وجل لم يخلق هذا الكون عبثا بل إن الله عز وجل قد خلق هذا الكون وأتقنه وفصَّله لغاية عظيمة فكل ذلك فيه دليل ربوبيته وألوهيته سبحانه وتعالى وفيه أيضا بيان صفاته وشأنه في خلقه وحكمته فسبحان الله أسرع الحاسبين. وكل هذا رحمة بنا حتى نخشاه فنتبع أمره رجاء لمغفرته وخوفا من عقابه. فالله جل جلاله كلفنا بالحق والميزان الشرعي معا فكلاهما من الميثاق والأمانة التي بها يقوم الدين وتصلح الدنيا وهذه هي دعوة الأنبياء والرسل عليهم السلام.

الميزان الكوني والميزان الشرعي

2.1 المقدمة

علم الحساب من العلوم التي تدرك بالعقل والفطرة وقد يكون هو العلم الوحيد الذي يكاد لا يختلف عليه البشر بكافة أجناسهم وألوانهم وبالأخص لمن عرف هذا العلم وتمعن فيه صدقا. وذلك لأن الله جل جلاله خلق كل شيء بقدر معلوم ووضع الميزان الكوني فجعل هذا الكون موزونا ومتناسقا سبحانه. ومن فضله ومنه علي الناس أنه أرسل إليهم الرسل وأنزل الكتب بالحق والميزان الشرعي. ومن حكمته أنه سبحانه فطر الناس على فهم الميزانان وجعل لهم كل ما يحتاجونه من إدراك وعقل. فجعل سبحانه آياته الكونية دليلا على الميزان الكوني وآياته الشرعية دليلا على الميزان الشرعي. وأرشد جل جلاله إلى التأمل في آياته الكونية لتعلم العدد والحساب وهذا لحكمته فالعدد والحساب يدرك بالعقل والفطرة ولهذا اكتفى سبحانه بالدلالة عليه. أما الميزان الشرعي فهو لا يدرك بالعقل والفطرة فقط وأنما يدرك بالوحي المنزل من عند الله تبارك وتعالى. والله جل جلاله تكفل بإقامة الميزان الكوني وأرسل الرسل وأنزل الكتب وفرض على الناس إقامة الميزان الشرعي. ولما كان الحساب هو

الوسيلة لمعرفة الحقائق وضبطها والطريق لمعرفة الأسباب وربطها، وجب النظر والبحث فيه وتعلمه من آيات الله الكونية لفهمها لما في ذلك من مصالح دينية ودنيوية كما أرشد سبحانه في كتابه العظيم. ومن أهم هذه المصالح هي إقامة الميزان بالقسط لتحقيق العدل بين الناس.

2.2 الميزان الكوني

جعل الله جل جلاله الميزان في آياته الكونية لحكمته وعدله سبحانه ومن ذلك أنه جعل قيام الكون كله بالقسط أي بالعدل الظاهر [13].[1] فالميزان الكوني أمره عظيم لأن الله جل جلاله شهد به لنفسه ووصف نفسه به وفيه شأن الله وتدبيره لهذا الكون، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: "يَدُ اللَّهِ مَلْأَى لَا يَغِيضُهَا نَفَقَةٌ، سَحَّاءُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ"، وَقَالَ: "أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْفَقَ مُنْذُ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ، فَإِنَّهُ لَمْ يَغِضْ مَا فِي يَدِهِ"، وَقَالَ: "عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ، وَبِيَدِهِ الْأُخْرَى الْمِيزَانُ يَخْفِضُ وَيَرْفَعُ" [14].[2] وهذا فيه أن الميزان الكوني بيده سبحانه فهو قائم عليه بالقسط لا تأخذه في ذلك سنة ولا نوم، ولهذا كانت آية الكرسي أعظم آية في كتاب الله فقد قال سبحانه: اللَّهُ لا إِلهَ إِلّا هُوَ الحَيُّ القَيّومُ لا تَأخُذُهُ سِنَةٌ وَلا نَومٌ (البقرة) فعَن أبي مُوسَى قَالَ: قَامَ فِينَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِخَمْسِ كَلِمَاتٍ فَقَالَ: "إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ لَا يَنَامُ وَلَا يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَنَامَ. يَخْفِضُ الْقِسْطَ وَيَرْفَعُهُ. يُرْفَعُ إِلَيْهِ عَمَلُ اللَّيْلِ قَبْلَ عَمَلِ النَّهَارِ. وَعَمَلُ النَّهَارِ قَبْلَ عَمَلِ اللَّيْلِ" [3].[3] وهذا فيه أن الله قائم على الميزان الكوني بنفسه بالعدل الظاهر ولذلك وصفه الله جل جلاله ورسوله ﷺ بالقسط.

[1] جاء في معجم الفروق اللغوية لأبي هلال العسكري أن القسط هو العدل البين الظاهر ومنه سمي المكيال قسطا والميزان قسطا لأنه يصور لك العدل في الوزن حتى تراه ظاهرا وقد يكون من العدل ما يخفى.

[2] صحيح البخاري: 7406.

[3] صحيح مسلم: 179، وصححه الألباني.

ومن أعظم ذلك أن الله جعل قيامه على الميزان الكوني بالقسط في أعظم شهادة في كتابه الكريم فقال جل في علاه: شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلهَ إِلّا هُوَ وَالمَلائِكَةُ وَأُولُو العِلمِ قائِمًا بِالقِسطِ ۚ لا إِلهَ إِلّا هُوَ العَزيزُ الحَكيمُ ﴿١٨﴾آل عمران. وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: (قائما بالقسط) أي: متكلما بالعدل مخبرا به آمرا به: كان هذا تحقيقا لكون الشهادة شهادة عدل وقسط وهي أعدل من كل شهادة كما أن الشرك أظلم من كل ظلم وهذه الشهادة أعظم الشهادات [.] وقيامه بالقسط يتضمن أنه يقول الصدق ويعمل بالعدل كما قال: (وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا) وقال هود: (إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) فأخبر أن الله على صراط مستقيم وهو العدل الذي لا عوج فيه [.] وقال: (هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) وهو مثل ضربه الله لنفسه ولما يشرك به من الأوثان كما ذكر ذلك في قوله: (قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ) الآية. وقال: (أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ) الآيات [.] ولهذا أمرنا الله سبحانه أن نسأله أن يهدينا الصراط المستقيم; صراط الذين أنعم عليهم: من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وصراطهم هو العدل والميزان; ليقوم الناس بالقسط والصراط المستقيم هو العمل بطاعته وترك معاصيه فالمعاصي كلها ظلم مناقض للعدل مخالف للقيام بالقسط والعدل. والله سبحانه أعلم [8].[4]

وجاء في تفسير القرطبي عن الكلبي وأورده أيضا شيخ الإسلام ابن تيمية في سبب نزول هذه الآية أنه لما ظهر رسول الله ﷺ بالمدينة قدم عليه حبران من أحبار أهل الشام; فلما أبصرا المدينة، قال أحدهما لصاحبه: ما أشبه هذه المدينة بصفة مدينة النبي الذي يخرج في آخر الزمان. فلما دخلا على النبي ﷺ عرفاه بالصفة والنعت، فقالا له: أنت محمد؟ قال: نعم. قالا: وأنت أحمد؟ قال: نعم. قالا: نسألك عن شهادة، فإن أنت أخبرتنا بها آمنا بك وصدقناك. فقال لهما رسول الله ﷺ: سلاني.

[4] مجموع الفتاوى 14/176.

فقالا: أخبرنا عن أعظم شهادة في كتاب الله. فأنزل الله تعالى على نبيه ﷺ: شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلٰهَ إِلّا هُوَ وَالمَلائِكَةُ وَأُولُو العِلمِ قائِمًا بِالقِسطِ ۚ لا إِلٰهَ إِلّا هُوَ العَزيزُ الحَكيمُ ﴿١٨﴾آل عمران، فأسلم الرجلان وصدقا برسول الله ﷺ [15].

وبهذا يتبين أن أعظم شهادة في كتاب الله جائت في صفة الله جل جلاله أنه سبحانه قائم بالقسط وأن الميزان الكوني بيد الله وهو قائم عليه بعدله الظاهر يخفضه ويرفعه وهو الحي القيوم ولا ينام ولا ينبغي له أن ينام وهذا لازم لوجود الكون وصلاحه فهو مدبره سبحانه وهو مالكه. وفيه أيضا أن الله عز وجل كامل في صفاته لا يلحقه نقص وهذا لازم لإقامة الوجود إذ يتعذر على غيره إقامة الميزان الكوني كما دلت على ذلك الآيات القرآنية والأحاديث. وقد جاء في تفسير ابن كثير أن قوله: (لا تأخذه سنة ولا نوم) أي: لا يعتريه نقص ولا غفلة ولا ذهول عن خلقه بل هو قائم على كل نفس بما كسبت شهيد على كل شيء لا يغيب عنه شيء ولا يخفى عليه خافية، ومن تمام القيومية أنه لا يعتريه سنة ولا نوم، فقوله: (لا تأخذه) أي: لا تغلبه سنة وهي الوسن والنعاس ولهذا قال: (ولا نوم) لأنه أقوى من السنة، [.] وقوله: (ولا يئوده حفظهما) أي: لا يثقله ولا يكرثه حفظ السماوات والأرض ومن فيهما ومن بينهما، بل ذلك سهل عليه يسير لديه وهو القائم على كل نفس بما كسبت، الرقيب على جميع الأشياء، فلا يعزب عنه شيء ولا يغيب عنه شيء والأشياء كلها حقيرة بين يديه متواضعة ذليلة صغيرة بالنسبة إليه، محتاجة فقيرة وهو الغني الحميد الفعال لما يريد، الذي لا يسأل عما يفعل وهم يسألون. وهو القاهر لكل شيء الحسيب على كل شيء الرقيب العلي العظيم لا إله غيره ولا رب سواه [هـ].

وكل هذا فيه أن الله جل جلاله قد جعل العدل الظاهر في الميزان الكوني سببا لإستقامة السموات والأرض وصلاحهما كما في قوله تعالى: وَلَوِ اتَّبَعَ الحَقُّ أَهواءَهُم لَفَسَدَتِ السَّماواتُ وَالأَرضُ وَمَن

فيهِنَّ ۚ بَل أَتَيناهُم بِذِكرِهِم فَهُم عَن ذِكرِهِم مُعرِضونَ ﴿٧١﴾ المؤمنون. يقول السعدي في تفسيره: ووجه ذلك أن أهواءهم متعلقة بالظلم والكفر والفساد من الأخلاق والأعمال، فلو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السماوات والأرض، لفساد التصرف والتدبير المبني على الظلم وعدم العدل، فالسماوات والأرض ما استقامتا إلا بالحق والعدل [1]. وبهذا يعلم أن السموات والأرض تفسد بالظلم وهذا لا يكون لأن الله أقامهما بالقسط وهو العدل الظاهر بالميزان الكوني. ولا يعلم صورة هذا الميزان ولا وصفه إلا بما وصفه الله جل جلاله ورسوله ﷺ به، ومن ذلك أن الله وضعه في يده ويخفض به أقواما ويرفع آخرين وهو قائم عليه بنفسه كما قال الرسول ﷺ: ما منْ قلبٍ إلا وهوَ معلقٌ بينَ إصبعينَ منْ أصابعِ الرحمنِ، إنْ شاءَ أقامَهُ، و إنْ شاءَ أزاغَهُ، والميزانُ بيدَ الرحمنَ، يرفعُ أقوامًا، ويخفضُ آخرينَ، إلى يومِ القيامةِ [9].[5]

وهذا فيه أن هذا الميزان هو الميزان الكوني تابع لإرادة الله الكونية وأن الله قائم عليه بنفسه بالقسط إلى قيام الساعة وهو غير الميزان الشرعي التابع لإرادة الله الشرعية الذي يوضع يوم القيامة لحساب المكلفين كما سيأتي. وبيان ذلك أيضا أن هذه الهداية المذكورة في الحديث هي الهداية الكونية التابعة لمشيئة الله تعالى وليست الهداية الشرعية التابعة لمعرفة ما يحبه الله ويرضاه. فالميزان الكوني فيه شأن الله وتدبيره لهذا الكون الذي قال فيه جل في علاه: يَسأَلُهُ مَن فِي السَّماواتِ وَالأَرضِ ۚ كُلَّ يَومٍ هُوَ فِي شَأنٍ ﴿٢٩﴾ الرحمن. وبهذا يكون المراد بالميزان الذي وضعه الله بعد رفع السماء هو الميزان الكوني الذي فيه شأن الله وتدبيره للكون كما قال تعالى: وَالسَّماءَ رَفَعَها وَوَضَعَ الميزانَ ﴿٧﴾ الرحمن. والمراد بالميزان الذي أمر الله به هو الميزان الشرعي الذي فيه شأن العباد وتدبيرهم لأنفسهم بما كلفهم الله به كما قال تعالى: أَلّا تَطغَوا فِي الميزانِ ﴿٨﴾ وَأَقيمُوا الوَزنَ بِالقِسطِ وَلا

[5] الجامع الصغير وزيادته: 10685، وصححه الألباني في صحيح الجامع.

تُخسِرُوا الميزانَ ﴿٩﴾الرحمن. والله أعلى وأعلم.

ولهذا فإن الميزان الكوني قد تكفل به سبحانه عدلا وتدبيرا لا يشاركه في ذلك أحد وهذا دليل على وحدانيته وعظمته وقدرته إذ يتعذر على غيره العيش من دونه فضلا عن إقامته، ومن ذلك أن الله عدل في قضاءه ومشيئته وحليم في تدبيره والدليل على هذا قوله تعالى: إِنَّ اللَّهَ يُمسِكُ السَّماواتِ وَالأَرضَ أَن تَزولا ۚ وَلَئِن زالَتا إِن أَمسَكَهُما مِن أَحَدٍ مِن بَعدِهِ ۚ إِنَّهُ كانَ حَليمًا غَفورًا ﴿٤١﴾فاطر. وقوله تعالى: أَلَم تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم ما فِي الأَرضِ وَالفُلكَ تَجري فِي البَحرِ بِأَمرِهِ وَيُمسِكُ السَّماءَ أَن تَقَعَ عَلَى الأَرضِ إِلّا بِإِذنِهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ بِالنّاسِ لَرَءوفٌ رَحيمٌ ﴿٦٥﴾الحج. فهذا دليل على وحدانيته سبحانه بالملك والتدبير وإستحقاقه للعبادة وحده لا شريك له. فالأدلة العقلية والشرعية دلت على وحدانيته سبحانه.

ومن أعظم موجبات وحدانيته بالعبادة وكمال صفاته أنه سبحانه جعل هذا الكون موزونا ومتناسقا بإرادته الكونية لا يشاركه في ذلك أحد كما في قوله تعالى: لَو كانَ فيهِما آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتا ۚ فَسُبحانَ اللَّهِ رَبِّ العَرشِ عَمّا يَصِفونَ ﴿٢٢﴾الأنبياء. وقد جاء في تفسير السعدي في شرح هذه الآيات أن العالم العلوي والسفلي، على ما يرى، في أكمل ما يكون من الصلاح والانتظام، الذي ما فيه خلل ولا عيب، ولا ممانعة، ولا معارضة، فدل ذلك، على أن مدبره واحد، وربه واحد، وإلهه واحد، فلو كان له مدبران وربان أو أكثر من ذلك، لاختل نظامه، وتقوضت أركانه فإنهما يتمانعان ويتعارضان، وإذا أراد أحدهما تدبير شيء، وأراد الآخر عدمه، فإنه محال وجود مرادهما معا، ووجود مراد أحدهما دون الآخر، يدل على عجز الآخر، وعدم اقتداره واتفاقهما على مراد واحد في جميع الأمور، غير ممكن، فإذًا يتعين أن القاهر الذي يوجد مراده وحده، من غير ممانع ولا مدافع، هو الله الواحد القهار، ولهذا ذكر الله دليل التمانع في قوله: مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَما كانَ مَعَهُ مِن إِلٰهٍ ۚ إِذًا لَذَهَبَ كُلُّ إِلٰهٍ بِما خَلَقَ

وَلَعَلا بَعضُهُم عَلىٰ بَعضٍ ۚ سُبحانَ اللَّهِ عَمّا يَصِفونَ ﴿٩١﴾ المؤمنون [1].

وبهذا يعلم بالضرورة أن هذا الميزان الكوني كان موجودا عندما رفع الله السموات حيث وضعه جل جلاله في يده ليقوم بنفسه على السموات والأرض بالقسط كما تقدم. ومن المعلوم أيضا أن الميزان الكوني تابع للمقادير الكونية التي كتبها جل جلاله في اللوح المحفوظ. وعليه فالظاهر أن الله خلق الميزان الكوني بعد كتابة المقادير في اللوح المحفوظ، وعند خلق السموات والأرض، وأن الله وضعه في يده بعد رفع السماء، والله أعلى وأعلم. ولقد أجمع السلف رحمهم الله على أن أول ما خلق الله الماء، ثم العرش على الماء، ثم القلم واللوح المحفوظ، ثم بعد ذلك خلق الله السموات والأرض، راجع 9.3 مسألة أول ما خلق الله. ولقد ثبت في الصحيح أن الله كتب المقادير في اللوح المحفوظ قبل خلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة وكان عرشه جل جلاله على الماء، فعن النبي ﷺ أنه قال: كَتَبَ اللَّهُ مَقَادِيرَ الخَلَائِقِ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِخَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ، وَعَرْشُهُ عَلَى المَاءِ [3].[6] وسماها الله جل جلاله المقادير لأنه قدرها وعرف قدرها بعلمه وحكمته وعدله ورحمته سبحانه حتى يقوم بنفسه على ذلك في الميزان الكوني الذي وضعه سبحانه في يده بعد رفع السماء كما في قوله تعالى: وَالسَّماءَ رَفَعَها وَوَضَعَ المِيزانَ ﴿٧﴾ الرحمن. فيكون المعنى هنا الميزان الذي وضعه الله في يده بعد رفع السموات وهو الميزان الكوني ويحتمل أيضا الميزان الذي وضعه للمكلفين من خلقه من الإنس والجن وهو الميزان الشرعي كما في باقي الآيات الكريمة في قوله تعالى: أَلّا تَطغَوا فِي المِيزانِ ﴿٨﴾ وَأَقيمُوا الوَزنَ بِالقِسطِ وَلا تُخسِرُوا المِيزانَ ﴿٩﴾ الرحمن.

وقد بين رسولنا الكريم ﷺ أن الله جل جلاله ينفق منذ خلق السموات والأرض وعرشه على الماء وبيده الأخرى الميزان وهذا هو الميزان الكوني كما تقدم من حديث أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ

[6] صحيح مسلم: 2653، وصححه الألباني في شرح الطحاوية.

قَالَ: "أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْفَقَ مُنْذُ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ، فَإِنَّهُ لَمْ يَغِضْ مَا فِي يَدِهِ"، وَقَالَ: "عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ، وَبِيَدِهِ الْأُخْرَى الْمِيزَانُ يَخْفِضُ وَيَرْفَعُ" [14].[7] فدل ذلك على أن الله جل جلاله خلق الميزان الكوني منذ خلق السموات والأرض ووضعه بيده بعد رفع السماء لتدبير هذا الكون بالخفض والرفع كما شاء جل جلاله، ومن ذلك أن الله تعالى له خزائن الخير كالرحمة والرزق وغير ذلك من الأمور العظيمة التي لا يصلح الكون إلا بها والتي أحصاها جل جلاله وجعل لها خزائنها ومن ذلك خزائن الشر كالضلال والعذاب، فكل هذه الأمور لا ينزلها الله تعالى إلا بقدر معلوم كما قال في كتابه: وَالأَرضَ مَدَدناها وَأَلقَينا فيها رَواسِيَ وَأَنبَتنا فيها مِن كُلِّ شَيءٍ مَوزونٍ ﴿١٩﴾ وَجَعَلنا لَكُم فيها مَعايِشَ وَمَن لَستُم لَهُ بِرازِقينَ ﴿٢٠﴾ وَإِن مِن شَيءٍ إِلّا عِندَنا خَزائِنُهُ وَما نُنَزِّلُهُ إِلّا بِقَدَرٍ مَعلومٍ ﴿٢١﴾الحجر. وهذا فيه أن الله عز وجل له خزائن كل شيء، ولا ينزل شيء إلى الأرض إلا بقدر معلوم، وأن ما من شيء نبت في الأرض إلا وقد وزنه الله وعلم قدره وهو قائم على ذلك بنفسه بالميزان الكوني الذي يضعه في يده بالقسط ليكون عدله ظاهر لنفسه في شأنه الكوني وظاهر لعباده في ثبات الكون وتناسقه. وكل هذا فيه صلاح هذا الكون وثباته وبركته، ولولا قيام الله على الكون وتدبيره له، لما استقام أمر هذا الكون ولما صلح للعيش فيه.

ولهذا فقد أحصى جل جلاله كل شيء عددا كما قال: وَأَحصىٰ كُلَّ شَيءٍ عَدَدًا ﴿٢٨﴾الجن. ولقد سبق علم الله جل جلاله بهذه المقادير والأعداد التي كتبها في اللوح المحفوظ قبل خلق السموات والأرض كما قال جل جلاله: وَكُلَّ شَيءٍ أَحصَيناهُ كِتابًا ﴿٢٩﴾النبأ. وجاء في تفسير السعدي: (وَكُلُّ شَيْءٍ) من قليل وكثير، وخير وشر (أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا) أي: كتبناه في اللوح المحفوظ [1]. فدل ذلك على عظمة الله جل جلاله وكمال علمه وقدرته وحكمته، فهذا ما يقتضيه وصفه العزيز الذي لا

[7]صحيح البخاري: 7406.

يعجره شيء، العليم الذي يعلم كل شيء، الحكيم الذي يضع كل شيء في موضعه الصحيح، الرحيم الذي وسع كل شيء رحمة. وقد تفرد سبحانه بكل ذلك كما قال تعالى في حق الخير والشر: وَإِن يَمسَسكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلا كاشِفَ لَهُ إِلّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدكَ بِخَيرٍ فَلا رادَّ لِفَضلِهِ ۚ يُصيبُ بِهِ مَن يَشاءُ مِن عِبادِهِ ۚ وَهُوَ الغَفورُ الرَّحيمُ ﴿١٠٧﴾ يونس.

ولله الحكمة البالغة منه سبحانه في تدبير خزائن الخير والشر في الدنيا وقد بين ذلك في قوله تعالى: كُلُّ نَفسٍ ذائِقَةُ المَوتِ ۗ وَنَبلوكُم بِالشَّرِّ وَالخَيرِ فِتنَةً ۖ وَإِلَينا تُرجَعونَ ﴿٣٥﴾ الأنبياء. وجاء في تفسير السعدي: (كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ) وهذا يشمل سائر نفوس الخلائق، وإن هذا كأس لا بد من شربه وإن طال بالعبد المدى، وعمّر سنين، ولكن الله تعالى أوجد عباده في الدنيا، وأمرهم، ونهاهم، وابتلاهم بالخير والشر، بالغنى والفقر، والعز والذل والحياة والموت، فتنة منه تعالى ليبلوهم أيهم أحسن عملا ومن يفتتن عند مواقع الفتن ومن ينجو، (وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ) فنجازيكم بأعمالكم، إن خيرا فخير، وإن شرا فشر (وَمَا رَبُّكَ بِظَلَامٍ لِلْعَبِيدِ) [1]. ولهذا فقد صح عن النبي ﷺ أن لله خزائن الخير والشر فقال: عِنْدَ الله خَزَائِنُ الخَيْرِ وَالشَّرِّ مَفَاتِيحُهَا الرِّجَالُ فَطُوبَى لِمَنْ جَعَلَهُ الله مِفْتَاحاً لِلْخَيْرِ مَغْلَاقاً لِلشَّرِّ وَوَيْلٌ لِمَنْ جَعَلَهُ الله مِفْتَاحاً لِلشَّرِّ مغلاقا للخير [9].[8] وقد أخبر النبي ﷺ أن خزائن الخير والشر تفتح وينزل منها الفتن فعن أُمّ سَلَمَةَ قَالَتِ: اسْتَيْقَظَ النَّبِيُّ ﷺ ذَاتَ لَيْلَةٍ فَقَالَ: "سُبْحَانَ اللَّهِ، مَاذَا أُنْزِلَ اللَّيْلَةَ مِنَ الْفِتَنِ، وَمَاذَا فُتِحَ مِنَ الْخَزَائِنِ، أَيْقِظُوا صَوَاحِبَاتِ الْحُجَرِ، فَرُبَّ كَاسِيَةٍ فِي الدُّنْيَا عَارِيَةٍ فِي الْآخِرَةِ" [14].[9] وكل هذا فيه أن الخزائن تفتح وينزل منها الخير والشر لإبتلاء العباد وما من شيء ينزل إلا بقدر موزون وشأن معلوم منه سبحانه وتعالى.

[8] الجامع الصغير: 7557، وحسنه الشيخ الألباني .

[9] صحيح البخاري: 118.

ولقد أخبر جل جلاله عن خزائنه وجعل بذلك الحجة البالغة على وحدانيته بالملك والتدبير فقال تعالى: أَم عِندَهُم خَزائِنُ رَبِّكَ أَم هُمُ المُصَيطِرونَ ﴿٣٧﴾الطور. وأثبت سبحانه أنه خالق كل شيء وأن له خزائن السموات والأرض ومفاتيحها وتدبيرها فقال تعالى: اللَّهُ خالِقُ كُلِّ شَيءٍ ۖ وَهُوَ عَلىٰ كُلِّ شَيءٍ وَكيلٌ ﴿٦٢﴾ لَهُ مَقاليدُ السَّماواتِ وَالأَرضِ ۗ وَالَّذينَ كَفَروا بِآياتِ اللَّهِ أُولـٰئِكَ هُمُ الخاسِرونَ ﴿٦٣﴾الزمر. وذم سبحانه جهل المنافقين بهذا الأمر العظيم فقال تعالى: وَلِلَّهِ خَزائِنُ السَّماواتِ وَالأَرضِ وَلـٰكِنَّ المُنافِقينَ لا يَفقَهونَ ﴿٧﴾المنافقون. وفي هذا الدليل على أن خزائن السموات والأرض هي خزائن الله جل جلاله ولا يملك مفاتيحها وتدبيرها إلا الله تعالى الذي يدبرها كيف يشاء بالعلم الكامل والعدل الظاهر في الميزان الكوني. ولهذا فقد أمر جل جلاله نبيه محمد ﷺ لبيان ذلك فقال تعالى: قُل لا أَقولُ لَكُم عِندي خَزائِنُ اللَّهِ وَلا أَعلَمُ الغَيبَ وَلا أَقولُ لَكُم إِنّي مَلَكٌ ۖ إِن أَتَّبِعُ إِلّا ما يوحىٰ إِلَيَّ ۚ قُل هَل يَستَوِي الأَعمىٰ وَالبَصيرُ ۚ أَفَلا تَتَفَكَّرونَ ﴿٥٠﴾الأنعام. ولكن الله جل جلاله اختص نبيه محمد ﷺ بالقرآن فبعثه بجوامع الكلم وأراه مفاتيح خزائن الأرض في منامه كما صح عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: بُعِثْتُ بِجَوَامِعِ الْكَلِمِ، وَنُصِرْتُ بِالرُّعْبِ، وَبَيْنَا أَنَا نَائِمٌ أُتِيتُ بِمَفَاتِيحِ خَزَائِنِ الْأَرْضِ، فَوُضِعَتْ فِي يَدِي [14].[10]

وأختص سبحانه ذكر خزائن الرحمة دون غيرها من خزائن الخير الأخرى فقال في ذلك سبحانه: أَم عِندَهُم خَزائِنُ رَحمَةِ رَبِّكَ العَزيزِ الوَهّابِ ﴿٩﴾ص. وفي تدبيره لخزائن الرحمة قال تعالى: قُل لَو أَنتُم تَملِكونَ خَزائِنَ رَحمَةِ رَبّي إِذًا لَأَمسَكتُم خَشيَةَ الإِنفاقِ ۚ وَكانَ الإِنسانُ قَتورًا ﴿١٠٠﴾الإسراء. فدل هذا على واسع رحمة الله وفضله ولهذا فقد أمر جل جلاله عباده بعدم القنوط من رحمة الله كما قال تعالى: قُل يا عِبادِيَ الَّذينَ أَسرَفوا عَلىٰ أَنفُسِهِم لا تَقنَطوا مِن رَحمَةِ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ يَغفِرُ الذُّنوبَ

[10] صحيح البخاري: 7018.

جَميعًا ۚ إِنَّهُ هُوَ الغَفورُ الرَّحيمُ ﴿٥٣﴾الزمر. ومن أعظم رحمة الله تعالى النبوة والكتاب فهي جميعا من خزائن الرحمة كما قال تعالى: رَحمَةً مِن رَبِّكَ ۚ إِنَّهُ هُوَ السَّميعُ العَليمُ ﴿٦﴾الدخان. وقال السعدي رحمه الله: (رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ) أي: إن إرسال الرسل وإنزال الكتب التي أفضلها القرآن رحمة من رب العباد بالعباد، فما رحم الله عباده برحمة أجل من هدايتهم بالكتب والرسل، وكل خير ينالونه في الدنيا والآخرة فإنه من أجل ذلك وسببه، (إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ) أي: يسمع جميع الأصوات ويعلم جميع الأمور الظاهرة والباطنة وقد علم تعالى ضرورة العباد إلى رسله وكتبه فرحمهم بذلك ومن عليهم فله تعالى الحمد والمنة والإحسان [1]. ولهذا قال تعالى في حق الأنبياء والمؤمنين: يَختَصُّ بِرَحمَتِهِ مَن يَشاءُ ۗ وَاللَّهُ ذُو الفَضلِ العَظيمِ ﴿٧٤﴾آل عمران. وفي حق نبينا الكريم : وَما أَرسَلناكَ إِلّا رَحمَةً لِلعالَمينَ ﴿١٠٧﴾الأنبياء. وقال تعالى ردا على من ينكر رسالة النبي محمد ﷺ: أَهُم يَقسِمونَ رَحمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحنُ قَسَمنا بَينَهُم مَعيشَتَهُم فِي الحَياةِ الدُّنيا ۚ وَرَفَعنا بَعضَهُم فَوقَ بَعضٍ دَرَجاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعضُهُم بَعضًا سُخرِيًّا ۗ وَرَحمَتُ رَبِّكَ خَيرٌ مِمّا يَجمَعونَ ﴿٣٢﴾الزخرف. والكتاب أيضا من رحمة الله كما قال تعالى: تِلكَ آياتُ الكِتابِ الحَكيمِ ﴿٢﴾ هُدًى وَرَحمَةً لِلمُحسِنينَ ﴿٣﴾لقمان. ولقد أمر جل جلاله عباده المؤمنين بالفرح بهذه الرحمة فقال تعالى: يا أَيُّهَا النّاسُ قَد جاءَتكُم مَوعِظَةٌ مِن رَبِّكُم وَشِفاءٌ لِما فِي الصُّدورِ وَهُدًى وَرَحمَةٌ لِلمُؤمِنينَ ﴿٥٧﴾ قُل بِفَضلِ اللَّهِ وَبِرَحمَتِهِ فَبِذٰلِكَ فَليَفرَحوا هُوَ خَيرٌ مِمّا يَجمَعونَ ﴿٥٨﴾يونس. فدل على أن هذه الرحمة هي أفضل من غيرها على الإطلاق.

وهذا فيه أن أمر الله الشرعي وبيانه تابع لرحمة الله الكونية وهذا يشمل كل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال التي جاء الأنبياء عليهم السلام بها وما يترتب على ذلك من الحكم الجزائي وحساب الأعمال. ولهذا فقد صح عن النبي ﷺ أن الله جل جلاله يرفع الأعمال إليه وهذا داخل في تدبيره جل جلاله لهذا الكون كما تقدم. ولهذا كان الأنبياء عليهم السلام مبشرين لمن آمن بالله

وعمل صالحا ومنذرين لمن كفر بالله وعمل سوءا. وجعل سبحانه رسله حجة على المكلفين جميعهم كما قال تعالى: رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلّا يَكونَ لِلنّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعدَ الرُّسُلِ ۚ وَكانَ اللَّهُ عَزيزًا حَكيمًا ﴿١٦٥﴾النساء. وجعل سبحانه الجنة جزاءا للمطيعين كما قال تعالى: وَسارِعوا إِلىٰ مَغفِرَةٍ مِن رَبِّكُم وَجَنَّةٍ عَرضُهَا السَّماواتُ وَالأَرضُ أُعِدَّت لِلمُتَّقينَ ﴿١٣٣﴾آل عمران. وجعل النار جزاءا للعاصين كما قال تعالى: وَاتَّقُوا النّارَ الَّتي أُعِدَّت لِلكافِرينَ ﴿١٣١﴾آل عمران.

ومن خزائن الله جل جلاله الجنة والنار. فالجنة من خزائن الخير والرحمة والنار من خزائن الشر والعذاب وكلاهما من الخزائن التابعة لحكم الله الجزائي. فهذه الخزائن لها أبواب وخزنة يفتحونها وينفذون حكم الله الجزائي فيها كما وصف الله تعالى ذلك في قوله: وَسيقَ الَّذينَ كَفَروا إِلىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا ۖ حَتّىٰ إِذا جاءوها فُتِحَت أَبوابُها وَقالَ لَهُم خَزَنَتُها أَلَم يَأتِكُم رُسُلٌ مِنكُم يَتلونَ عَلَيكُم آياتِ رَبِّكُم وَيُنذِرونَكُم لِقاءَ يَومِكُم هـٰذا ۚ قالوا بَلىٰ وَلـٰكِن حَقَّت كَلِمَةُ العَذابِ عَلَى الكافِرينَ ﴿٧١﴾ قيلَ ادخُلوا أَبوابَ جَهَنَّمَ خالِدينَ فيها ۖ فَبِئسَ مَثوَى المُتَكَبِّرينَ ﴿٧٢﴾ وَسيقَ الَّذينَ اتَّقَوا رَبَّهُم إِلَى الجَنَّةِ زُمَرًا ۖ حَتّىٰ إِذا جاءوها وَفُتِحَت أَبوابُها وَقالَ لَهُم خَزَنَتُها سَلامٌ عَلَيكُم طِبتُم فَادخُلوها خالِدينَ ﴿٧٣﴾ وَقالُوا الحَمدُ لِلَّهِ الَّذي صَدَقَنا وَعدَهُ وَأَورَثَنَا الأَرضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الجَنَّةِ حَيثُ نَشاءُ ۖ فَنِعمَ أَجرُ العامِلينَ ﴿٧٤﴾الزمر. ولقد ميز سبحانه الخير في الجنة عن الخير في الدنيا فجعل خير الدنيا محدود وينفد وخير الجنة لا ينفد كما قال تعالى: ما عِندَكُم يَنفَدُ ۖ وَما عِندَ اللَّهِ باقٍ ۗ وَلَنَجزِيَنَّ الَّذينَ صَبَروا أَجرَهُم بِأَحسَنِ ما كانوا يَعمَلونَ ﴿٩٦﴾النحل. وكذلك الشر في النار والشر في الدنيا فشر الدنيا أيضا محدود ويخفف ولكن شر الأخرة لا يخفف كما قال تعالى: خالِدينَ فيها ۖ لا يُخَفَّفُ عَنهُمُ العَذابُ وَلا هُم يُنظَرونَ ﴿١٦٢﴾البقرة. وهذا الحكم الجزائي يكون بالميزان الشرعي الذي فرضه الله على المكلفين من الإنس والجن.

2.3 الميزان الشرعي

ومن حكمته سبحانه وتعالى أنه تكفل بإقامة الميزان الكوني وفرض على المكلفين من الجن والإنس إقامة الميزان الشرعي كما في قوله: وَالسَّماءَ رَفَعَها وَوَضَعَ الميزانَ ﴿٧﴾ أَلّا تَطغَوا فِي الميزانِ ﴿٨﴾ وَأَقيمُوا الوَزنَ بِالقِسطِ وَلا تُخسِرُوا الميزانَ ﴿٩﴾الرحمن. وقد جاء في تفسير السعدي أن معنى ووضع الله الميزان أي: العدل بين العباد، في الأقوال والأفعال، وليس المراد به الميزان المعروف وحده، بل هو كما ذكرنا، يدخل فيه الميزان المعروف، والمكيال الذي تكال به الأشياء والمقادير، والمساحات التي تضبط بها المجهولات، والحقائق التي يفصل بها بين المخلوقات، ويقام بها العدل بينهم [1]. وهذا بالتأكيد يشمل علم الحساب والذي به تضبط المقادير وتحسب المجهولات فهو أيضا صورة من صور الميزان كما تقدم. وكل هذا فيه أن الله عز وجل فرض على المكلفين من الإنس والجن إقامة الميزان الشرعي. وفيه أيضا أن الله عز وجل جعل العدل في آياته الشرعية كما في آياته الكونية وهذا دليل على حكمته وكمال عدله سبحانه.

وبهذا يتبين أن المقصود والمراد من إقامة الميزان بالمجمل هي إقامة الميزان الشرعي الذي كلفنا الله جل جلاله به، وهو العدل في جميع الأقوال والأفعال، وهو الإستقامة على دين الله جل جلاله، وهذا يشمل جميع العبادات التي يحبها الله ويرضاها والتي أمر الله عباده بها عن طريق الرسل والكتب ومن ذلك إقامة الميزان والكيل بالقسط والصدق في القول والعمل ومنه بلا شك الحساب الصحيح. وبهذا يتبين أن الميزان الشرعي، حاله كحال الحق، هو من الأمانة في قوله تعالى: إِنّا عَرَضنَا الأَمانَةَ عَلَى السَّماواتِ وَالأَرضِ وَالجِبالِ فَأَبَينَ أَن يَحمِلنَها وَأَشفَقنَ مِنها وَحَمَلَهَا الإِنسانُ ۖ إِنَّهُ كانَ ظَلومًا جَهولًا ﴿٧٢﴾الأحزاب. وفي تفسير ابن كثير: قال العوفي عن ابن عباس يعني بالأمانة الطاعة [.] وقال قتادة

الأمانة الدين والفرائض والحدود [هـ]. وكل هذه الأمور التي ذكرها الصحابة رضوان الله عليهم في الأمانة مرجعها إلى الحق والميزان وهذا هو الذي أرسلت به الرسل وأنزلت به الكتب والتي بها يقوم الدين وتصلح الدنيا. ولهذا قال سبحانه وتعالى في نهاية الآية أن الأمانة حملها الإنسان إنه كان ظلوما جهولا. فالظلم مخالف للعدل وهو الميزان. والجهل مخالف للعلم وهو الحق. وأعظم الحق توحيد الله بالعبادة، وأعظم الميزان هي إقامة العدل بالقسط بين الناس وهذه هي دعوة الأنبياء والرسل عليهم السلام.

والميزان الشرعي هو أيضا من الميثاق الذي ذكره الله في قوله: وَاذْكُروا نِعمَةَ اللَّهِ عَلَيكُم وَميثاقَهُ الَّذي واثَقَكُم بِهِ إِذ قُلتُم سَمِعنا وَأَطَعنا ۖ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَليمٌ بِذاتِ الصُّدورِ ﴿٧﴾ المائدة. يقول السعدي في تفسيره رحمه الله: و (مِيثَاقَهُ) أي: واذكروا ميثاقه (الَّذِي وَاثَقَكُمْ بِهِ) أي: عهده الذي أخذه عليكم. وليس المراد بذلك أنهم لفظوا ونطقوا بالعهد والميثاق، وإنما المراد بذلك أنهم بإيمانهم بالله ورسوله قد التزموا طاعتهما، ولهذا قال: (إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا) أي: سمعنا ما دعوتنا به من آياتك القرآنية والكونية، سمع فهم وإذعان وانقياد. وأطعنا ما أمرتنا به بالامتثال، وما نهيتنا عنه بالاجتناب. وهذا شامل لجميع شرائع الدين الظاهرة والباطنة. وأن المؤمنين يذكرون في ذلك عهد الله وميثاقه عليهم، وتكون منهم على بال، ويحرصون على أداء ما أُمِرُوا به كاملا غير ناقص. (وَاتَّقُوا اللَّهَ) في جميع أحوالكم (إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ) أي: بما تنطوي عليه من الأفكار والأسرار والخواطر. فاحذروا أن يطلع من قلوبكم على أمر لا يرضاه، أو يصدر منكم ما يكرهه، واعمروا قلوبكم بمعرفته ومحبته والنصح لعباده. فإنكم -إن كنتم كذلك- غفر لكم السيئات، وضاعف لكم الحسنات، لعلمه بصلاح قلوبكم [1].

ولهذا فإن الميزان الشرعي يعتبر من الأمانة والميثاق الذي واثق الله به المؤمنين وأمرهم به ليجزى

كل نفس بما كسبت. وبهذا يتبين أن الميزان الذي يوضع يوم القيامة لحساب المكلفين إنما هو الميزان الشرعي في صورته الحسية. وهذا من عدل الله إذ جعل الميزان الذي يوزن به الناس يوم القيامة هو الميزان الشرعي الذي كلفهم به. وقد صح عن الرسول ﷺ أن هذا الميزان يوضع في صورة ميزان حقيقي محسوس بعد الصراط وقبل الحوض فعن أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قال سألتُ النَّبيَّ صلَّى اللَّهُ عليْهِ وسلَّمَ أن يشفعَ لي يومَ القيامةِ فقالَ: أنا فاعِلٌ، قلتُ: يا رسولَ اللَّهِ فأينَ أطلبُكَ، قالَ: اطلُبني أوَّلَ ما تطلُبُني على الصِّراطِ. قلتُ: فإن لم ألقَكَ على الصِّراطِ، قالَ: فاطلُبني عندَ الميزانِ. قلتُ: فإن لم ألقَكَ عندَ الميزانِ، قالَ: فاطلُبني عندَ الحوضِ فإنِّي لا أخطئُ هذِهِ الثَّلاثَ المواطنَ (صحيح الترمذي وصححه الألباني). وهذا فيه أن الميزان الشرعي يوضع في صورته الحسية بعد الصراط مباشرة وقبل الحوض. وقد صح عن أحد أصحاب النبي ﷺ أنه رأى هذا الميزان الشرعي في منامه كما جاء عن النبي ﷺ أنه ذات يوم قال لأصحابه: من رأَى منكُم رؤْيا؟ فقال رجلٌ: أنا، رأيتُ كأنَّ ميزانًا نزلَ من السَّماءِ فَوُزِنْتَ أنتَ وأبو بكرٍ فَرَجِحْتَ أنتَ بأبِي بكرٍ، ووُزِنَ عُمَرُ وأبو بكرٍ فَرُجِحَ أبو بكرٍ، ووُزِنَ عُمَرُ وعُثْمانُ فَرُجِحَ عُمَرُ، ثُمَّ رُفِعَ الميزانُ. فَرَأَيْنا الكراهيةَ في وجهِ رسولِ اللهِ ﷺ (صحيح أبي داود، وصححه الألباني). وهذا فيه بيان الميزان الشرعي الذي رجح بحسب ما فضل الله به النبي ﷺ وأصحابه الكرام رضوان الله عليهم.

بل إن أبوبكر، وعمر، وعثمان، جميعهم رجحوا بكل أمة الإسلام في الميزان الشرعي كما رأى ذلك النبي ﷺ في منامه ورؤية الأنبياء حق. فقد جاء عن عبد الله بن عمر أنه قال: خرج إلينا رسولُ اللهِ ذاتَ يومٍ فقال: رأيتُ كأني أُعْطيتُ المَقاليدَ والموازينَ، فأما المقاليدُ فهى المفاتيحُ، فَوُضِعَت في كِفَّةٍ وَ وُضِعَتْ أُمتي في كِفَّةٍ فَرَجَحْتُ لهم، ثم جيء بأبي بكرٍ فَرَجَحَ بهم، ثم جيء بعمرَ فَرَجَحَ بهم، ثم جيء بعثمانَ فَرَجَحَ، ثم رُفِعَتْ. فقال له رجلٌ: فأين نحن؟ قال أنتم حيث جَعلتم أنفسكم" [7].[11]

[11]أحمد: 5469، ابن أبي شيبة: 32623، الطبراني: 13695 (13/66) بإختلاف يسير، قال عنه أحمد شاكر في تخريج

ومن باب أولى أن يرجح النبي ﷺ بأمته في الميزان الشرعي وهذا لأن النبي ﷺ رجح على خير أصحابه أبوبكر الذي رجح على وعمر وعثمان رضي الله عنهم وجميعهم رجحوا على أمة الإسلام. فدل ذلك على الترتيب في الفضل وأن النبي ﷺ أفضل من أمته ثم يليه في ذلك أبوبكر ثم عمر ثم عثمان رضي الله عنهم أجمعين. وكما قال ذلك الملكان في حق النبي ﷺ عندما حاولوا وزنه بأمته بالميزان الشرعي: "دعه عنك فلو وزنته بأمته لوزنهم" [7].[12] وهذا لأن النبي ﷺ جاء بالهدى وكان أصحابه رضوان الله عليهم أئمة الهدى في أمته من بعده فكان لهم الأجر العظيم كما قال ذلك النبي ﷺ: "من دعا إلى هدى، كان له من الأجر مثل أجور من تبعه، لا ينقص ذلك من أجورهم شيئا. ومن دعا إلى ضلالة، كان عليه من الإثم مثل آثام من تبعه، لا ينقص ذلك من آثامهم شيئا" [14].[13] وكل هذا فيه أن النبي ﷺ وأصحابه الكرام لا يزالون يزدادون في الأجر في كل الأعمال الصالحة التي دلوا أمة الإسلام عليها إلى يومنا هذا وإلى أن يرفع الله العلم الشرعي بقبض العلماء قبل قيام الساعة.

والأدلة في وصف الميزان الشرعي ووصف حال المكلفين وأعمالهم وهم يوزنون عليه يوم القيامة كثيرة ومنها قوله تعالى: وَالوَزنُ يَومَئِذٍ الحَقُّ ۚ فَمَن ثَقُلَت مَوازينُهُ فَأُولـٰئِكَ هُمُ المُفلِحونَ ﴿٨﴾ وَمَن خَفَّت مَوازينُهُ فَأُولـٰئِكَ الَّذينَ خَسِروا أَنفُسَهُم بِما كانوا بِآياتِنا يَظلِمونَ ﴿٩﴾الأعراف. وقال تعالى: وَنَضَعُ المَوازينَ القِسطَ لِيَومِ القِيامَةِ فَلا تُظلَمُ نَفسٌ شَيـًٔا ۖ وَإِن كانَ مِثقالَ حَبَّةٍ مِن خَردَلٍ أَتَينا بِها ۗ وَكَفىٰ بِنا حاسِبينَ ﴿٤٧﴾الأنبياء. وقال تعالى: فَمَن ثَقُلَت مَوازينُهُ فَأُولـٰئِكَ هُمُ المُفلِحونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَن خَفَّت مَوازينُهُ فَأُولـٰئِكَ الَّذينَ خَسِروا أَنفُسَهُم في جَهَنَّمَ خالِدونَ ﴿١٠٣﴾المؤمنون. وقال تعالى:

المسند لشاكر إسناده صحيح بلفظ مسند الإمام أحمد، وقال الإمام الألباني في تخريج كتاب السنة صحيح بهذا اللفظ وضعيف بلفظ مسند الإمام أحمد.

[12] ابن كثير في البداية والنهاية، السلسلة الصحيحة: 1545.

[13] صحيح مسلم: 2674.

فَأَمّا مَن ثَقُلَت مَوازينُهُ ﴿٦﴾ فَهُوَ في عيشَةٍ راضِيَةٍ ﴿٧﴾ وَأَمّا مَن خَفَّت مَوازينُهُ ﴿٨﴾ فَأُمُّهُ هاوِيَةٌ ﴿٩﴾القارعة. ومن سوء حال الكافرين بآيات الله ولقائه أنهم يوم الحساب تحبط أعمالهم فلا يتعدون الصراط فيلقون في جهنم قبل أن يدركوا الميزان الشرعي ولهذا فقد قال جل جلاله في حق من لا يؤمن بالآخرة: وَإِنَّ الَّذينَ لا يُؤمِنونَ بِالآخِرَةِ عَنِ الصِّراطِ لَناكِبونَ ﴿٧٤﴾المؤمنون. ومن ذلك أيضا قوله تعالى: أُولئِكَ الَّذينَ كَفَروا بِآياتِ رَبِّهِم وَلِقائِهِ فَحَبِطَت أَعمالُهُم فَلا نُقيمُ لَهُم يَومَ القِيامَةِ وَزنًا ﴿١٠٥﴾الكهف. فقد صح عن النبي ﷺ أنه قال: إنَّه لَيَأْتي الرَّجُلُ العَظِيمُ السَّمِينُ يَومَ القِيامَةِ، لا يَزِنُ عِنْدَ اللَّهِ جَناحَ بَعُوضَةٍ، وقالَ: اقْرَؤُوا فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا [الكهف: 105]. فكل ذلك فيه وصف حال وأحوال الناس وأعمالهم قبل وعند وبعد الميزان الشرعي الذي كلف الله جل جلاله المكلفين به من الجن والإنس.

ولهذا فإن هذا الميزان الشرعي موافق لما شرعه الله تعالى وقد وصف النبي ﷺ وزن الأعمال الصالحة في هذا الميزان الشرعي ومن ذلك قوله: ما مِن شيءٍ يوضَعُ في الميزانِ أثقلُ من حُسنِ الخلقِ، وإنَّ صاحبَ حُسنِ الخلقِ ليبلُغُ بِهِ درجةَ صاحبِ الصَّومِ والصَّلاةِ (صحيح الترمذي، وصححه الألباني). وفي رواية أخرى عن أبو الدرداء أن النبي ﷺ قال: من أُعطِيَ حظَّه من الرِّفقِ فقد أُعطِيَ حظَّه من الخيرِ ومن حُرِمَ حظُّه من الرِّفقِ ؛ فقد حُرِمَ حظُّه من الخيرِ. أثقلُ شيءٍ في ميزانِ المؤمنِ يومَ القيامةِ حُسنُ الخُلُقِ، وإنَّ اللهَ لَيبغضُ الفاحشَ البذِيءَ (صحيح الأدب المفرد، وصححه الألباني). وقال ﷺ أيضا: كَلِمَتانِ خَفِيفَتانِ علَى اللِّسانِ، ثَقِيلَتانِ في المِيزانِ، حَبِيبَتانِ إلى الرَّحْمَنِ، سُبْحانَ اللَّهِ وبِحَمْدِهِ، سُبْحانَ اللَّهِ العَظِيمِ (صحيح البخاري، وصححه الألباني). وقال أيضا: الطُّهُورُ شَطْرُ الإيمانِ، والْحَمْدُ لِلَّهِ تَمْلأُ المِيزانَ، وسُبْحانَ اللهِ والْحَمْدُ لِلَّهِ تَمْلَآنِ ما بيْنَ السَّمَواتِ والأرْضِ(صحيح مسلم). وقد جاء أيضا أن النبي ﷺ قال: بَخٍ بَخٍ - وأشار بيدِه بخَمْسٍ - ما أثقَلَهنَّ في الميزانِ سُبحانَ اللهِ والحمدُ للهِ ولا إلهَ إلَّا اللهُ واللهُ أكبرُ والولَدُ الصَّالحُ

يُتوفَّى للمرءِ المُسلِمِ فيحتَسِبُه (صحيح ابن حبان، والسلسلة الصحيحة للألباني). وقد جاء أيضا أن النبيُّ ﷺ أمرَ عبدَ اللهِ بنَ مسعودٍ أن يصعدَ شجرةً فيأتِيَهُ منها بشيءٍ، فنظرَ أصحابُه إلى ساقِ عبدِ اللهِ فضحِكوا من حُمُوشَةِ ساقَيهِ، فقال رسولُ اللهِ ﷺ: ممَّا تضحكون!، لَرِجْلُ عبدِ اللهِ أثقلُ في الميزانِ من أُحُدٍ (السلسلة الصحيحة للألباني). وقال أيضا ﷺ: لو أنَّ عِلْمَ عمرَ بنِ الخطابِ رضيَ اللهُ عنهُ وُضِعَ في كفَّةِ الميزانِ، ووُضِعَ عِلْمُ أهلِ الأرضِ في كفَّةٍ، لرجح عِلْمُ عمرَ بنِ الخطابِ رضيَ اللهُ عنهُ (صححه الألباني). والمراد هنا علم عمر الشرعي وهذا فيه فضل عمر رضي الله عنه فقد بشره بذلك النبي ﷺ فقال: بَيْنا أنا نائمٌ أُتِيتُ بقَدَحِ لَبَنٍ، فَشَرِبْتُ منه، ثُمَّ أَعْطَيْتُ فَضْلِي عُمَرَ بنَ الخَطَّابِ قالوا: فَما أَوَّلْتَهُ يا رَسولَ اللَّهِ؟ قالَ: العِلْمَ (صحيح البخاري). أي العلم الشرعي ورؤيا الأنبياء حق. فكل ذلك فيه أن المراد في كل هذه الأحاديث هو الميزان الشرعي والذي يوافق أمر الله الشرعي لما يحبه الله ويرضاه من الأعمال والأقوال وهو بخلاف الميزان الكوني الذي جعله الله بيده لتدبير الكون كما تقدم.

ومن رحمة الله جل جلاله ومنه على المكلفين أنه جعل الأعمال الصالحة في الميزان الشرعي تتضاعف وأقل ذلك عشرة أضعاف كما في قوله تعالى: مَن جاءَ بِالحَسَنَةِ فَلَهُ عَشرُ أَمثالِها ۖ وَمَن جاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلا يُجزىٰ إِلّا مِثلَها وَهُم لا يُظلَمونَ ﴿١٦٠﴾الأنعام. ويزيد سبحانه وتعالى في فضله على عباده كيف يشاء فيضاعف الحسنات أضعافا كثيرة كما في قوله: مَن ذَا الَّذي يُقرِضُ اللَّهَ قَرضًا حَسَنًا فَيُضاعِفَهُ لَهُ أَضعافًا كَثيرَةً ۚ وَاللَّهُ يَقبِضُ وَيَبسُطُ وَإِلَيهِ تُرجَعونَ ﴿٢٤٥﴾البقرة. وعن عبد الله بن عباس عَنْ رَسولِ اللهِ ﷺ فِيما يَرْوِي عن رَبِّهِ تَبارَكَ وتَعالَى قالَ: إنَّ اللَّهَ كَتَبَ الحَسَناتِ والسَّيِّئاتِ، ثُمَّ بَيَّنَ ذلكَ، فَمَن هَمَّ بحَسَنَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْها، كَتَبَها اللَّهُ عِنْدَهُ حَسَنَةً كامِلَةً، وإنْ هَمَّ بها فَعَمِلَها، كَتَبَها اللَّهُ عزَّ وجلَّ عِنْدَهُ عَشْرَ حَسَناتٍ إلى سَبْعِ مِئَةِ ضِعْفٍ إلى أضْعافٍ كَثِيرَةٍ، وإنْ هَمَّ بسَيِّئَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْها، كَتَبَها اللَّهُ عِنْدَهُ حَسَنَةً كامِلَةً، وإنْ هَمَّ بها فَعَمِلَها، كَتَبَها اللَّهُ سَيِّئَةً واحِدَةً. وفي رواية: وزادَ: ومَحاها

اللَّهُ ولا يَهْلِكُ علَى اللهِ إلَّا هالِكٌ (صحيح مسلم). ولكن الله جل جلاله وضع شرط لهذا الفضل العظيم وهو أن يلقى العبد ربه وهو لا يشرك به شيئا ولهذا فقد جاء عن أبو ذر الغفاري أن النبي ﷺ قال: يقولُ اللهُ تعالَى: مَنْ عمِلَ حسنةً، فلهُ عشرُ أمثالِها. وأَزيدُ، ومَنْ عمِلَ سيِّئةً فجزاؤُها مِثلُها، أوْ أغفِرُ، ومَنْ عمِلَ قُرابَ الأرضِ خطيئةً، ثمَّ لَقِيَنِي لا يُشرِكُ بي شيئًا جعلتُ لهُ مِثلَها مَغفِرةً، ومَنِ اقترَبَ إلَيَّ شِبرًا، اقْتربتُ إليه ذِراعًا، ومَنِ اقترَبَ إليَّ ذِراعًا، اقتربتُ إليه باعًا، ومَنْ أتانِي يمشِي، أتيتُهُ هرْولَةً (صحيح الجامع، وصححه الألباني).

ومن واسع فضل الله جل جلاله أنه جعل الحسنات في الميزان الشرعي تذهب مثلها في العدد من السيئات فعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: أنَّ رَجُلًا أصابَ مِنَ امْرَأَةٍ قُبْلَةً، فأتَى النبيَّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، فأخْبَرَهُ فأنْزَلَ اللَّهُ عزَّ وجلَّ: وَأَقِمِ الصَّلاةَ طَرَفَيِ النَّهارِ وَزُلَفًا مِنَ اللَّيلِ ۚ إِنَّ الحَسَناتِ يُذهِبنَ السَّيِّئَاتِ ۚ ذَٰلِكَ ذِكرىٰ لِلذّاكِرينَ ﴿١١٤﴾ هود فقالَ الرَّجُلُ: يا رَسولَ اللَّهِ ألِي هذا؟ قالَ: لِجَمِيعِ أُمَّتِي كُلِّهِمْ (صحيح البخاري). ولقد بين النبي ﷺ حساب العشرة الأضعاف من الحسنات خلال اليوم والليلة في الذكر وأنها تذهب مثلها من السيئات فقال: خَصْلتانِ لا يُحافِظُ عليهِما عبدٌ مُسلمٌ إلا دخل الجنةَ، ألا وهُما يَسِيرٌ، ومَن يعملْ بِهِما قَليلٌ، يُسَبِّحُ اللهَ في دُبُرِ كُلِّ صلاةٍ عَشْرًا (10)، ويَحمدُه عشْرًا (10)، ويُكبِّرُه عشْرًا (10)، فذلِكَ خَمسُونَ ومِائَةٌ باللِسانِ (150 = 30 × 5 أي في الصلوات الخمس)، وألفٌ وخَمسُمِائةٌ في المِيزانِ (1500 = 150 × 10 أي عشرة أضعافها). ويُكبِّرُ أربعًا وثلاثِينَ إذا أخَذَ مَضْجَعَهُ (34)، ويَحمدُه ثلاثًا وثلاثِين (33)، ويُسَبِّحُ ثلاثًا وثلاثِينَ (33)، فتِلكَ مائةٌ باللِسانِ (100 = 34 + 33 + 33)، وألْفٌ في المِيزانِ (1000 = 100 × 10 أي عشرة أضعافها)، فأيُّكُمْ يَعْملُ في اليومِ والليلةِ ألْفينِ وخَمسَمائةِ سَيِّئَةٍ (2500 = 1500 + 1000 أي عدد الحسنات الكلي) (صحيح الجامع، وصححه الألباني).

ومن كمال وواسع فضل الله جل جلاله أنه سبحانه يبدل السيئات إلى حسنات لكل من تاب وءامن وعمل صالحا كما في قوله تعالى: إِلّا مَن تابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صالِحًا فَأُولئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئاتِهِم حَسَناتٍ ۗ وَكانَ اللَّهُ غَفورًا رَحيمًا ﴿٧٠﴾الفرقان. ويقول السعدي رحمه الله في تفسيره: (إِلا مَنْ تَابَ) عن هذه المعاصي وغيرها بأن أقلع عنها في الحال وندم على ما مضى له من فعلها وعزم عزما جازما أن لا يعود، (وَآمَنَ) بالله إيمانا صحيحا يقتضي ترك المعاصي وفعل الطاعات (وَعَمِلَ عَمَلا صَالِحًا) مما أمر به الشارع إذا قصد به وجه الله. (فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ) أي: تتبدل أفعالهم وأقوالهم التي كانت مستعدة لعمل السيئات تتبدل حسنات، فيتبدل شركهم إيمانا ومعصيتهم طاعة وتتبدل نفس السيئات التي عملوها ثم أحدثوا عن كل ذنب منها توبة وإنابة وطاعة تبدل حسنات كما هو ظاهر الآية. وورد في ذلك حديث الرجل الذي حاسبه الله ببعض ذنوبه فعددها عليه ثم أبدل مكان كل سيئة حسنة فقال: "يا رب إن لي سيئات لا أراها هاهنا" والله أعلم. (وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا) لمن تاب يغفر الذنوب العظيمة (رَحِيمًا) بعباده حيث دعاهم إلى التوبة بعد مبارزته بالعظائم ثم وفقهم لها ثم قبلها منهم [1].

وكل هذا فيه أن الله تبارك وتعالى يبارك في الأعمال الصالحة على الميزان الشرعي وينميها كما في قوله تعالى: مَثَلُ الَّذينَ يُنفِقونَ أَموالَهُم في سَبيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَت سَبعَ سَنابِلَ في كُلِّ سُنبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ ۗ وَاللَّهُ يُضاعِفُ لِمَن يَشاءُ ۗ وَاللَّهُ واسِعٌ عَليمٌ ﴿٢٦١﴾البقرة. ولهذا فقد وصف الله جل جلاله من جاء بالأعمال الصالحة التي ترضي الله بالفائزين فقال: وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسولَهُ وَيَخشَ اللَّهَ وَيَتَّقهِ فَأُولئِكَ هُمُ الفائِزونَ ﴿٥٢﴾النور. وقد ميز سبحانه بذلك أصحاب الجنة عن أصحاب النار فقال جل جلاله: لا يَستَوي أَصحابُ النّارِ وَأَصحابُ الجَنَّةِ ۚ أَصحابُ الجَنَّةِ هُمُ الفائِزونَ ﴿٢٠﴾الحشر. وأما أصحاب النار فهم الخاسرون بعدل الله وذلك لأنه لم يكن لهم من الأعمال الصالحة ما فيه نجاتهم بما يرضي

الله جل جلاله كما قال تعالى: الَّذينَ يَنقُضونَ عَهدَ اللَّهِ مِن بَعدِ ميثاقِهِ وَيَقطَعونَ ما أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يوصَلَ وَيُفسِدونَ فِي الأَرضِ ۚ أُولـٰئِكَ هُمُ الخاسِرونَ ﴿٢٧﴾ البقرة. ومن أعظم موجبات الخسران هو الكفر بالله وآياته والشرك به فهذا هو الخسران المبيين كما قال تعالى: فَاعبُدوا ما شِئتُم مِن دونِهِ ۗ قُل إِنَّ الخاسِرينَ الَّذينَ خَسِروا أَنفُسَهُم وَأَهليهِم يَومَ القِيامَةِ ۗ أَلا ذٰلِكَ هُوَ الخُسرانُ المُبينُ ﴿١٥﴾ الزمر. وبذلك فإن الخاسرين يوم القيامة يخسرون الإنتفاع بفضل الله العظيم ما فيه نجاتهم من النار، من مضاعفة الأعمال الصالحة وذهاب السيئات بالحسنات للمحسنين وتبديل السئات بالحسنات للتائبين فيكونون بذلك من أصحاب السعير والعياذ بالله ولهذا فقد قال النبي ﷺ: ولا يَهْلِكُ عَلَى اللهِ إِلَّا هالِكٌ (صحيح مسلم). أي الذي لا يكون لديه من الأعمال الصالحة في فيه نجاته فيهلك بذلك ويكون من الخاسرين.

وكل ذلك فيه بيان علاقة الحساب بالميزان حيث يوزن المكلفين وأعمالهم وصحفهم فتحسب جميع أعمالهم من الحسنات والسيئات وما لهم وما عليهم من الحقوق وبذلك يكون الجزاء. ولهذا فقد جمع الله جل جلاله أمر الميزان الشرعي مع صفة الحساب في قوله تعالى: وَنَضَعُ المَوازينَ القِسطَ لِيَومِ القِيامَةِ فَلا تُظلَمُ نَفسٌ شَيـًٔا ۖ وَإِن كانَ مِثقالَ حَبَّةٍ مِن خَردَلٍ أَتَينا بِها ۗ وَكَفىٰ بِنا حاسِبينَ ﴿٤٧﴾ الأنبياء. وقد جاء في تفسير البغوي في بيان معنى "وكفى بنا حاسبين": قال السدي: مُحْصِين، والحساب معناه: العد، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: عالمين حافظين، لأن من حَسَبَ شيئا عَلِمَه وحَفِظَه [11]. وأورد القرطبي في تفسيره: وكفى بنا حاسبين أي مجازين على ما قدموه من خير وشر. وقيل: حاسبين إذ لا أحد أسرع حسابا منا. والحساب العد. روى الترمذي عن عائشة رضي الله عنها: أن رجلا قعد بين يدي النبي ﷺ فقال: يا رسول الله إن لي مملوكين يكذبونني ويخونونني ويعصونني وأشتمهم وأضربهم فكيف أنا منهم؟ قال: يحسب ما خانوك وعصوك وكذبوك وعقابك إياهم فإن كان عقابك إياهم بقدر ذنوبهم كان كفافا لا لك ولا عليك، وإن كان عقابك إياهم دون ذنوبهم كان فضلا

لك، وإن كان عقابك فوق ذنوبهم اقتص لهم منك الفضل، قال: فتنحى الرجل فجعل يبكي ويهتف. فقال رسول ﷺ أما تقرأ كتاب الله تعالى: ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئا فقال الرجل: والله يا رسول الله ما أجد لي ولهؤلاء شيئا خيرا من مفارقتهم، أشهدك أنهم أحرار كلهم. قال حديث غريب [15].

قال تعالى: أُولَئِكَ لَهُم نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا ۚ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٢٠٢﴾ البقرة. وقد جاء في تفسير القرطبي: قوله تعالى: "والله سريع الحساب" من سرع يسرع- مثل عظم يعظم- سرعا وسرعة، فهو سريع. "الحساب" مصدر كالمحاسبة، وقد يسمى المحسوب حسابا. والحساب العد. يقال: حسب يحسب حسابا وحسابة وحسبانا وحسبانا وحسبا، أي عد [.] والمعنى في الآية: إن الله سبحانه سريع الحساب، لا يحتاج إلى عد ولا إلى عقد ولا إلى إعمال فكر كما يفعله الحساب، ولهذا قال وقوله الحق: "وكفى بنا حاسبين" وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "اللهم منزل الكتاب سريع الحساب" الحديث. فالله عز وجل عالم بما للعباد وعليهم فلا يحتاج إلى تذكر وتأمل، إذا قد علم ما للحاسب وعليه، لأن الفائدة في الحساب علم حقيقته. وقيل: سريع المجازاة للعباد بأعمالهم. وقيل: المعنى لا يشغله شأن عن شأن، فيحاسبهم في حالة واحدة، كما قال وقوله الحق: "ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة. قال الحسن: حسابه أسرع من لمح البصر [.] وقيل لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه كيف يحاسب الله العباد في يوم؟ قال كما يرزقهم في يوم! ومعنى الحساب: تعريف الله عباده مقادير الجزاء على أعمالهم، وتذكيره إياهم بما قد نسوه، بدليل قوله تعالى: "يوم يبعثهم الله جميعا فينبئهم بما عملوا أحصاه الله ونسوه". [.] فيأخذ العبد لنفسه في تخفيف الحساب عنه بالأعمال الصالحة، وإنما يخف الحساب في الآخرة على من حاسب نفسه في الدنيا [15].

2.4 الميزان بمعنى العدل والميزان المحسوس

العدل مرادف للميزان، والعدل هو صفة من صفات الله جل جلاله والله عدل في إرادته الكونية والشرعية، فالميزان الكوني تابعا لإرادة الله الكونية والميزان الشرعي تابعا لإرادة الله الشرعية. وكل هذا على وجه الإجمال. وأما على وجه التفصيل، فالميزان الكوني هو العدل في إرادة الله الكونية والميزان الشرعي هو العدل في إرادة الله الشرعية. ولكن الله عز وجل جعل الميزانان كل منهما في صورة حسية لحكمته ومن ذلك لإظهار عدله سبحانه تعالى، نخلق سبحانه الميزان الكوني ووضعه في يده وفيه تدبيره للكون وهو قائما عليه بالقسط كما في قوله تعالى: شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلهَ إِلّا هُوَ وَالمَلائِكَةُ وَأُولُو العِلمِ قائِمًا بِالقِسطِ ۚ لا إِلهَ إِلّا هُوَ العَزيزُ الحَكيمُ ﴿١٨﴾آل عمران. ويخلق سبحانه الميزان الشرعي يوم القيامة ويضعه لحساب المكلفين وأعمالهم كما في قوله تعالى: وَنَضَعُ المَوازينَ القِسطَ لِيَومِ القِيامَةِ فَلا تُظلَمُ نَفسٌ شَيئًا ۖ وَإِن كانَ مِثقالَ حَبَّةٍ مِن خَردَلٍ أَتَينا بِها ۗ وَكَفىٰ بِنا حاسِبينَ ﴿٤٧﴾الأنبياء.

وبهذا يعلم بالضرورة أن الميزان الكوني المحسوس الذي يضعه الله جل جلاله في يده كما صح ذلك عن النبي ﷺ فيه شأن الله وتدبيره لهذا الكون بما في ذلك السماوات والأرض. وأما الميزان الشرعي المحسوس الذي يوضع بعد الصراط وقبل الحوض كما صح ذلك عن النبي ﷺ فيه شأن حساب المكلفين وأعمالهم يوم القيامة. فدل ذلك على أن الميزان الكوني المحسوس أعظم بكثير من الميزان الشرعي المحسوس وكل منهما من عدل الله ورحمته. وهذا لأن خلق وتدبير السماوات والأرض أعظم من خلق الناس كما في قوله تعالى: لَخَلقُ السَّماواتِ وَالأَرضِ أَكبَرُ مِن خَلقِ النّاسِ وَلـٰكِنَّ أَكثَرَ النّاسِ لا يَعلَمونَ ﴿٥٧﴾غافر. فكل هذا فيه أن شؤون الخلق ومن ذلك البعث والحساب أهون على الله جل جلاله من أمر السموات والأرض كما في قوله تعالى: وَهُوَ الَّذي يَبدَأُ الخَلقَ ثُمَّ يُعيدُهُ وَهُوَ أَهوَنُ عَلَيهِ

ج وَلَهُ المَثَلُ الأَعلى فِي السَّماواتِ وَالأَرضِ ج وَهُوَ العَزيزُ الحَكيمُ ﴿٢٧﴾الروم. وقال السعدي في بيان معنى (وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ): وهذا بالنسبة إلى الأذهان والعقول.

وهذا فيه بيان أن التفاوت هنا في قوله (وهو أهون عليه) ليس في ذات الله وقدرته فهو سبحانه على كل شيء قدير ولا يعجزه شيء ولكن هذا التفاوت إنما هو لبيان الحجة العقلية حيث أن من خلق الإنسان وخلق السموات والأرض وهي أكبر وأعظم، قادر على إحياء الموتى من باب أولى. فتكون الحجة العقلية هنا أن من لم يعجزه الإبتداء لا تعجزه الإعادة وخصوصا لما هو أسهل وأهون ولو بالنسبة للعقل. وقد جاء في تفسير ابن كثير وتفسير الطبري: عن ابن عباس قوله: (وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ) يقول: كلّ شيء عليه هين [هـ]. وقد جاء في تفسير القرطبي: فجعل ما علم من ابتداء خلقه دليلا على ما يخفى من إعادته; استدلالا بالشاهد على الغائب [.]، قال أبو عبيدة: ومن جعل أهون يعبر عن تفضيل شيء على شيء فقوله مردود بقوله تعالى: (وكان ذلك على الله يسيرا)، وبقوله: (ولا يئوده حفظهما). والعرب تحمل أفعل على فاعل [.] وأنشد أبو عبيدة أيضا: إني لأمنحك الصدود وإنني قسما إليك مع الصدود لأميل (أراد لمائل) [.] ووجهه أن هذا مثل ضربه الله تعالى لعباده [هـ]. وهذا فيه أن الله جل جلاله يخاطب عباده بما يناسب فهمهم وعقولهم وهذا من عدله ورحمته جل جلاله.

2.5 الإرادة الكونية والإرادة الشرعية

قرر أهل العلم الشرعي من أهل السنة والجماعة في هذا الباب العظيم وبناء على الأدلة والبراهين الواضحة من كتاب الله وسنة نبيه ﷺ وما يوافق النقل والعقل، أن الله جل جلاله له أرادتان وهما الإرادة الكونية والإرادة الشرعية. فالإرادة الكونية هي ما تعلق بمشيئته سبحانه والإرادة الشرعية هي ما

تعلق بمحبته ورضاه. فإرادة الله الكونية نافذة كما في قوله تعالى: إِنَّما أَمرُهُ إِذا أَرادَ شَيئًا أَن يَقولَ لَهُ كُن فَيَكونُ ﴿٨٢﴾يس. وأما الإرادة الشرعية فهي إرادة بيان لما يحبه الله ويرضاه من الأعمال والأقوال كما في قوله تعالى: يُريدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُم وَيَهدِيَكُم سُنَنَ الَّذينَ مِن قَبلِكُم وَيَتوبَ عَلَيكُم ۗ وَاللَّهُ عَليمٌ حَكيمٌ ﴿٢٦﴾ وَاللَّهُ يُريدُ أَن يَتوبَ عَلَيكُم وَيُريدُ الَّذينَ يَتَّبِعونَ الشَّهَواتِ أَن تَميلوا مَيلًا عَظيمًا ﴿٢٧﴾ يُريدُ اللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُم ۚ وَخُلِقَ الإِنسانُ ضَعيفًا ﴿٢٨﴾النساء.

ولما كان الله عز وجل فعال لما يريد كما في قوله تعالى: فَعّالٌ لِما يُريدُ ﴿١٦﴾النحل، كان قضاءه تابعا لإرادته أي سبحانه له كذلك قضاء كوني وقضاء شرعي. فالقضاء الكوني هو ما أراده الله كونا فشاء أن يكون فكان بعزته وعلمه وقدرته سبحانه كما في قوله تعالى: بَديعُ السَّماواتِ وَالأَرضِ ۖ وَإِذا قَضىٰ أَمرًا فَإِنَّما يَقولُ لَهُ كُن فَيَكونُ ﴿١١٧﴾البقرة. وأما قضاءه الشرعي فهو ما أراده الله شرعا فأمر الله عباده به مثل قوله تعالى: وَقَضىٰ رَبُّكَ أَلّا تَعبُدوا إِلّا إِيّاهُ وَبِالوالِدَينِ إِحسانًا ۚ إِمّا يَبلُغَنَّ عِندَكَ الكِبَرَ أَحَدُهُما أَو كِلاهُما فَلا تَقُل لَهُما أُفٍّ وَلا تَنهَرهُما وَقُل لَهُما قَولًا كَريمًا ﴿٢٣﴾الإسراء. فلو كان هذا قضاءا كونيا لكان الناس أمة واحدة على التوحيد ولكن الله نفى ذلك بقضاءه الكوني أي بمشيئته الكونية كما في قوله تعالى: وَلَو شاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُم أُمَّةً واحِدَةً وَلـٰكِن يُضِلُّ مَن يَشاءُ وَيَهدي مَن يَشاءُ ۚ وَلَتُسأَلُنَّ عَمّا كُنتُم تَعمَلونَ ﴿٩٣﴾النحل. ومن ذلك أيضا قوله تعالى: وَما كانَ لِمُؤمِنٍ وَلا مُؤمِنَةٍ إِذا قَضَى اللَّهُ وَرَسولُهُ أَمرًا أَن يَكونَ لَهُمُ الخِيَرَةُ مِن أَمرِهِم ۗ وَمَن يَعصِ اللَّهَ وَرَسولَهُ فَقَد ضَلَّ ضَلالًا مُبينًا ﴿٣٦﴾الأحزاب. فهذا أيضا من القضاء الشرعي ووجه ذلك أنه سبحانه ألزمهم بإتباع أمره الشرعي لأن ذلك من مقتضيات الإيمان ولهذا جاء التحذير في نهاية الآية لمن خالف وعصى أمر الله ورسوله، فلو كان هذا قضاء كونيا لكان ما أراده الله ولم يسع لأحد أن يختار شيئا من ذلك حيث أن أمر الله الكوني نافذ لا محالة.

وكذلك حكم الله تابعا لإرادته وله سبحانه الحكم الكوني وهو تابع لأرادته الكونية والحكم الشرعي وهو تابع لإرادته الشرعية كما في قوله تعالى: يا أَيُّهَا الَّذينَ آمَنوا أَوفوا بِالعُقودِ ۚ أُحِلَّت لَكُم بَهيمَةُ الأَنعامِ إِلّا ما يُتلىٰ عَلَيكُم غَيرَ مُحِلِّي الصَّيدِ وَأَنتُم حُرُمٌ ۗ إِنَّ اللَّهَ يَحكُمُ ما يُريدُ ﴿١﴾ المائدة، وهذا في الحكم الشرعي كما دل سياق الآية. وقوله تعالى: أَوَلَم يَرَوا أَنّا نَأتِي الأَرضَ نَنقُصُها مِن أَطرافِها ۚ وَاللَّهُ يَحكُمُ لا مُعَقِّبَ لِحُكمِهِ ۚ وَهُوَ سَريعُ الحِسابِ ﴿٤١﴾ الرعد. ويدخل في هذا حكمه الشرعي والقدري (أي الكوني) والجزائي كما جاء في تفسير السعدي رحمه الله.

فحكم الله وقضاءه وأمره الكوني نافذ وماض بإرادته الكونية وبما شاء وهو عدل في ذلك لا يشاركه فيه غيره سبحانه كما قال تعالى: وَاللَّهُ يَقضي بِالحَقِّ ۖ وَالَّذينَ يَدعونَ مِن دونِهِ لا يَقضونَ بِشَيءٍ ۗ إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّميعُ البَصيرُ ﴿٢٠﴾ غافر. وقد جاء في تفسير ابن كثير أن قوله: (والله يقضي بالحق) أي: يحكم بالعدل، وقوله: (والذين يدعون من دونه) أي: من الأصنام والأوثان والأنداد، (لا يقضون بشيء) أي: لا يملكون شيئا ولا يحكمون بشيء [هـ]. وكما جاء عن النبي ﷺ أنه قال: «ماضٍ فيَّ حكمُك، عدلٌ فيَّ قضاؤُك» (أخرجه أحمد وصححه الألباني).

وفي كل ذلك فإن الله هو أحكم الحاكمين كما في قوله تعالى: أَلَيسَ اللَّهُ بِأَحكَمِ الحاكِمينَ ﴿٨﴾ التين. وهو أيضا خير الحاكمين كما في قوله: وَاتَّبِع ما يوحىٰ إِلَيكَ وَاصبِر حَتّىٰ يَحكُمَ اللَّهُ ۚ وَهُوَ خَيرُ الحاكِمينَ ﴿١٠٩﴾ يونس. فالحكم كله لله تعالى ومنه الحكم الجزائي وهو سبحانه خير الفاصلين كما في قوله تعالى: إِنِ الحُكمُ إِلّا لِلَّهِ يَقُصُّ الحَقَّ وَهُوَ خَيرُ الفاصِلينَ ﴿٥٧﴾ الأنعام. وذلك لان الله عز وجل عدل في إرادته وحكمه وقضاءه العدل التام المنافي للظلم والدليل قوله تعالى: تِلكَ آياتُ اللَّهِ نَتلوها عَلَيكَ بِالحَقِّ ۗ وَمَا اللَّهُ يُريدُ ظُلمًا لِلعالَمينَ ﴿١٠٨﴾ آل عمران. ومن ذلك أن الله عدل في جزاءه وثوابه كما أخبر هو بذلك في قوله تعالى: وَأَشرَقَتِ الأَرضُ بِنورِ رَبِّها وَوُضِعَ الكِتابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيّينَ وَالشُّهَداءِ وَقُضِيَ بَينَهُم

بِالحَقِّ وَهُم لا يُظلَمونَ ﴿٦٩﴾الحاقة. وقوله تعالى: وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَسولٌ ۖ فَإِذا جاءَ رَسولُهُم قُضِيَ بَينَهُم بِالقِسطِ وَهُم لا يُظلَمونَ ﴿٤٧﴾يونس.

وقد ثبت في السنة أن الله عز وجل حرم الظلم على نفسه في حكمه الكوني وعلى عباده في حكمه الشرعي فعَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عليه وسلَّمَ فِيما رَوَى عَنِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، أَنَّهُ قالَ: يا عِبَادِي، إنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ علَى نَفْسِي، وَجَعَلْتُهُ بيْنَكُمْ مُحَرَّمًا، فلا تَظَالَمُوا، يا عِبَادِي، كُلُّكُمْ ضَالٌّ إلَّا مَن هَدَيْتُهُ، فَاسْتَهْدُونِي أَهْدِكُمْ، يا عِبَادِي، كُلُّكُمْ جَائِعٌ إلَّا مَن أَطْعَمْتُهُ، فَاسْتَطْعِمُونِي أُطْعِمْكُمْ، يا عِبَادِي، كُلُّكُمْ عَارٍ إلَّا مَن كَسَوْتُهُ، فَاسْتَكْسُونِي أَكْسُكُمْ، يا عِبَادِي، إنَّكُمْ تُخْطِئُونَ باللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، وَأَنَا أَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا، فَاسْتَغْفِرُونِي أَغْفِرْ لَكُمْ، يا عِبَادِي، إنَّكُمْ لَنْ تَبْلُغُوا ضَرِّي فَتَضُرُّونِي، وَلَنْ تَبْلُغُوا نَفْعِي فَتَنْفَعُونِي، يا عِبَادِي، لو أنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وإنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ، كَانُوا علَى أَتْقَى قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنكُمْ؛ ما زَادَ ذلكَ في مُلْكِي شيئًا، يا عِبَادِي، لوْ أنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وإنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ، كَانُوا علَى أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ؛ ما نَقَصَ ذلكَ مِن مُلْكِي شيئًا، يا عِبَادِي، لو أنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وإنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ، قَامُوا في صَعِيدٍ وَاحِدٍ فَسَأَلُونِي، فأَعْطَيْتُ كُلَّ إنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ؛ ما نَقَصَ ذلكَ ممَّا عِندِي إلَّا كما يَنْقُصُ المِخْيَطُ إذَا أُدْخِلَ البَحْرَ، يا عِبَادِي، إنَّما هي أَعْمَالُكُمْ أُحْصِيهَا لَكُمْ، ثُمَّ أُوَفِّيكُمْ إيَّاهَا، فَمَن وَجَدَ خَيْرًا فَلْيَحْمَدِ اللَّهَ، وَمَن وَجَدَ غيرَ ذلكَ فلا يَلُومَنَّ إلَّا نَفْسَهُ. وفي رواية: إنِّي حَرَّمْتُ علَى نَفْسِي الظُّلْمَ وعلَى عِبَادِي، فلا تَظَالَمُوا. (صحيح مسلم).

وهذا فيه أن الله جل جلاله لم يحرم الظلم على عباده كونا بل حرمه شرعا وهذا من حكمته سبحانه فقد بين حكمه الشرعي للمكلفين حتى يغفر لمن يشاء برحمته ويعذب من يشاء بعدله في حكمه الجزائي كما في قوله تعالى: وَلِلَّهِ مُلكُ السَّماواتِ وَالأَرضِ ۚ يَغفِرُ لِمَن يَشاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشاءُ ۚ وَكانَ اللَّهُ غَفورًا رَحيمًا ﴿١٤﴾الفتح. وقد جاء في تفسير السعدي أن معنى ذلك أن الله تعالى هو المنفرد بملك

السماوات والأرض، يتصرف فيهما بما يشاء من الأحكام القدرية، والأحكام الشرعية، والأحكام الجزائية، ولهذا ذكر حكم الجزاء المرتب على الأحكام الشرعية، فقال: (يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ) وهو من قام بما أمره الله به (وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ) ممن تهاون بأمر الله، (وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا) أي: وصفه اللازم الذي لا ينفك عنه المغفرة والرحمة، فلا يزال في جميع الأوقات يغفر للمذنبين، ويتجاوز عن الخطائين، ويتقبل توبة التائبين، وينزل خيره المدرار، آناء الليل والنهار [1]. فهذا الحكم الجزائي مرتبط بعدل الله وهدايته فيغفر لمن يشاء بأن يهديه للإسلام والطاعة ويعذب من يشاء بأن يكله إلى نفسه الجاهلة الظالمة المقتضية لعمل الشر فيعمل الشر ويعذب على ذلك كما جاء بيان ذلك في تفسير السعدي رحمه الله. وهذا المعنى هو المعنى الصحيح ولقد بينه جل في علاه في قوله: فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢٥﴾ الأنعام.

2.6 الهداية الكونية والهداية الشرعية

وكما أن لله عز وجل له إرادتان الكونية والشرعية فإن له سبحانه أيضا هدايتان وهما الهداية الكونية وهي هداية التوفيق والإنقياد والهداية الشرعية وهي هداية المعرفة والإرشاد. واجتمعت الهدايتان في قوله تعالى: وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَٰكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ الشورى. ووجه ذلك أن الله عز وجل يهدي من يشاء ومن يريد فهذه الهداية المرتبطة بمشيئته وإرادته سبحانه هي الهداية الكونية وقد وردت في عدة مواضع في القرآن منها قوله تعالى: إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ

وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهدِي مَن يَشَاءُ ۚ وَهُوَ أَعلَمُ بِالمُهتَدِينَ ﴿٥٦﴾ القصص. وفي قوله تعالى: وَكَذَٰلِكَ أَنزَلنَاهُ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَأَنَّ اللَّهَ يَهدِي مَن يُرِيدُ ﴿١٦﴾ الحج. وأما الهداية الأخرى في قوله تعالى: (وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ) فهي المرتبطة بمعرفة الحق وهي الهداية الشرعية وقد وردت أيضا في عدة مواضع في القرآن منها قوله تعالى: يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُم وَيَهدِيَكُم سُنَنَ الَّذِينَ مِن قَبلِكُم وَيَتُوبَ عَلَيكُم ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦﴾ النساء. وهذه الهداية تكون مرتبطة بالوحي وهي هداية بيان للحق كما في قوله تعالى: وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا العِلمَ الَّذِي أُنزِلَ إِلَيكَ مِن رَبِّكَ هُوَ الحَقَّ وَيَهدِي إِلَىٰ صِرَاطِ العَزِيزِ الحَمِيدِ ﴿٦﴾ الأنعام.

وبهذا يتبين أن كل المخلوقات مسيرين بإرادة الله الكونية وأن المكلفين منهم من الجن والإنس مخيرين بإرادة الله الشرعية. والهداية الكونية الراجعة إلى مشيئة الله هي الغالبة، فمن عرف الحق وعمل به فقد هدي شرعا وكونا أي اجتمعت فيه الهدايتان ومثال ذلك أصحاب النبي ﷺ. والناس في كل ذلك درجات برحمة الله وكرمه وبما فضل الله بعضهم على بعض. ومن عرف الحق ولم يعمل به فقد هدي شرعا ولم يهدى كونا أي لم تجتمع فيه الهدايتان ومثال ذلك أبو جهل. والناس في ذلك دركات بعدل الله وغضبه وبما أغوى الله بعضهم على بعض. وسيأتي تفصيل ذلك في بيان يوم الحساب الذي فيه يكون الحساب بوزن الأعمال وبعده يأتي الجزاء إما جنة أو نار.

ومن عدل الله عز وجل وفضله على الناس أنه جعل لهدايته الكونية مسببات منها الإنابة إليه كما في قوله تعالى: اللَّهُ يَجتَبِي إِلَيهِ مَن يَشَاءُ وَيَهدِي إِلَيهِ مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾ الشورى. وقوله تعالى: وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَولَا أُنزِلَ عَلَيهِ آيَةٌ مِن رَبِّهِ ۗ قُل إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهدِي إِلَيهِ مَن أَنَابَ ﴿٢٧﴾ الرعد. ومن ذلك أيضا الإيمان بالله والأعتصام به كما في قوله تعالى: فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَاعتَصَمُوا بِهِ فَسَيُدخِلُهُم فِي رَحمَةٍ مِنهُ وَفَضلٍ وَيَهدِيهِم إِلَيهِ صِرَاطًا مُستَقِيمًا ﴿١٧٥﴾ النساء. ومن ذلك أيضا إتباع

أمر الله الشرعي الذي يحبه الله ويرضاه كما في قوله تعالى: يَهدي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضوانَهُ سُبُلَ السَّلامِ وَيُخرِجُهُم مِنَ الظُّلُماتِ إِلَى النّورِ بِإِذنِهِ وَيَهديهِم إِلىٰ صِراطٍ مُستَقيمٍ ﴿١٦﴾المائدة. وهذا كله من عدل الله ورحمته سبحانه. ومن أسباب الهداية والثبات الدعاء فإن أكثر دعاء نبينا ﷺ كان في ثبات القلب كما جاء عن أم سلمة أن أَكْثرُ دعائِهِ كانَ: يا مُقلِّبَ القلوبِ ثبِّت قلبي على دينِكَ قالَت: فقُلتُ: يا رسولَ اللَّهِ ما أكثرُ دعاءكَ يا مقلِّبَ القلوبِ ثبِّت قلبي على دينِكَ؟ قالَ: يا أمَّ سلمةَ إنَّهُ لَيسَ آدميٌّ إلَّا وقلبُهُ بينَ أصبُعَيْنِ من أصابعِ اللَّهِ، فَمَن شاءَ أقامَ، ومن شاءَ أزاغَ فتلا معاذٌ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا (صحيح الترمذي وصححه الألباني). وهذا فيه أن الله جل جلاله يقلب القلوب بين أصابعه بإرادته الكونية وأن الدعاء قد يكون سببا للهداية الكونية والتي بها يكون الثبات على الدين والطاعة.

ومن أعظم أسباب الهداية هي الجهاد في سبيل الله كما في قوله تعالى: وَالَّذينَ جاهَدوا فينا لَنَهدِيَنَّهُم سُبُلَنا ۚ وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ المُحسِنينَ ﴿٦٩﴾العنكبوت. وقد جاء في تفسير السعدي قوله: دل هذا، على أن أحرى الناس بموافقة الصواب أهل الجهاد، وعلى أن من أحسن فيما أمر به أعانه الله ويسر له أسباب الهداية، وعلى أن من جد واجتهد في طلب العلم الشرعي، فإنه يحصل له من الهداية والمعونة على تحصيل مطلوبه أمور إلهية، خارجة عن مدرك اجتهاده، وتيسر له أمر العلم، فإن طلب العلم الشرعي من الجهاد في سبيل الله، بل هو أحد نَوْعَي الجهاد، الذي لا يقوم به إلا خواص الخلق، وهو الجهاد بالقول واللسان، للكفار والمنافقين، والجهاد على تعليم أمور الدين، وعلى رد نزاع المخالفين للحق، ولو كانوا من المسلمين [1].

إنَّ قُلُوبَ بَنِي آدَمَ كُلَّهَا بيْنَ إِصْبَعَيْنِ مِن أَصَابِعِ الرَّحْمَنِ ، كَقَلْبٍ وَاحِدٍ، يُصَرِّفُهُ حَيْثُ يَشَاءُ، ثُمَّ قالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عليه وَسَلَّمَ: اللَّهُمَّ مُصَرِّفَ القُلُوبِ صَرِّفْ قُلُوبَنَا علَى طَاعَتِكَ. الراوي : عبدالله بن عمرو | المحدث : مسلم | المصدر : صحيح مسلم الصفحة أو الرقم : 2654 | خلاصة حكم

المحدث : [صحيح]

2.7 الأصل في هذا الكون استقراره وثباته وتوازنه وبركته

من المعلوم بالضرورة وما دلت عليه البراهين الشرعية والعقلية أن الأصل في هذا الكون استقراره وثباته وتوازنه وبركته حتى يصلح للحياة كما قال تعالى: صُنعَ اللَّهِ الَّذي أَتقَنَ كُلَّ شَيءٍ إِنَّهُ خَبيرٌ بِما تَفعَلونَ ﴿٨٨﴾ النمل. يقول ابن كثير في تفسيره: أي : يفعل ذلك بقدرته العظيمة الذي قد أتقن كل ما خلق، وأودع فيه من الحكمة ما أودع [10]. ومن ذلك أن الله عز وجل جعل الأرض مستقرة وثابتة ومبسوطة والجبال أوتادا والسماء مرفوعة والسحاب والرياح مسخرة والفلك والأنهار جارية والبحار محسورة والشمس سراجا والقمر نورا والنهار معاشا والليل سكنا والنجوم دليلا والشجار مثمرة والدواب متحركة وسائر المخلوقات المتنوعة وغيرها من الآيات العظيمة الدالة عليه والمرشدة إليه. فكل ذلك من آيات الله الكونية الدالة على عظمته وحكمته سبحانه والتي أراد الله منا بإرادته الكونية أن نراها وبإرادته الشرعية أن نتدبر فيها ونتمعن في تفاصيلها بما أودع فينا من عقل وفطرة. وقد قال تعالى في ذلك: وَقُلِ الحَمدُ لِلَّهِ سَيُريكُم آياتِهِ فَتَعرِفونَها ۚ وَما رَبُّكَ بِغافِلٍ عَمّا تَعمَلونَ ﴿٩٣﴾ النمل. وقوله تعالى: سَنُريهِم آياتِنا فِي الآفاقِ وَفي أَنفُسِهِم حَتّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُم أَنَّهُ الحَقُّ ۗ أَوَلَم يَكفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلىٰ كُلِّ شَيءٍ شَهيدٌ ﴿٥٣﴾ فصلت.

والآيات في ذلك عديدة ومنها قوله تعالى: أَوَلَم يَرَ الَّذينَ كَفَروا أَنَّ السَّماواتِ وَالأَرضَ كانَتا رَتقًا فَفَتَقناهُما ۖ وَجَعَلنا مِنَ الماءِ كُلَّ شَيءٍ حَيٍّ ۖ أَفَلا يُؤمِنونَ ﴿٣٠﴾ وَجَعَلنا فِي الأَرضِ رَواسِيَ أَن تَميدَ بِهِم وَجَعَلنا فيها فِجاجًا سُبُلًا لَعَلَّهُم يَهتَدونَ ﴿٣١﴾ وَجَعَلنَا السَّماءَ سَقفًا مَحفوظًا ۖ وَهُم عَن آياتِها مُعرِضونَ

﴿٣٢﴾ وَهُوَ الَّذي خَلَقَ اللَّيلَ وَالنَّهارَ وَالشَّمسَ وَالقَمَرَ ۖ كُلٌّ في فَلَكٍ يَسبَحونَ ﴿٣٣﴾الأنبياء. وقوله تعالى: وَآيَةٌ لَهُمُ الأَرضُ المَيتَةُ أَحيَيناها وَأَخرَجنا مِنها حَبًّا فَمِنهُ يَأكُلونَ ﴿٣٣﴾ وَجَعَلنا فيها جَنّاتٍ مِن نَخيلٍ وَأَعنابٍ وَفَجَّرنا فيها مِنَ العُيونِ ﴿٣٤﴾ لِيَأكُلوا مِن ثَمَرِهِ وَما عَمِلَتهُ أَيديهِم ۖ أَفَلا يَشكُرونَ ﴿٣٥﴾ سُبحانَ الَّذي خَلَقَ الأَزواجَ كُلَّها مِمّا تُنبِتُ الأَرضُ وَمِن أَنفُسِهِم وَمِمّا لا يَعلَمونَ ﴿٣٦﴾ وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيلُ نَسلَخُ مِنهُ النَّهارَ فَإِذا هُم مُظلِمونَ ﴿٣٧﴾ وَالشَّمسُ تَجري لِمُستَقَرٍّ لَها ۚ ذٰلِكَ تَقديرُ العَزيزِ العَليمِ ﴿٣٨﴾ وَالقَمَرَ قَدَّرناهُ مَنازِلَ حَتّىٰ عادَ كَالعُرجونِ القَديمِ ﴿٣٩﴾ لَا الشَّمسُ يَنبَغي لَها أَن تُدرِكَ القَمَرَ وَلَا اللَّيلُ سابِقُ النَّهارِ ۚ وَكُلٌّ في فَلَكٍ يَسبَحونَ ﴿٤٠﴾يس. وقوله تعالى: إِنَّ في خَلقِ السَّماواتِ وَالأَرضِ وَاختِلافِ اللَّيلِ وَالنَّهارِ وَالفُلكِ الَّتي تَجري فِي البَحرِ بِما يَنفَعُ النّاسَ وَما أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّماءِ مِن ماءٍ فَأَحيا بِهِ الأَرضَ بَعدَ مَوتِها وَبَثَّ فيها مِن كُلِّ دابَّةٍ وَتَصريفِ الرِّياحِ وَالسَّحابِ المُسَخَّرِ بَينَ السَّماءِ وَالأَرضِ لَآياتٍ لِقَومٍ يَعقِلونَ ﴿١٦٤﴾البقرة. وقوله تعالى: وَهُوَ الَّذي جَعَلَ لَكُمُ النُّجومَ لِتَهتَدوا بِها في ظُلُماتِ البَرِّ وَالبَحرِ ۗ قَد فَصَّلنَا الآياتِ لِقَومٍ يَعلَمونَ ﴿٩٧﴾ وَهُوَ الَّذي أَنشَأَكُم مِن نَفسٍ واحِدَةٍ فَمُستَقَرٌّ وَمُستَودَعٌ ۗ قَد فَصَّلنَا الآياتِ لِقَومٍ يَفقَهونَ ﴿٩٨﴾ وَهُوَ الَّذي أَنزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً فَأَخرَجنا بِهِ نَباتَ كُلِّ شَيءٍ فَأَخرَجنا مِنهُ خَضِرًا نُخرِجُ مِنهُ حَبًّا مُتَراكِبًا وَمِنَ النَّخلِ مِن طَلعِها قِنوانٌ دانِيَةٌ وَجَنّاتٍ مِن أَعنابٍ وَالزَّيتونَ وَالرُّمّانَ مُشتَبِهًا وَغَيرَ مُتَشابِهٍ ۗ انظُروا إِلىٰ ثَمَرِهِ إِذا أَثمَرَ وَيَنعِهِ ۚ إِنَّ في ذٰلِكُم لَآياتٍ لِقَومٍ يُؤمِنونَ ﴿٩٩﴾الأنعام.

وقد صح عن النبي ﷺ أنه بعد انقضاء فتنة المسيح الدجال وخروج يأجوج ومأجوج وبدعاء عيسى عليه السلام وأصحابه يُقَالُ لِلأَرْضِ: أَنْبِتِي ثَمَرَتَكِ، وَرُدِّي بَرَكَتَكِ (صحيح مسلم). فدل على أن البركة هي الأصل وموافقة للإيمان تزيد بالطاعة وتنقص بالمعصية وبهذا يقام الميزان.

وكل هذا فيه الحجة البالغة العقلية والشرعية على استحقاق الله جل جلاله للعبادة وحده لا شريك له بالطريقة التي ارتضاها ومن ذلك وجوب تسبيحه وتقديسه بأسمائه وصفاته بدون تحريف ولا تعطيل ولا تكييف ولاتمثيل إذ قال جل جلاله: سَبِّحِ اسمَ رَبِّكَ الأَعلَى ﴿١﴾ الَّذي خَلَقَ فَسَوّىٰ ﴿٢﴾ وَالَّذي قَدَّرَ فَهَدىٰ ﴿٣﴾ وَالَّذي أَخرَجَ المَرعىٰ ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُ غُثاءً أَحوىٰ ﴿٥﴾الأعلى. وجاء في تفسير السعدي في بيان معنى هذه الآيات أنه تعالى يأمر بتسبيحه المتضمن لذكره وعبادته، والخضوع لجلاله، والاستكانة لعظمته، وأن يكون تسبيحا، يليق بعظمة الله تعالى، بأن تذكر أسماؤه الحسنى العالية على كل اسم بمعناها الحسن العظيم. (الذي خلق فسوى) أي: أتقنها وأحسن خلقها (وَالَّذِي قَدَّرَ) تقديرًا، تتبعه جميع المقدرات (فَهَدَى) إلى ذلك جميع المخلوقات. وهذه الهداية العامة، التي مضمونها أنه هدى كل مخلوق لمصلحته، وتذكر فيها نعمه الدنيوية، ولهذا قال فيها: (وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى) أي: أنزل من السماء ماء فأنبت به أنواع النبات والعشب الكثير، فرتع فيها الناس والبهائم وكل حيوان، ثم بعد أن استكمل ما قدر له من الشباب، ألوى نباته، وصوح عشبه. (فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَى) أي: أسود أي: جعله هشيمًا رميمًا، ويذكر فيها نعمه الدينية [1]. فتبارك الله أحسن الخالقين.

فلولا ثبات الكون وإستقراره وبركته لما صلح للحياة ولما كانت الحياة ممكنة ومستقرة ومنتظمة ومنتجة. ولهذا فإن الإنسان يعيش في هذا الكون ويستفيد منه ومن ثماره ونعمه وبركاته وموارده ومعادنه وغيرها من الأشياء التي جعلها الله في هذا الكون ليستفيد منها بفضله ورحمته ومنه علينا. وفي ثبات الكون وإستقراره غايات عظيمة ومصالح كثيرة ومنها تعلم العدد والحساب كما في قوله تعالى: هُوَ الَّذي جَعَلَ الشَّمسَ ضِياءً وَالقَمَرَ نورًا وَقَدَّرَهُ مَنازِلَ لِتَعلَموا عَدَدَ السِّنينَ وَالحِسابَ ۚ ما خَلَقَ اللَّهُ ذٰلِكَ إِلّا بِالحَقِّ ۚ يُفَصِّلُ الآياتِ لِقَومٍ يَعلَمونَ ﴿٥﴾يونس.

فكل هذه الآيات واضحة في دلالتها على عظمة الخالق وحكمته وعدله ورحمته. ولهذا فقد ذكر الله

عزل وجل أن آياته لقوم يعقلون، يعلمون، يفقهون، يؤمنون، يوقنون، أو يتفكرون، وهم أولي الألبات الصادقين حقا مع أنفسهم ومع خالقهم بما أودعه فيهم من هداية وبصيرة بفضله ومنه عليهم. وهم الذين آمنوا بالله حقا على يقين ولم يرتابوا وجاهدوا في الله لنصرة الحق كما في قوله تعالى: إِنَّمَا المُؤمِنونَ الَّذينَ آمَنوا بِاللَّهِ وَرَسولِهِ ثُمَّ لَم يَرتابوا وَجاهَدوا بِأَموالِهِم وَأَنفُسِهِم في سَبيلِ اللَّهِ ۚ أُولـٰئِكَ هُمُ الصّادِقونَ ﴿١٥﴾ الحجرات. ولهذا ما ينكر هذه الآيات الواضحة إلا المعاندين لها والكافرين بها والمشككين فيها والمعرضين عنها وعن خالقهم كفرا وعدوانا وظلما. ولهذا فقد سماهم الله جل جلاله العمي وحجب عنهم الهداية الكونية ونفى عنهم اليقين بعدله سبحانه فقال لنبيه: وَما أَنتَ بِهادِي العُمْيِ عَن ضَلالَتِهِم ۖ إِن تُسمِعُ إِلّا مَن يُؤمِنُ بِآياتِنا فَهُم مُسلِمونَ ﴿٨١﴾ وَإِذا وَقَعَ القَولُ عَلَيهِم أَخرَجنا لَهُم دابَّةً مِنَ الأَرضِ تُكَلِّمُهُم أَنَّ النّاسَ كانوا بِآياتِنا لا يوقِنونَ ﴿٨٢﴾ النمل. وهم الذين يجادلون في آيات الله بالباطل فطبع الله على قلوبهم كما في قوله تعالى: الَّذينَ يُجادِلونَ في آياتِ اللَّهِ بِغَيرِ سُلطانٍ أَتاهُم ۖ كَبُرَ مَقتًا عِندَ اللَّهِ وَعِندَ الَّذينَ آمَنوا ۚ كَذٰلِكَ يَطبَعُ اللَّهُ عَلىٰ كُلِّ قَلبِ مُتَكَبِّرٍ جَبّارٍ ﴿٣٥﴾ غافر. وقوله تعالى: إِنَّ الَّذينَ يُجادِلونَ في آياتِ اللَّهِ بِغَيرِ سُلطانٍ أَتاهُم ۙ إِن في صُدورِهِم إِلّا كِبرٌ ما هُم بِبالِغيهِ ۚ فَاستَعِذ بِاللَّهِ ۖ إِنَّهُ هُوَ السَّميعُ البَصيرُ ﴿٥٦﴾ غافر. فهم تكبروا عن قبول الحق لكفرهم كما قال تعالى: ما يُجادِلُ في آياتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذينَ كَفَروا فَلا يَغرُركَ تَقَلُّبُهُم فِي البِلادِ ﴿٤﴾ غافر.

2.8 الظلم ينافي الميزان الكوني والميزان الشرعي

ومن عدله وحكمته سبحانه أنه جعل الظلم منافيا ومخالفا للميزان الشرعي كما جعله سبحانه منافيا للميزان الكوني. فهذا فيه أن الكون محفوظ بإمر الله الكوني وبعدله ولكن هذا الحفظ والإستقرار إنما

جعله الله برهانا واضحا على ربوبيته وألوهيته حتى يقيم المكلفين الحق والميزان الشرعي، ولهذا فإن الله جل جلاله جعل الظلم من أسباب البلاء الذي يقع بإذنه إما لحكمته أو عدله أو رحمته. ويقع هذا البلاء في صور مختلفة منها الجوع والخوف وقلة المطر والزلازل وذهاب البركة وغير ذلك. ومن أعظم الظلم الكفر بالله كالشرك كما في قوله تعالى: وَإِذ قالَ لُقمانُ لِابنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يا بُنَيَّ لا تُشرِك بِاللَّهِ ۖ إِنَّ الشِّركَ لَظُلمٌ عَظيمٌ ﴿١٣﴾لقمان. أو دعوة الولد له سبحانه والدليل قوله تعالى: وَقالُوا اتَّخَذَ الرَّحمـٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَقَد جِئتُم شَيئًا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكادُ السَّماواتُ يَتَفَطَّرنَ مِنهُ وَتَنشَقُّ الأَرضُ وَتَخِرُّ الجِبالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوا لِلرَّحمـٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾مريم. يقول السعدي رحمه الله: أي من أجل هذه الدعوى القبيحة تكاد هذه المخلوقات، أن يكون منها ما ذكر. والحال أنه: (مَا يَنْبَغِي) أي: لا يليق ولا يكون (لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا) وذلك لأن اتخاذه الولد، يدل على نقصه واحتياجه، وهو الغني الحميد. والولد أيضا، من جنس والده، والله تعالى لا شبيه له ولا مثل ولا سمي [1].

وهذا فيه أن الشرك ونسبة الولد لله سبحانه هو من الظلم الذي لا ينافي فقط الميزان الشرعي الذي أمر الله به، وأنما ينافي أيضا الميزان الكوني فيكاد يحصل الإضراب الذي به يكون خراب هذا الكون. ولهذا فإن دعوة الولد أو الصاحبة لله جل جلاله من شتم الله والإشراك به سبحانه ولهذا فقد نزه سبحانه نفسه عن ذلك كله في قوله: وَجَعَلوا لِلَّهِ شُرَكاءَ الجِنَّ وَخَلَقَهُم ۖ وَخَرَقوا لَهُ بَنينَ وَبَناتٍ بِغَيرِ عِلمٍ ۚ سُبحانَهُ وَتَعالىٰ عَمّا يَصِفونَ ﴿١٠٠﴾ بَديعُ السَّماواتِ وَالأَرضِ ۖ أَنّىٰ يَكونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَم تَكُن لَهُ صاحِبَةٌ ۖ وَخَلَقَ كُلَّ شَيءٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيءٍ عَليمٌ ﴿١٠١﴾ ذٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُم ۖ لا إِلـٰهَ إِلّا هُوَ ۖ خالِقُ كُلِّ شَيءٍ فَاعبُدوهُ ۚ وَهُوَ عَلىٰ كُلِّ شَيءٍ وَكيلٌ ﴿١٠٢﴾ لا تُدرِكُهُ الأَبصارُ وَهُوَ يُدرِكُ الأَبصارَ ۖ وَهُوَ اللَّطيفُ الخَبيرُ ﴿١٠٣﴾مريم. وقد صح عن عبد الله بن عباس وعن أبي هريرة عن النبي ﷺ أن الله قالَ: كَذَّبَنِي ابنُ آدَمَ، ولَمْ يَكُنْ له ذلكَ، وشَتَمَنِي، ولَمْ يَكُنْ له ذلكَ؛ فأمَّا تَكْذِيبُهُ إيَّايَ فَزَعَمَ أنِّي

لا أَقْدِرُ أَنْ أُعِيدَهُ كما كانَ، وأَمَّا شَتْمُهُ إيَّايَ فَقَوْلُهُ: لي ولَدٌ، فَسُبْحانِي أنْ أتَّخِذَ صاحِبَةً أوْ ولَدًا!. وفي رواية اخرى: أمَّا تَكْذِيبُهُ إيَّايَ أنْ يَقُولَ: إنِّي لَنْ أُعِيدَهُ كما بَدَأْتُهُ، وأَمَّا شَتْمُهُ إيَّايَ أنْ يَقُولَ: اتَّخَذَ اللَّهُ ولَدًا، وأنا الصَّمَدُ الذي لَمْ أَلِدْ ولَمْ أُولَدْ، ولَمْ يَكُنْ لي كُفُؤًا أحَدٌ (صحيح البخاري).

ومما ينافي عدل الله الكوني والشرعي أيضا اتباع الهوى بدلا من إقامة الحق ونصرته كما في قوله تعالى: وَلَوِ اتَّبَعَ الحَقُّ أَهواءَهُم لَفَسَدَتِ السَّماواتُ وَالأَرضُ وَمَن فيهِنَّ ۚ بَل أَتَيناهُم بِذِكرِهِم فَهُم عَن ذِكرِهِم مُعرِضونَ ﴿٧١﴾المؤمنون. يقول السعدي في تفسيره: ووجه ذلك أن أهواءهم متعلقة بالظلم والكفر والفساد من الأخلاق والأعمال، فلو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السماوات والأرض، لفساد التصرف والتدبير المبني على الظلم وعدم العدل، فالسماوات والأرض ما استقامتا إلا بالحق والعدل[1].

ومن ذلك أيضا نقصان البركة بسبب المعاصي كما في قوله تعالى: ظَهَرَ الفَسادُ فِي البَرِّ وَالبَحرِ بِما كَسَبَت أَيدِي النّاسِ لِيُذيقَهُم بَعضَ الَّذي عَمِلوا لَعَلَّهُم يَرجِعونَ ﴿٤١﴾الروم. فقد ورد في تفسير القرطبي أن ابن عباس قال: هو نقصان البركة بأعمال العباد كي يتوبوا [هـ]. وجاء في تفسير ابن كثير أن زيد بن رفيع قال: (ظهر الفساد) يعني انقطاع المطر عن البر يعقبه القحط، وعن البحر تعمى دوابه [هـ].

ومن ذلك أيضا الكفر بأنعم الله كما في قوله تعالى: وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَريَةً كانَت آمِنَةً مُطمَئِنَّةً يَأتيها رِزقُها رَغَدًا مِن كُلِّ مَكانٍ فَكَفَرَت بِأَنعُمِ اللَّهِ فَأَذاقَهَا اللَّهُ لِباسَ الجوعِ وَالخَوفِ بِما كانوا يَصنَعونَ ﴿١١٢﴾النحل. وقوله تعالى: وَكَم أَهلَكنا مِن قَريَةٍ بَطِرَت مَعيشَتَها ۖ فَتِلكَ مَساكِنُهُم لَم تُسكَن مِن بَعدِهِم إِلّا قَليلًا ۖ وَكُنّا نَحنُ الوارِثينَ ﴿٥٨﴾القصص. وجاء في تفسير ابن كثير معنى ذلك أي: طغت وأشرت وكفرت نعمة الله، فيما أنعم به عليهم من الأرزاق [هـ]. وسيأتي توضيح أسباب هذا العذاب في

بيان حال الأمم مع الحق والميزان.

2.9 المراد بالعلم والميزان

إن المراد بالعلم عموما هو المعرفة وله أقسام وأنواع ويمكن تقسميه إلى قسمين وهما: العلم الكوني والعلم الشرعي. فالعلم الكوني ينقسم إلى علم ظاهر وهو العلم السببي وعلم غير ظاهر وهو العلم الغيبي. وقد أقسم سبحانه وتعالى بالعلم الكوني كله الظاهر والغير ظاهر في قوله تعالى: فَلا أُقسِمُ بِما تُبصِرونَ ﴿٣٨﴾ وَما لا تُبصِرونَ ﴿٣٩﴾الحاقة. وجاء في تفسير الطبري أن ابن عباس رضي الله عنه يقول في معنى هذه الآية: بما ترون وبما لا ترون [2].

وأما العلم الشرعي فهو ما قام عليه الدليل كما بين ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله. وقد عرفه السعدي رحمه الله فقال: العلم هو معرفة الهدى بدليله، فهو معرفة المسائل النافعة المطلوبة، ومعرفة أدلتها وطرقها، التي تهدي إليها. والعلم النافع هو: العلم بالحق والعمل به، وضده الجهل [1]. وبهذا يكون العلم الشرعي الصحيح هو ما قام عليه الدليل من كتاب الله عز وجل أو سنة نبيه ﷺ أو الإجماع، والعلم الشرعي الغير صحيح هو ما لم يقم عليه الدليل أو خالفه أو خالف الإجماع، ومن ذلك كل البدع والمحدثات كما بين ذلك النبي ﷺ في حديثه: إِيَّاكُمْ ومُحدَثاتِ الأمورِ، فإنَّ كُلَّ مُحدَثَةٍ بِدعَةٌ، وكلَّ بدعةٍ ضلالةٌ، وكلَّ ضلالَةٍ في النَّارِ (صحيحه الألباني في وجوب الأخذ بحديث الآحاد). وينقسم العلم الشرعي إلى علم فطري وعلم ديني.

والعلم من حيث النفع إما علم نافع وإما علم غير نافع بحسب حال صاحبه (أي حامله). وقد نقل الإمام الذهبي رحمه الله في سير أعلام النبلاء أن الإمام الشافعي قال: لَيس العلم ما حفظ، إنما العلم

ما نفع [5]. فالعلم النافع هو العلم الذي ينتفع به في الدنيا أو في الآخرة أو كلاهما ولا يترتب عليه ضرر في الآخرة. ومن العلم الذي ينتفع به في الدنيا كعلم الحديد، والطب، والحساب، وينتفع به في الآخرة أيضا لو أريد به وجه الله تعالى ونفع المسلمين وهذا خير إلى خير كما بين ذلك الشيخ ابن باز رحمه الله. والعلم الذي ينتفع به في الآخرة هو العلم الذي يورث خشية الله والعمل الصالح وإن لم يكن علما شرعيا، ولكن العلم الشرعي الصحيح هو من أعظم أسباب الهداية إلى معرفة الله وحقه وحق عباده علينا المعرفة التي تورث خشية الله وطاعته ولهذا يأتي لفظ العلم بالإطلاق على العلم الشرعي. وقد قال تعالى: إِنَّما يَخشَى اللَّهَ مِن عِبادِهِ العُلَماءُ إِنَّ اللَّهَ عَزيزٌ غَفورٌ ﴿٢٨﴾ فاطر. وقد جاء سياق الآية في التدبر في آيات الله الكونية كنزول المطر من السماء وتنوع الثمرات والجبال والناس والدواب من الماء الواحد فدل ذلك على أن العبرة ليس بكثرة العلم ولكن العبرة بمعرفة الله المعرفة التي تورث الخشية والعمل الصالح مع الإقرار بأن هذا الكون هو من صنع العزيز العليم الذي هو على كل شيء قدير. ولهذا فقد جاء في تفسير ابن كثير عن معنى ذلك عن ابن عباس قال: الذين يعلمون أن الله على كل شيء قدير، وعن ابن مسعود أنه قال: ليس العلم عن كثرة الحديث، ولكن العلم عن كثرة الخشية. وهذا لأن الخشية تكون عن علم بالله وصفاته تعظيما وإجلالا له سبحانه فتورث تقوى الله ولهذا فقد قال تعالى: وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسولَهُ وَيَخشَ اللَّهَ وَيَتَّقهِ فَأُولئِكَ هُمُ الفائِزونَ ﴿٥٢﴾ النور.

وقد كان النبي ﷺ يرغب في العلوم النافعة بالعموم وأمر أصحابه بالدعاء فقال: سَلوا اللهَ علمًا نافعًا، و تَعوَّذوا باللهِ من علمٍ لا ينفعُ (صححه الألباني في السلسلة). وكان النبي ﷺ يدعوا بذلك فقال: اللَّهمَّ إنِّي أسألُكَ علمًا نافعًا وأعوذُ بكَ مِن علْمٍ لا ينفَعُ (صحيح ابن حبان). وقال النبي ﷺ: مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَلْتَمِسُ فِيهِ عِلْمًا سَهَّلَ اللَّهُ لَهُ طَرِيقًا إِلَى الجَنَّةِ (صحيح مسلم). وهذا لا يكون إلا للعلم الذي يورث خشية الله والعمل الصالح. ومن الأمثلة على العلم النافع هو العلم الشرعي الذي يورث صاحبه خشية الله فيعمل

به ليكون حجة له يوم القيامة. ومن العلم النافع أيضا علم التسيير للإستدلال بالنجوم الثابتة في السماء فينتفع صاحبه به في الدنيا في معرفة الطريق، وينتفع صاحبه به في الآخرة لو أرشد غيره في الطريق لوجه الله كما صح ذلك عن النبي ﷺ أنه قال: ودَلُّ الطَّرِيقِ صَدَقَةٌ [14].[14] ويكون العلم بالنجوم نافعا في الآخرة أيضا لو أورث صاحبه العمل الصالح مع خشية الله والتدبر في آياته الكونية ومعرفة عظمة الخالق سبحانه وتعالى.

ومن الأمثلة على العلم الغير النافع كعلم السحر الذي لا يورث إلا الكفر بالله والشرك به. ومن العلم الغير نافع أيضا العلم الشرعي الذي لا يورث صاحبه خشية الله فلا يعمل به ويكون حجة عليه يوم القيامة. قال تعالى: مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوراةَ ثُمَّ لَم يَحمِلوها كَمَثَلِ الحِمارِ يَحمِلُ أَسفارًا ۚ بِئسَ مَثَلُ القَومِ الَّذينَ كَذَّبوا بِآياتِ اللَّهِ ۚ وَاللَّهُ لا يَهدِي القَومَ الظّالِمينَ ﴿٥﴾ الجمعة. ولقد جاء في تفسير ابن كثير: يقول تعالى ذاما لليهود الذين أعطوا التوراة وحملوها للعمل بها، فلم يعملوا بها، مثلهم في ذلك كمثل الحمار يحمل أسفارا، أي: كمثل الحمار إذا حمل كتبا لا يدري ما فيها، فهو يحملها حملا حسيا ولا يدري ما عليه. وكذلك هؤلاء في حملهم الكتاب الذي أوتوه، حفظوه لفظا ولم يفهموه ولا عملوا بمقتضاه، بل أولوه وحرفوه وبدلوه، فهم أسوأ حالا من الحمير ; لأن الحمار لا فهم له، وهؤلاء لهم فهوم لم يستعملوها; ولهذا قال في الآية الأخرى: (أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون) [10]. فالعلم الشرعي لا يكون نافعا في حق حامله إلا إذا عمل به وأراد به الآخرة. فإن أراد به دنيا كان ذلك غير نافع له فقد صح عن النبي ﷺ أنه قال: من تعلَّمَ علمًا مما يُبتغى به وجْهُ اللهِ عزَّ وجلَّ، لا يتعلمُهُ إلا ليصيبَ به عرضًا منَ الدُّنيا لم يجدْ عرفَ الجنةَ يومَ القيامةِ، يعني ريحَها [16].[15] وهذا لأن

[14] صحيح البخاري: 2908

[15] سنن أبي داود: 3664، وصححه الألباني في صحيح أبي داود.

العلم الشرعي في أصله عبادة والعبادة يشترط فيها الإخلاص لله جل جلاله. وأما علوم الدنيا فهي ليست عبادة في أصلها ولا يشترط فيها الإخلاص إلا إذا أراد صاحبها الإنتفاع بها في الآخرة. وبهذا يكون العلم السببي نافعا لصاحبه ولو أراد به الدنيا فينتفع به ولا يؤجر عليه في الآخرة. ويكون نافعا في الدنيا والآخرة إذا احتسب فيه صاحبه لينفع غيره به. ويكون غير نافع في حق حامله إذا شغله عن آخرته. ولهذا فالعلم الغير نافع هو العلم الذي يتضرر منه في الآخرة ولو نفع في الدنيا. فالعلم الذي يلهي عن الآخرة وعن أداء الفرائض والواجبات قد ينفع صاحبه في الدنيا ولكن لا ينفعه في الآخرة وإن كان علما مباحا أو مطلوبا في أصله.

وأما الميزان فالمراد به العدل، وفي اللغة هو الإنصاف، والإنتصاف، والإعتدال، والتوسط، والإستقامة، والتسوية في الحقوق، ومنه الحساب ولهذا سماه الخوارزمي الجبر والمقابلة. ولهذا يكون المراد بالميزان بالنسبة للمعرفة هو العمل بعد المعرفة. ويقام الميزان بأداء الحقوق وبموافقة العمل للمعرفة، ويبخس الميزان ويطغى عليه بإضاعة الحقوق وبمخالفة العمل للمعرفة. وأقسام الميزان كأقسام العلم، ويمكن تقسيمه إلى ميزان كوني وميزان شرعي. فالميزان الكوني ينقسم إلى الميزان السببي والميزان الغيبي. وأما الميزان الشرعي فهو ينقسم إلى الميزان الفطري والميزان الديني.

والميزان الشرعي تابع للعلم الشرعي وهو ما قام عليه الدليل. ويقام الميزان الشرعي بالحكم بالحق وإتباعه والعمل به، والحق هو العلم الشرعي الصحيح وهذا يكون بأداء حق الله بإخلاص مع أداء حق الناس بالقسط وهذا ما كلفنا الله به بحسب القدرة. والميزان بمعناه المعنوي العام هو العدل. وقد عرف السعدي العدل فقال: العدل هو أداء حقوق الله وحقوق العباد. والظلم عكسه، فهو يشمل ظلم العبد لنفسه بالمعاصي والشرك وظلم العباد في دمائهم وأموالهم وأعراضهم [1]. وأما الميزان الكوني فقد تكفل به الله ووضعه جل جلاله في يده على صورة مخلوق لتدبير الكون بالقسط أي

العدل الظاهر. والله جل في علاه يضع الميزان الشرعي بعد الصراط في صورته الحسية (أي في صورة مخلوق) لحساب المكلفين من الجن والإنس. والله قائم على الميزان الكوني بالقسط وسيقوم على الميزان الشرعي بالقسط يوم الحساب في حكمه الجزائيي، وهذا لحكمته وتمام عدله سبحانه ومن ذلك ليكون عدله نافذا في الميزان الشرعي كما في الميزان الكوني.

وعلى ما تقدم، فإن كان المراد المعرفة قيل العلم وإن كان المراد العمل بعد المعرفة قيل الميزان. وفيما يأتي بيان أقسام العلم والميزان واقتصرت التسمية على الميزان فقط لتشمل المعرفة والعمل معا. ولكن نفس التقسيم والشرح ينطبق على العلم أيضا.

2.10 أقسام الميزان الكوني

2.10.1 الميزان السببي

فالقسم الأول هو الميزان السببي أو العلم السببي وهو علم ظاهر يدرك بالعقل والفطرة وما منَّ الله به على خلقه من حواس كالبصر والسمع والإحساس. فالميزان السببي فيه حقيقة الأشياء ومسمياتها وطريق الوصول إليها ومسبباتها. ولهذا كان علم الحساب مفتاحا للعلم السببي الذي يمكن إدراك أسبابه. والمخلوقات تتفاوت في المعرفة بهذا الميزان كل بحسب حاله ومقامه ولكن الله جل جلاله أختص الإنسان وفضله على سائر الخلق بأن جعل له عقلا يدرك به من الأسباب وحقيقتها ومسمياتها ما لا يمكن لغيره من المخلوقات. وهذا لأن الله جل جلاله أراد بحكمته أن يجعله خليفة في الأرض فخلقه على صورته وجعل له من العقل والذكاء ما لم يعطي غيره. وهذا ما فضل الله جل جلاله به آدم على الملائكة وهو تفضيل في المعرفة السببية فأمرهم بالسجود له سجود التحية والإحترام وليظهر فضله على

سائر الخلق وهذا لحكمته سبحانه وعلمه كما في قوله تعالى: وَإِذ قالَ رَبُّكَ لِلمَلائِكَةِ إِنّي جاعِلٌ فِي الأَرضِ خَليفَةً ۖ قالوا أَتَجعَلُ فيها مَن يُفسِدُ فيها وَيَسفِكُ الدِّماءَ وَنَحنُ نُسَبِّحُ بِحَمدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قالَ إِنّي أَعلَمُ ما لا تَعلَمونَ ﴿٣٠﴾ وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسماءَ كُلَّها ثُمَّ عَرَضَهُم عَلَى المَلائِكَةِ فَقالَ أَنبِئوني بِأَسماءِ هـٰؤُلاءِ إِن كُنتُم صادِقينَ ﴿٣١﴾ قالوا سُبحانَكَ لا عِلمَ لَنا إِلّا ما عَلَّمتَنا ۖ إِنَّكَ أَنتَ العَليمُ الحَكيمُ ﴿٣٢﴾ قالَ يا آدَمُ أَنبِئهُم بِأَسمائِهِم ۖ فَلَمّا أَنبَأَهُم بِأَسمائِهِم قالَ أَلَم أَقُل لَكُم إِنّي أَعلَمُ غَيبَ السَّماواتِ وَالأَرضِ وَأَعلَمُ ما تُبدونَ وَما كُنتُم تَكتُمونَ ﴿٣٣﴾ وَإِذ قُلنا لِلمَلائِكَةِ اسجُدوا لِآدَمَ فَسَجَدوا إِلّا إِبليسَ أَبىٰ وَاستَكبَرَ وَكانَ مِنَ الكافِرينَ ﴿٣٤﴾ البقرة.

فأما الملائكة فاعترفوا بهذا الفضل وبأنهم لا علم لهم إلا ما علمه الله لهم ولكن هذا النقص في العلم السببي لم يمنعهم من الطاعة والإنقياد لأمر الله جل جلاله. وأما إبليس فقد حسد آدم في الصورة التي خلق بها وعلى ما منَّ الله به عليه من العلم والقدرة المعرفية التي استحق بها هذا الثناء والتقدير. ولهذا فما كان للشيطان إلا أن يقول مستكبرا أنه خيرا منه خلق من نار وآدم من طين حسدا منه وكفرا. وهذا فيه جهل ابليس حيث أنه نسب الفضل لمجرد نوع مادة الخلق والقوة الطبيعية لا للعلم والقدرة المعرفية التي منَّ الله بها على آدم عليه السلام. فما كان له إلا أن يسعى لإضلاله وإخراجه من الجنة حسدا منه على هذه الفضائل ولو كان ذلك على حساب هلاكه وسوء مثاله. وهذا أيضا فيه نقص العقل وسوء الفكر نسأل الله السلامة والعافية. ولم يكتفي بذلك بل أخذ العهد على نفسه لإغواء وإضلال كل ذرية بني آدم كما حذرنا سبحانه وتعالى في كتابه الكريم.

وبالمعرفة بهذا الميزان السببي لا زالت تتقدم الحضارات الإنسانية وتتطور في الأخذ بالأسباب لإنجاز ما لم يكن ممكا لما سبق من الأمم من التكنولوجيا وشتى العلوم كالفيزياء والكيمياء والطب، والذكاء الإصطناعي وغيرها من العلوم الأخرى التي بها يمكن تحصيل المصالح الدينية والدنيوية.

ومفتاح كل هذه العلوم هو علم الحساب حيث به تعرف مقادير الأشياء وتقديرها ولهذا فقد أمر الله تعالى بتعلمه من الآيات الكونية كما تقدم. ولهذا فإن الميزان السببي يحتاج إلى بحث وتمعن في آيات الله الكونية، وما يخفى منه على الإنسان أكثر مما يعلم لهذا قال جل جلاله في ذلك عندما سئل الرسول ﷺ عن حقيقة الروح: وَيَسأَلونَكَ عَنِ الرّوحِ ۖ قُلِ الرّوحُ مِن أَمرِ رَبّي وَما أوتيتُم مِنَ العِلمِ إِلّا قَليلًا ﴿٨٥﴾الإسراء. وهذا فيه أن الروح لا يمكن قياسها ولا عدها وهي ليست من الميزان السببي وإنما هي من الميزان الغيبي.

ولهذا فقد ذكر جل جلاله تقدم البشرية من الأقوام السابقة في هذا العلم السببي ولكن هذا التقدم كان سببا في زيادة الغفلة ظنا منهم أن العلم السببي يغني عن العلم الشرعي ولهذا قال تعالى: فَلَمّا جاءَتهُم رُسُلُهُم بِالبَيِّناتِ فَرِحوا بِما عِندَهُم مِنَ العِلمِ وَحاقَ بِهِم ما كانوا بِهِ يَستَهزِئونَ ﴿٨٣﴾غافر. وقال تعالى: يَعلَمونَ ظاهِرًا مِنَ الحَياةِ الدُّنيا وَهُم عَنِ الآخِرَةِ هُم غافِلونَ ﴿٧﴾الروم. وجاء في تفسير السعدي بيان ذلك أن هؤلاء الذين لا يعلمون أي: لا يعلمون بواطن الأشياء وعواقبها. وإنما يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فينظرون إلى الأسباب ويجزمون بوقوع الأمر الذي في رأيهم انعقدت أسباب وجوده ويتيقنون عدم الأمر الذي لم يشاهدوا له من الأسباب المقتضية لوجوده شيئا، فهم واقفون مع الأسباب غير ناظرين إلى مسببها المتصرف فيها. (وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ) قد توجهت قلوبهم وأهواؤهم وإراداتهم إلى الدنيا وشهواتها وحطامها فعملت لها وسعت وأقبلت بها وأدبرت وغفلت عن الآخرة، فلا الجنة تشتاق إليها ولا النار تخافها وتخشاها ولا المقام بين يدي الله ولقائه يروعها ويزعجها وهذا علامة الشقاء وعنوان الغفلة عن الآخرة. ومن العجب أن هذا القسم من الناس قد بلغت بكثير منهم الفطنة والذكاء في ظاهر الدنيا إلى أمر يحير العقول ويدهش الألباب. وأظهروا من العجائب الذرية والكهربائية والمراكب البرية والبحرية والهوائية ما فاقوا به وبرزوا وأعجبوا بعقولهم ورأوا غيرهم

عاجزا عما أقدرهم الله عليه، فنظروا إليهم بعين الاحتقار والازدراء وهم مع ذلك أبلد الناس في أمر دينهم وأشدهم غفلة عن آخرتهم وأقلهم معرفة بالعواقب، قد رآهم أهل البصائر النافذة في جهلهم يتخبطون وفي ضلالهم يعمهون وفي باطلهم يترددون نسوا الله فأنساهم أنفسهم أولئك هم الفاسقون. ثم نظروا إلى ما أعطاهم الله وأقدرهم عليه من الأفكار الدقيقة في الدنيا وظاهرها و[ما] حرموا من العقل العالي فعرفوا أن الأمر لله والحكم له في عباده وإن هو إلا توفيقه وخذلانه فخافوا ربهم وسألوه أن يتم لهم ما وهبهم من نور العقول والإيمان حتى يصلوا إليه، ويحلوا بساحته [وهذه الأمور لو قارنها الإيمان وبنيت عليه لأثمرت الرُّقِيَّ العالي والحياة الطيبة، ولكنها لما بني كثير منها على الإلحاد لم تثمر إلا هبوط الأخلاق وأسباب الفناء والتدمير] [1]. وهذا فيه البيان الكافي في أن الطريق الواضح والسليم للرقي بالحضارة بما يرضي الله لا يكون إلا بالأخذ بالعلم الشرعي مع العلم السببي النافع والتوجه إلى الله بالتوحيد والإخلاص والتقوى والعمل الصالح. وهذا ما يجب على الإنسان أن يعمل به ويعمل على تحقيقه ويتوكل على الله في ذلك كله.

ومن الأمثلة على تقدم الأمم السابقة في العلم السببي (ولو بالنسبة لقريش والعرب) والذي كان سببا لتكبرها وتجبرها على أمر الله الشرعي وكفرها بالأنبياء والرسل هم عاد قوم هود عليه السلام حيث قال تعالى فيهم: وَلَقَد مَكَّنّاهُم فيما إِن مَكَّنّاكُم فيهِ وَجَعَلنا لَهُم سَمعًا وَأَبصارًا وَأَفئِدَةً فَما أَغنىٰ عَنهُم سَمعُهُم وَلا أَبصارُهُم وَلا أَفئِدَتُهُم مِن شَيءٍ إِذ كانوا يَجحَدونَ بِآياتِ اللَّهِ وَحاقَ بِهِم ما كانوا بِهِ يَستَهزِئونَ ﴿٢٦﴾الأحقاف. وهذا فيه أن الله جل جلاله يسر لعاد أسباب التمكين في الدنيا على نحو لم يمكن به غيرهم من العرب وكفار قريش كما جاء في عدة تفاسير. إلا أن هذا التمكين لم يكن سببا لهدايتهم رغم ما كان لهم من سمع وأبصار وقلوب ولكنهم كفروا واستهزؤا بأمر الله فغضب الله عليهم وأنزل عليهم عذابه. وهذا الأمر قد تكرر مع العديد من الأقوام السابقة كما في قوله تعالى: أَلَم يَرَوا كَم

أَهلَكنا مِن قَبلِهِم مِن قَرنٍ مَكَّنّاهُم فِي الأَرضِ ما لَم نُمَكِّن لَكُم وَأَرسَلنَا السَّماءَ عَلَيهِم مِدرارًا وَجَعَلنَا الأَنهارَ تَجري مِن تَحتِهِم فَأَهلَكناهُم بِذُنوبِهِم وَأَنشَأنا مِن بَعدِهِم قَرنًا آخَرينَ ﴿٦﴾الأنعام. وقوله تعالى: أَوَلَم يَسيروا فِي الأَرضِ فَيَنظُروا كَيفَ كانَ عاقِبَةُ الَّذينَ مِن قَبلِهِم ۚ كانوا أَشَدَّ مِنهُم قُوَّةً وَأَثارُوا الأَرضَ وَعَمَروها أَكثَرَ مِمّا عَمَروها وَجاءَتهُم رُسُلُهُم بِالبَيِّناتِ ۖ فَما كانَ اللَّهُ لِيَظلِمَهُم وَلـٰكِن كانوا أَنفُسَهُم يَظلِمونَ ﴿٩﴾الروم. فهذه هي سنة الله ودأبه في الأمم السابقين التي كذبت رسلها كما سيأتي بيان ذلك في حال الأمم مع الحق والميزان.

وأما الجن فلم يكن لهم التقدم في الحضارة وهذا لنقص عقولهم في إدراك العلم السببي. ولهذا كان كل الأنبياء والرسل من البشر فهم أكمل عقلاً وأعلى فكرا وأعظم علما. وهذا لأن الجن لا يدركون من الأسباب ما يمكن للبشر إدراكه ومن ذلك ما بينه جل جلاله في قوله عن الجن: فَلَمّا قَضَينا عَلَيهِ المَوتَ ما دَلَّهُم عَلىٰ مَوتِهِ إِلّا دابَّةُ الأَرضِ تَأكُلُ مِنسَأَتَهُ ۖ فَلَمّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الجِنُّ أَن لَو كانوا يَعلَمونَ الغَيبَ ما لَبِثوا فِي العَذابِ المُهينِ ﴿١٤﴾سبأ. حيث أنهم خدموا سليمان عليه السلام وهو ميت ظنا منهم أنه حيا. فلم يدركوا بعقولهم الناقصة أنه إذا لم يتحرك لفترة طويلة من الزمن فقد مات، وهذا ما يستطيع إدراكه العاقل بل وحتى الطفل من البشر بسهولة. وقد جاء في تفسير السعدي بيان ذلك أن الجن كانوا قد موهوا على الإنس، وأخبروهم أنهم يعلمون الغيب، ويطلعون على المكنونات، فأراد الله تعالى أن يُرِيَ العباد كذبهم في هذه الدعوى، فمكثوا يعملون على عملهم، وقضى الله الموت على سليمان عليه السلام، واتَّكأ على عصاه، وهي المنسأة، فصاروا إذا مروا به وهو متكئ عليها، ظنوه حيا، وهابوه. فغدوا على عملهم كذلك سنة كاملة على ما قيل، حتى سلطت دابة الأرض على عصاه، فلم تزل ترعاها، حتى باد وسقط فسقط سليمان عليه السلام وتفرقت الشياطين وتبينت الإنس أن الجن (لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ) وهو العمل الشاق عليهم، فلو علموا الغيب، لعلموا

موت سليمان، الذي هم أحرص شيء عليه، ليسلموا مما هم فيه [1].

وكل هذا فيه البيان من الله جل جلاله للناس أن الجن ليس فقط لا يعلمون الغيب بل هم أنقص عقلا وإدراكا وإن كانوا أكثر قوة بطبيعة مادة خلقهم وهي النار. إلا أن الإنسان قادر على إدراك الأسباب التي تمكنه من التفوق على الجن في القوة بالعلم السببي، ومن ذلك قصة عرش بالقيس حيث قال تعالى مخبرا عن سليمان عليه السلام: قالَ يا أَيُّهَا المَلَأُ أَيُّكُم يَأتيني بِعَرشِها قَبلَ أَن يَأتوني مُسلِمينَ ﴿٣٨﴾ قالَ عِفريتٌ مِنَ الجِنِّ أَنا آتيكَ بِهِ قَبلَ أَن تَقومَ مِن مَقامِكَ ۖ وَإِنّي عَلَيهِ لَقَوِيٌّ أَمينٌ ﴿٣٩﴾ قالَ الَّذي عِندَهُ عِلمٌ مِنَ الكِتابِ أَنا آتيكَ بِهِ قَبلَ أَن يَرتَدَّ إِلَيكَ طَرفُكَ ۚ فَلَمّا رَآهُ مُستَقِرًّا عِندَهُ قالَ هـٰذا مِن فَضلِ رَبّي لِيَبلُوَني أَأَشكُرُ أَم أَكفُرُ ۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّما يَشكُرُ لِنَفسِهِ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبّي غَنِيٌّ كَريمٌ ﴿٤٠﴾ النمل. وقد جاء في تفسير السعدي أن هذا الذي عنده علم من الكتاب هو رجل عالم صالح عند سليمان يقال له: "آصف بن برخيا" كان يعرف اسم الله الأعظم الذي إذا دعا الله به أجاب وإذا سأل به أعطى، بأن يدعو الله بذلك الاسم فيحضر حالا وأنه دعا الله فحضر. فالله أعلم هل هذا المراد، أم أن عنده علما من الكتاب يقتدر به على جلب البعيد وتحصيل الشديد [1]. والأقرب والله أعلى وأعلم أن آصف رحمه الله كان لديه هذا العلم السببي الذي به يقرب البعيد ولهذا فقد نسب جل جلاله فعله للعلم وهو العلم السببي ولم ينسب فعله لإيمانه أو دعائه كما هو الحال مع سائر الأنبياء مثل يونس عليه السلام في قوله تعالى: فَاستَجَبنا لَهُ وَنَجَّيناهُ مِنَ الغَمِّ ۚ وَكَذٰلِكَ نُنجِي المُؤمِنينَ ﴿٨٨﴾ الأنبياء. وهذا العلم الذي كان لدى آصف يسمى علم التنقل الآني للمحسوسات وإلى زماننا يبدو هذا العلم مستحيلا إدراكه إلا أنه يبقى علم سببي قد يدركه الإنسان إن علم أسبابه الموصلة إليه. ومن المعلوم أنه الإنسان في زماننا قد تمكن من تحقيق التنقل الآني لغير المحسوسات كالصوت والصور وكافة البيانات الرقمية وغيرها من الأشياء المستخدمة في وسائل الاتصال التي كانت تبدوا مستحيلة في

الماضي القريب. فلك أن تتأمل في الأسباب الموصلة لهذا العلم العظيم الذي إن أدركه المسلمون لسبقوا كل الأمم والحضارات وكتب لهم التمكين إن أقاموا الحق والميزان مع الأخذ بهذا السبب العظيم.

ولقد رغب النبي ﷺ أصحابه في العلم السببي الذي به يقاتل الأعداء ومن ذلك علم الرمي لحاجة المسلمين له فقال: مَن عَلِمَ الرَّمْيَ، ثُمَّ تَرَكَهُ، فليسَ مِنَّا، أوْ قدْ عَصَى (صحيح مسلم، وصححه الألباني). ومن العلوم النافعة أيضا علم الفيزياء والكيمياء التي بها يعرف سلوك المواد وأسبابها للإستفادة منها والإنتفاع بها كالحديد فقد قال تعالى عنه: وَأَنزَلنَا الحَدِيدَ فيهِ بَأسٌ شَديدٌ وَمَنافِعُ لِلنّاسِ الحديد. ولقد بين ذلك السعدي رحمه الله في تفسيره فقال: وهو ما يشاهد من نفعه في أنواع الصناعات والحرف، والأواني وآلات الحرث، حتى إنه قل أن يوجد شيء إلا وهو يحتاج إلى الحديد [1].ومن فضل الله ومنه على عباده أنه يفتح على من يشاء من هذا العلم السببي لعباده الصالحين القائمين بالميزان الشرعي فجعل لهم من أسباب التمكين ما يعجز عليه غيرهم وهذا لحكمته سبحانه، كما فتح على ذي القرنين وعلى داوود وسليمان عليهما السلام وعلى آصف رحمه الله وعلى نبينا محمد ﷺ وعلى الصالحين من بعده من أصحابه رضي الله عنهم إلى زمان عمر بن عبدالعزيز رحمه الله ومن بعده هارون الرشيد رحمه الله وما سيأتي في آخر الزمان في عهد المهدي المنتظر وعيسى عليه السلام، وسيأتي بيان وتفصيل كل ذلك في فصل الحكم الرشيد.

2.10.2 الميزان الغيبي

أما القسم الثاني فهو الميزان الغيبي أو العلم الغيبي وهو علم غير ظاهر لا يعلمه بالكلية ولا يملك مفاتحه إلا الله جل جلاله كما في قوله تعالى: وَعِندَهُ مَفاتِحُ الغَيبِ لا يَعلَمُها إِلّا هُوَ ۚ وَيَعلَمُ ما فِي البَرِّ وَالبَحرِ ۚ وَما تَسقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلّا يَعلَمُها وَلا حَبَّةٍ في ظُلُماتِ الأَرضِ وَلا رَطبٍ وَلا يابِسٍ إِلّا في كِتابٍ مُبينٍ

﴿٥٩﴾الأنعام. وقد أخبر النبي ﷺ عن عدد هذه المفاتيح فقال: مَفاتِيحُ الغَيْبِ خَمْسٌ، ثُمَّ قَرَأَ: (إنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ) (صحيح البخاري). فهو سبحانه عالم الغيب والشهادة كما في قوله تعالى: هُوَ اللَّهُ الَّذي لا إِلٰهَ إِلّا هُوَ عالِمُ الغَيبِ وَالشَّهادَةِ هُوَ الرَّحمٰنُ الرَّحيمُ ﴿٢٢﴾الحشر. ولهذا فإن الله جل جلاله ينسب علم الغيب لنفسه ولا يعلمه أحد من خلقه إلا بمشيئته سبحانه كما قال تعالى: وَلا يُحيطونَ بِشَيءٍ مِن عِلمِهِ إِلّا بِما شاءَ(البقرة). ولهذا من علم الغيب ما أذن الله بمعرفته ومنه ما لم يأذن سبحانه بمعرفته والدليل على هذا قوله تعالى: عالِمُ الغَيبِ فَلا يُظهِرُ عَلىٰ غَيبِهِ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلّا مَنِ ارتَضىٰ مِن رَسولٍ فَإِنَّهُ يَسلُكُ مِن بَينِ يَدَيهِ وَمِن خَلفِهِ رَصَدًا ﴿٢٧﴾الجن. وقد صح عن النبي ﷺ أنه قال: اللهمّ إني أسألُك بكلِّ اسمٍ هو لك سميتَ به نفسَك أو أنزلتَه في كتابِك أو علمته أحدًا من خلقِك أو استأثرت به في علمِ الغيبِ عندك، أن تجعلَ القرآنَ العظيمَ ربيعَ قلبي ونورَ صدري وجلاءَ حزني وذهابَ همّي وغمّي (صححه الألباني في السلسلة الصحيحة). وهذا فيه أن الله جل جلاله عنده علم لم يأذن بمعرفته لأحد من خلقه وهو العلم الذي استأثر به في علم الغيب عنده.

ومن الأمثلة على العلم الغيبي الذي لم يأذن الله بمعرفته كعلم موعد وقوع الساعة كما في قوله تعالى: يَسأَلُكَ النّاسُ عَنِ السّاعَةِ قُل إِنَّما عِلمُها عِندَ اللَّهِ وَما يُدريكَ لَعَلَّ السّاعَةَ تَكونُ قَريبًا ﴿٦٣﴾الأحزاب. ولقد صح عن النبي وهو أشرف الناس أنه قال لجربيل هو أشرف الملائكة عن الساعة عندما سأله: فمتَى السَّاعةُ؟ قالَ ما المسئولُ عنها بأعلمَ منَ السَّائلِ (صحيح البخاري). ولهذا فقد أمر جل جلاله نبيه ببيان هذا الأمر وهو العلم الغيبي الذي لم يأذن الله بمعرفته في قوله تعالى: قُل لا أَقولُ لَكُم عِندي خَزائِنُ اللَّهِ وَلا أَعلَمُ الغَيبَ وَلا أَقولُ لَكُم إِنّي مَلَكٌ إِن أَتَّبِعُ إِلّا ما يوحىٰ إِلَيَّ قُل هَل يَستَوِي الأَعمىٰ وَالبَصيرُ أَفَلا تَتَفَكَّرونَ ﴿٥٠﴾الأنعام. وقوله تعالى: قُل لا أَملِكُ لِنَفسي نَفعًا وَلا ضَرًّا إِلّا ما شاءَ اللَّهُ وَلَو كُنتُ أَعلَمُ الغَيبَ لَاستَكثَرتُ مِنَ الخَيرِ وَما مَسَّنِيَ السّوءُ إِن أَنا إِلّا نَذيرٌ وَبَشيرٌ لِقَومٍ يُؤمِنونَ

﴿١٨٨﴾الأعراف.

وأما العلم الغيبي الذي أذن الله بمعرفته فمنه ما علمه الله لأنبياءه ورسله بالوحي ومن ذلك الكتب المنزلة التي فيها من القصص الفائتة كما في قوله تعالى: تِلكَ مِن أَنباءِ الغَيبِ نوحيها إِلَيكَ ۖ ما كُنتَ تَعلَمُها أَنتَ وَلا قَومُكَ مِن قَبلِ هـٰذا ۖ فَاصبِر ۖ إِنَّ العاقِبَةَ لِلمُتَّقينَ ﴿٤٩﴾هود. وغير ذلك من الأخبار الفائتة كفترة مكوث أهل الكهف وعددهم، وقصص الأنبياء عليهم السلام. ومن ذلك أيضا الأحداث القادمة كما في قوله تعالى: وَقالَ الَّذينَ كَفَروا لا تَأتينَا السّاعَةُ ۖ قُل بَلىٰ وَرَبّي لَتَأتِيَنَّكُم عالِمِ الغَيبِ ۖ لا يَعزُبُ عَنهُ مِثقالُ ذَرَّةٍ فِي السَّماواتِ وَلا فِي الأَرضِ وَلا أَصغَرُ مِن ذٰلِكَ وَلا أَكبَرُ إِلّا في كِتابٍ مُبينٍ ﴿٣﴾سبأ. وغير ذلك من الآيات والأحاديث التي تخبر بالأمور التي تحدث في المستقبل وفي آخر الزمان كنزول عيسى عليه السلام، وخروج الدابة، وإنهيار سد ذي القرنين، وخروج يأجوج ومأجوج، وخروج الشمس من مغربها. فكل ما سبق فيه الدليل الواضح على أن الله سبحانه وتعالى أذن بمعرفة بعض العلم الغيبي لمن شاء من خلقه ولم يأذن بمعرفة بعضه الآخر. والعلم الغيبي الذي لم يأذن الله بمعرفته أكثر مما علم الخلق كما في قوله تعالى: وَما أوتيتُم مِنَ العِلمِ إِلّا قَليلًا ﴿٨٥﴾الإسراء.

وعلم الغيب الذي أذن الله بمعرفته هو علم نسبي يتفاوت الخلق بمعرفته كل بحسب ما أضهره الله له وأذن له أن يعلم، فمنه ما يدركه الإنسان دون غيره إن علم أسبابه، ومنه ما يدركه الجن دون الإنسان، ومنه ما يدركه الدواب دون الجن والإنس، ومنه ما تدركه الملائكة دون الجن والإنس وسائر الدواب الأخرى. فمن ذلك ما تحفظ به الزوجة الصالحة زوجها عند غيابه فهذا بالنسبة له علم غيبي كما في قوله تعالى: فَالصّالِحاتُ قانِتاتٌ حافِظاتٌ لِلغَيبِ بِما حَفِظَ اللَّهُ (النساء). ومن ذلك أن الإنسان لا يرى الجن حيث قال تعالى: إِنَّهُ يَراكُم هُوَ وَقَبيلُهُ مِن حَيثُ لا تَرَونَهُم (الأعراف). فدل ذلك أن الجن لهم بعد لا يراه الإنسان وهو البعد المكاني الرابع والذي يمكّنهم من رؤية الإنس ويحجب الإنس عن رؤيتهم لأن

الإنس لا يرون إلا الأبعاد المكانية الثلاثة. ولقد تبث بالحساب أن من كان لديه القدرة على الوصول لأبعاد مكانية أعلى، كانت له القدرة على الظهور والتشكل وإختراق ما دونها من الأبعاد عند طريق ذلك البعد. وهذا فيه أن الجن لهم القدرة على التشكل بصور مختلفة في الأبعاد الثلاثة وإختراقها وذلك لوجودهم في البعد الرابع. ولهذا كان للشياطين القدرة في الدخول في أجساد الإنس واتخاذ مجرى الدم فيها طريقا كما صح عن النبي ﷺ: إن الشيطانَ يجري من ابنِ آدمَ مجرَى الدمِ (صحيح أبي داود وصححه الألباني). ومن ذلك أن الشياطين من الجن لهم القدرة على مس الإنس بمشيئة الله وقد شبه الله تعالى آكل الربا بذلك فقال جل في علاه: الَّذينَ يَأكُلونَ الرِّبا لا يَقومونَ إِلّا كَما يَقومُ الَّذي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيطانُ مِنَ المَسِّ (البقرة). والأدلة في تشكل الشياطين من الجن كثيرة ومنها قصة أبو هريرة رضي الله مع الشيطان الذي أمسكه في صورة إنس في رمضان وكان يسرق الطعام من زكاة الفطر فقال له النبي ﷺ: تعلم مَن تخاطبُ منذ ثلاثِ ليالٍ يا أبا هريرةَ؟ قلتُ: لا، قال: ذاك الشيطانُ (صحيح البخاري). ومن ذلك أيضا الجنازة فقد صح عن النبي ﷺ أنه قال: إذَا وُضِعَتِ الجِنَازَةُ، واحْتَمَلَهَا الرِّجَالُ علَى أَعْنَاقِهِمْ، فإنْ كَانَتْ صَالِحَةً، قالَتْ: قَدِّمُونِي، وإنْ كَانَتْ غيرَ صَالِحَةٍ، قالَتْ: يا ويْلَهَا أَيْنَ يَذْهَبُونَ بهَا؟ يَسْمَعُ صَوْتَهَا كُلُّ شيءٍ إلَّا الإنْسَانَ، ولو سَمِعَهُ صَعِقَ (صحيح البخاري). ومن ذلك أيضا عذاب القبر فقد حجب عن الجن والإنس دون سائر الدواب ولهذا قال النبي ﷺ: فيضربُهُ بِها ضربةً يسمَعُها ما بينَ المشرقِ والمغربِ إلَّا الثَّقلينِ (أخرجه أبو داود وصححه الألباني). ومن ذلك أيضا أن الثقلين لا يسمعان الملائكة التي تنادي وقت الشروق والغروب كل يوم حيث قال النبي ﷺ: ما طلعت شمسٌ قط إلا بُعِثَ بجنبتَيْها مَلَكَانِ يُناديانِ، يُسْمِعَانِ أهلَ الأرضِ إلا الثَّقلَيْنِ، يا أيها الناسُ هلمُّوا إلى ربكم، فإن ما قلَّ و كفى خيرٌ مما كثُرَ و ألهى، و لا آبت شمسٌ قط إلا بُعِثَ بجنبتيْها مَلَكَانِ يُناديانِ، يُسْمِعَانِ أهلَ الأرضِ إلا الثَّقلينِ، أللهم أعطِ منفقًا خلفًا، و أعطِ ممسكًا مالًا تلفًا (صححه الألباني في السلسلة الصحيحة).

ومن ذلك أيضا ذهاب الشمس للسجود تحت العرش كل يوم عند غروبها كما صح ذلك عن النبي ﷺ أنه قال: حِينَ غَرَبَتِ الشَّمْسُ: أَتَدْرِي أَيْنَ تَذْهَبُ؟ قُلْتُ: اللَّهُ ورَسولُهُ أعْلَمُ، قالَ: فإنَّها تَذْهَبُ حتَّى تَسْجُدَ تَحْتَ العَرْشِ ، فَتَسْتَأْذِنَ، فيُؤْذَنُ لَهَا، ويُوشِكُ أنْ تَسْجُدَ، فلا يُقْبَلَ منها، وتَسْتَأْذِنَ فلا يُؤْذَنَ لَهَا، يُقَالُ لَهَا: ارْجِعِي مِن حَيْثُ جِئْتِ، فَتَطْلُعُ مِن مَغْرِبِهَا، فَذلكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: (وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ) [يس: 38] (صحيح البخاري). وكل هذا فيه أن الثقلين من الإنس والجن يحجب عنهم العديد من الأمور الغيبية.

ومن الأمور التي حجبت على الإنس والجن هي الروح فهي من العلم الذي لا يدركه لا الإنس ولا الجن ولا سائر الدواب الأخرى ولهذا فقد قال تعالى: وَيَسأَلونَكَ عَنِ الرّوحِ ۖ قُلِ الرّوحُ مِن أَمرِ رَبّي وَما أوتيتُم مِنَ العِلمِ إِلّا قَليلًا ﴿٨٥﴾الإسراء. ولكن يدركه من المخلوقات ملك الموت الموكل بالروح ولهذا قال تعالى: قُل يَتَوَفّاكُم مَلَكُ المَوتِ الَّذي وُكِّلَ بِكُم ثُمَّ إِلىٰ رَبِّكُم تُرجَعونَ ﴿١١﴾السجدة. وهذا فيه أن الملائكة يصلون إلى أرواح الجن والإنس وسائر ذوات الأرواح الأخرى فدل على قدرتهم للوصول إلى البعد الثالث والرابع وما فوقها من الأبعاد إلى ما شاء الله كل بحسب ما وكلهم الله به. ولهذا فإن للملائكة القدرة أيضا على الظهور في البعد الرابع البعد الخاص بالجن كما رأى إبليس دون غيره من الإنس الملائكة الذين جاؤوا مددا للمسلمين كما في قوله تعالى: وَإِذ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيطانُ أَعمالَهُم وَقالَ لا غالِبَ لَكُمُ اليَومَ مِنَ النّاسِ وَإِنّي جارٌ لَكُم ۖ فَلَمّا تَراءَتِ الفِئَتانِ نَكَصَ عَلىٰ عَقِبَيهِ وَقالَ إِنّي بَريءٌ مِنكُم إِنّي أَرىٰ ما لا تَرَونَ إِنّي أَخافُ اللَّهَ ۚ وَاللَّهُ شَديدُ العِقابِ ﴿٤٨﴾الأنفال. والملائكة لهم القدرة أيضا على التشكل في صور مختلفة في الأبعاد الثلاثة كما جاء ذلك في قوله تعالى عن جبريل عليه السلام: فَأَرسَلنا إِلَيها روحَنا فَتَمَثَّلَ لَها بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾مريم. ومن ذلك أيضا أن جبريل عليه السلام كان يأتي النبي ﷺ في صورة رجل كما صح ذلك عن عمر بن الخطاب أنه قال: بينما نحن عند

رسولِ اللهِ ذات يومٍ، إذ طلع علينا رجلٌ شديدُ بياضِ الثيابِ، شديدُ سوادِ الشعرِ، لا يُرى عليه أثرُ السفرِ ولا يعرفه منا أحدٌ، حتى جلس إلى رسولِ اللهِ، فأسند ركبتيه إلى ركبتيه، ووضع كفيه على فخِذيه، ثم قال : يا محمدُ أخبرني عن الإسلامِ؟ الحديث، إلى أن قال النبي ﷺ: يا عمرُ هل تدري من السائلُ قلتُ: اللهُ ورسولُه أعلمُ. قال: فإنه جبريلُ عليه السلام أتاكم ليعلمَكم أمرَ دينِكم (صحيح النسائي، صححه الألباني). وقد صح عن أبو هريرة وأبو ذر أنهم رأوا هذا الرجل أي جبريل عليه السلام في صورة الصحابي دحية بن خليفة الكلبي رضي الله عنه لحسن صورته. فسألوا النبي ﷺ عن ذلك فقال لهم: إنه لجبريلُ عليه السلامُ نزل في صورة دِحيةَ الكلبيِّ (صحيح النسائي، صححه الألباني). وكان جبريل يخاطب النبي من بعده فيكشف نفسه للنبي ﷺ فيراه ولا يراه غيره ومن ذلك ما صح عن عائشة أم المؤمنين أنَّ النبيَّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، قالَ لَهَا: يا عَائِشَةُ هذا جِبْرِيلُ يَقْرَأُ عَلَيْكِ السَّلَامَ، فَقالَتْ: وعليه السَّلَامُ ورَحْمَةُ اللَّهِ وبَرَكَاتُهُ، تَرَى ما لا أرَى، تُرِيدُ النبيَّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ (صحيح البخاري).

ومن الأمور الغيبية التي أذن الله لنبيه رؤيتها كالأمور الغيبية التي في الجنة من البعد المكاني

أنَّ النبيَّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، خَرَجَ يَوْمًا فَصَلَّى علَى أهْلِ أُحُدٍ صَلَاتَهُ علَى المَيِّتِ، ثُمَّ انْصَرَفَ إلى المِنْبَرِ فَقَالَ: إنِّي فَرَطُكُمْ، وأَنَا شَهِيدٌ عليْكُم، إنِّي واللَّهِ لَأَنْظُرُ إلى حَوْضِي الآنَ، وإنِّي قدْ أُعْطِيتُ خَزَائِنَ مَفَاتِيحِ الأرْضِ، وإنِّي واللَّهِ ما أخَافُ بَعْدِي أنْ تُشْرِكُوا، ولَكِنْ أخَافُ أنْ تَنَافَسُوا فِيهَا. الراوي : عقبة بن عامر | المحدث : البخاري | المصدر : صحيح البخاري الصفحة أو الرقم : 3596 | خلاصة حكم المحدث : [صحيح]

كالأمور الغيبية في المستقبل من البعد الزماني وفي الجنة من البعد المكاني كما جاء في المرأة التي كانت تلقُطُ القَذى منَ المسجِدِ فتوُفِّيَت، فقال النبي ﷺ فيها: إنِّي رأَيْتُها في الجنَّةِ (حسنه المنذري في الترغيب والترهيب، وذكر بمعناه الألباني في السلسلة الضعيفة). ومن ذلك أيضا أخبار النبي ﷺ برؤيته لبعض

المشركين في النار ومن ذلك قوله ﷺ: رَأَيْتُ عَمْرَو بنَ عامِرٍ الخُزاعِيَّ يَجُرُّ قُصْبَهُ في النَّارِ، وكانَ أوَّلَ مَن سَيَّبَ السُّيُوبَ (صحيح مسلم). ومن ذلك أن النبي

ومن المعلوم أن العلم الغيبي لا يمكن إدراكه بالكلية بالعلم السببي وإنما يدرك منه فقط ما أذن الله بمعرفته فأظهره وجعل أسبابه وعلامته واضحة ومنتظمة لكل عاقل لما في ذلك من مصالح دينية ودنيوية. فمثلا يتنبأ بالمطر من الغيم الأسود، وبالإنجاب من علامات الحمل، وبنهاية الشهر بمنازل القمر، وبطلوع الزرع بعد نزول المطر، وبطريق السير من سير النجم، وغير ذلك من الأسباب التي جعلها الله دلالات واضحة على ما ستئول إليه الأشياء والأحوال في المستقبل ولو على وجه التقريب. وهنا يأتي علم الحساب حيث به تحسب المقادير والأوزان والأحجام والأشكال والألوان والأصوات والحركات والأمكنة والأزمنة وغير ذلك من الأشياء التي تعرف بها الأسباب والقوانين التي جعلها سبحانه في هذا الكون. وتتفاوت هذه الأمور في إمكانية حسابها فمنها ما يستحيل حسابه كالساعة سواء الكبرى أو الصغيرى، ومنها ما يصعب حسابه كالمطر، ومنها ما يسهل ويعرف حسابه كأيام الشهر وساعات اليوم.

فكل هذه الأسباب مرجعها للعلم السببي ويدرك بها فقط جزء من العلم الغيبي الذي أذن الله به ومثال ذلك أن ذي القرنين بخبرته بأسباب الحديد علم أن مثال سده إلى الإنهيار لما علمه من تآكل الحديد كما في قوله تعالى: قالَ هٰذا رَحمَةٌ مِن رَبّي ۖ فَإِذا جاءَ وَعدُ رَبّي جَعَلَهُ دَكّاءَ ۖ وَكانَ وَعدُ رَبّي حَقًّا ﴿٩٨﴾الكهف. ومن ذلك أيضا علم التسيير الذي به يتنبأ بالمكان والزمان لمعرفة الطريق بإستخدام مواضع النجوم كما في قوله تعالى: وَهُوَ الَّذي جَعَلَ لَكُمُ النُّجومَ لِتَهتَدوا بِها في ظُلُماتِ البَرِّ وَالبَحرِ ۗ قَد فَصَّلنَا الآياتِ لِقَومٍ يَعلَمونَ ﴿٩٧﴾الأنعام. وقد فسر السعدي ذلك أن الله جعل النجوم هداية للخلق إلى السبل، التي يحتاجون إلى سلوكها لمصالحهم، وتجاراتهم، وأسفارهم. منها: نجوم لا تزال

ترى، ولا تسير عن محلها، ومنها: ما هو مستمر السير، يعرف سيرَه أهل المعرفة بذلك، ويعرفون به الجهات والأوقات. ودلت هذه الآية ونحوها، على مشروعية تعلم سير الكواكب ومحالّها الذي يسمى علم التسيير، فإنه لا تتم الهداية ولا تمكن إلا بذلك [1]. وكل هذا فيه الدلالة الواضحة على قدرة الله جل جلاله وعظيم سلطانه، ولهذا فقد بين جل جلاله عظم مواقع النجوم فقال تعالى: فَلا أُقسِمُ بِمَواقِعِ النُّجومِ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَو تَعلَمونَ عَظيمٌ ﴿٧٦﴾الواقعة. وقد جاء في تفسير الطبري عن قتادة ومجاهد أن مواقع النجوم هي منازلها ومساقطها، ولقد أوَّل ذلك ابن عباس وعكرمة ومجاهد أن مواقع النجوم هي آيات القرآن نزلت متفرقة.[16]

ولهذا فإن التنبأ بالمستقبل بالحساب لا يكون دائما صحيحا أو دقيقا وبالأخص في الأمور التي يصعب حسابها، فأمر الله الواقع قد يحجب عن خلقه لحكمته ومثال ذلك قوم هود إذ ظنوا أن الغيم الأسود علامة للمطر كما هو معتاد ولكنه كان عذاب الله كما في قوله تعالى: فَلَمّا رَأَوهُ عارِضًا مُستَقبِلَ أَودِيَتِهِم قالوا هٰذا عارِضٌ مُمطِرُنا ۚ بَل هُوَ مَا استَعجَلتُم بِهِ ۖ ريحٌ فيها عَذابٌ أَليمٌ ﴿٢٤﴾ تُدَمِّرُ كُلَّ شَيءٍ بِأَمرِ رَبِّها فَأَصبَحوا لا يُرىٰ إِلّا مَساكِنُهُم ۚ كَذٰلِكَ نَجزِي القَومَ المُجرِمينَ ﴿٢٥﴾الأحقاف. لهذا فإن الوقائع المستقبلية يختلف حسابها بحسب ما أذن الله بعرفته ومعرفة أسبابه ومقاديره، فالتي لا تخضع لنمط معين ومعروف لا يمكن التنبأ بها إلا على وجه التقريب. وتزداد دقة الحساب مع الزيادة في معرفة هذه الأسباب والمقادير والتي تتأتى بالبحث والتجربة والقياس والملاحظة وكل ذلك ممكن بالرجوع لآيات الله الكونية التي منها يتعلم الحساب.

ومن فضل الله ومنه أنه اختص بهذا العلم الغيبي من شاء من أنبياءه ورسله كل حسب حاله

[16]ولقد رجح الطبري القول الأول وهو أن مواقع النجوم هي منازلها ومساقطها في السماء، وهذا بخلاف القول الثاني أن مواقع النجوم هو نزول آيات القرآن متفرقة، وإن كان القولات لا يتعارضان بالضرورة.

ومقامه. ومن ذلك ما فتح الله به على الخضر عليه السلام حيث علم من الأمور الغيبية ما لم يعلمه موسى عليه السلام. فكان الخضر عليه السلام أعلم من موسى في العلم الغيبي وكان موسى عليه السلام أعلم من الخضر في العلم الديني، وكل منهما كان نبيا ويأتيه الوحي من الله جل جلاله ولكن تفاوتوا في نوع العلم والفضل فموسى عليه السلام من أولى العزم من الرسل وكلم الله موسى تكليما، فكل بحسب مقامه وما فضله الله به كما في قوله تعالى: تِلكَ الرُّسُلُ فَضَّلنا بَعضَهُم عَلىٰ بَعضٍ مِنهُم مَن كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعضَهُم دَرَجاتٍ وَآتَينا عيسَى ابنَ مَريَمَ البَيِّناتِ وَأَيَّدناهُ بِروحِ القُدُسِ البقرة.

وقد جاء في تفسيير بن كثير عن بن عباس أن النبي ﷺ قال أن موسى قال للخضر: جئتك لتعلمني مما علمت رشدا. قال: يكفيك التوراة بيدك، وأن الوحي يأتيك. يا موسى، إن لي علما لا ينبغي لك أن تعلمه، وإن لك علما لا ينبغي لي أن أعلمه.[17] وقال بن عباس رضي الله عنه عن الخضر عليه السلام أنه كان رجلا يعلم علم الغيب قد علم ذلك - فقال موسى: بلى. قال: (وكيف تصبر على ما لم تحط به خبرا)؟أي: إنما تعرف ظاهر ما ترى من العدل، ولم تحط من علم الغيب بما أعلم [هـ]. وجاء أيضا ما يأكد هذا المعنى في تفسير القرطبي: وعلمناه من لدنا علما أي علم الغيب، وقال ابن عطية: كان علم الخضر علم معرفة بواطن قد أوحيت إليه، لا تعطي ظواهر الأحكام أفعاله بحسبها;وكان علم موسى علم الأحكام والفتيا بظاهر أقوال الناس وأفعالهم [هـ]. وبينما الخضر وموسى عليهم السلام على السفينة، جَاءَ عُصْفُورٌ، فَوَقَعَ علَى حَرْفِ السَّفِينَةِ، فَنَقَرَ في البَحْرِ نَقْرَةً، فَقالَ له الخَضِرُ: ما عِلْمِي وعِلْمُكَ مِن عِلْمِ اللَّهِ إلَّا مِثْلُ ما نَقَصَ هذا العُصْفُورُ مِن هذا البَحْرِ (صحيح البخاري).[18]

[17]وهذا فيه أن الخضر لديه من العلم الغيبي الذي لا يعلمه موسى وأن موسى لديه من العلم الديني الذي لا يعلمه الخضر.

[18]وهذا فيه أن الإنسان لم يؤتى من العلم إلا قليلا كما تقدم في معنى قوله تعالى: وَيَسأَلونَكَ عَنِ الرّوحِ ۖ قُلِ الرّوحُ مِن أَمرِ رَبّي وَما أوتيتُم مِنَ العِلمِ إِلّا قَليلًا ﴿٨٥﴾الإسراء.

وكل هذا فيه أن الخضر علم ما ستؤول إليه الأمور بما علَّمه الله له من علم الغيب فعلم بذلك أن السفينة لو لم تعاب لأخذها الملك غصبا من المساكين، وأن الغلام لو لم يقتل فسوف يرهق أبواه المؤمنين طغيانا وكفرا، وأن الجدار لو لم يقام لسقط ولسرق كنز الغلامين اليتيمين أبناء الرجل الصالح. وما تصرف الخضر في هذه الأمور إلا لعلمه أن جميع هذه الأمور سيقع في علم الغيب كما أوحى الله إليه ذلك. ولكن من رحمة الله ومنه فقد أذن للخضر أن يصلح ذلك ولهذا فقد قال: وَما فَعَلتُهُ عَن أَمري ذٰلِكَ تَأويلُ ما لَم تَسطِع عَلَيهِ صَبرًا ﴿٨٢﴾الكهف. وبهذا يتبين أن الخضر إنما أوتي هذا العلم العظيم لمصلحة الناس وليس للإضرار بهم أي للإصلاح الدنيوي وهذا فيه بيان الرشد والذي به تجلب المصالح الدينية والدنيوية معا. وهذا ما أراد موسى تعلمه لهذا: قالَ لَهُ موسىٰ هَل أَتَّبِعُكَ عَلىٰ أَن تُعَلِّمَنِ مِمّا عُلِّمتَ رُشدًا ﴿٦٦﴾الكهف. وهذا فيه أن المصالح الدنيوية لا تجلب فقط بالعلم الديني الذي به يكون الإصلاح الديني بل إن ذلك يتطلب العلم الذي به يكون الإصلاح الدنيوي ولهذا فقد قال الخضر عليه السلام: قالَ إِنَّكَ لَن تَستَطيعَ مَعِيَ صَبرًا ﴿٦٧﴾ وَكَيفَ تَصبِرُ عَلىٰ ما لَم تُحِط بِهِ خُبرًا ﴿٦٨﴾الكهف. وهذا فيه أن الخضر عليه السلام اختص بالإصلاح الدنيوي مع ما كان لديه من الإصلاح الديني بينما موسى عليه السلام اختص بالإصلاح الديني فقط. وفيه أيضا أنه بالعلم والخبرة تجلب المصالح الدنيوية وبالعلم الديني تجلب المصالح الدينية وسيأتي تفصييل ذلك في فصل الحكم الرشيد بإذن الله. وفي هذه القصة بيان تدبير الله جل جلاله فإنه يعلم سبحانه ما كان وما سيكون وما لم يكن لو كان كيف يكون فسبحان الله الذي وسع كل شيء وأحاط به علما.

2.11 أقسام الميزان الشرعي

2.11.1 الميزان الفطري

فالميزان الفطري أو العلم الفطري فهو الذي يدرك بالفطرة السليمة الموافقة للعقل والتي فطر الله الناس عليها فيعرف به الخير من الشر والعدل من الظلم والإسلام من الكفر وغير ذلك من الأمور التي فطر الله الناس عليها والدليل على هذا أن النبيُّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قال: ما مِن مَوْلُودٍ إلَّا يُولَدُ علَى الفِطْرَةِ، فأبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ أوْ يُنَصِّرَانِهِ، أوْ يُمَجِّسَانِهِ، كما تُنْتَجُ البَهِيمَةُ بَهِيمَةً جَمْعَاءَ، هلْ تُحِسُّونَ فِيهَا مِن جَدْعَاءَ، ثُمَّ يقولُ أبو هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عنْه: (فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا) [الروم: 30] الآيَةَ (صحيح البخاري). ومن الأمور التي تخالف الميزان الفطري مثل الشرك (وبالأخص شرك الربوبية) والمجاهرة بالمعاصي والقتل واللواط والسرقة والغش في الكيل فهي أمور تدرك بالفطرة السليمة الموافقة للعقل ويمكن إثباتها لكل ذي عقل حتى بدون وحي. ومن ذلك أن أغلب الأمم مسلمة كانت أو كافرة اتفقت على فرض عقوبات على السرقة والغش على سبيل المثال لموافقة ذلك للفطرة السليمة.

ولهذا فإن مخالفة الميزان الفطري هي أشد جرما من مخالفة الميزان الديني لأنها تعارض فطرة الله التي فطر الناس عليها والتي يمكن إدراكها حتى بدون وحي. ويعتبر الميزان الفطري أدنى مراتب العدل وفي معارضة هذا الميزان تعجيل سخط الله وعقوبته في الدنيا قبل الآخرة. والميزان الفطري ناقص وهو أدنى مرتبة من الميزان الديني حيث لا يمكن به إدراك العديد من الأمور الشرعية التي يحتاج إلى الوحي لإدراكها ومنها العقيدة والعبادات والأحكام الشرعية وغيرها من الأمور التي لا يمكن إدراكها بالفطرة السليمة فقط. ولهذا فقد أرسل الله جل جلاله الرسل وأنزل الكتب لبيان الميزان الديني والذي به يكتمل بيان الميزان الشرعي الذي أمر الله عباده به.

والميزان الفطري فيه الحجة لإدراك دين الإسلام لموافقته الفطرة كما سيأتي في بيان الميزان الديني. فقد جاء في الحديث القدسي عنِ اللهِ تعالى: إني خلقتُ عبادي حنفاءَ فاجتالتْهم الشياطينُ فحرَّمتْ عليهم ما أحللتُ لهم وأمرتهم أن يشركوا بي ما لم أُنزِّل به سلطانًا (صحيح، مجموع الفتاوى لابن تيمية). ولهذا فإن الشياطين لا تسعى لإفساد الميزان الديني فقط وأنما تسعى لإفساد الميزان الفطري والديني معا كما في قوله تعالى عن ابليس: وَلَأُضِلَّنَّهُم وَلَأُمَنِّيَنَّهُم وَلَآمُرَنَّهُم فَلَيُبَتِّكُنَّ آذانَ الأَنعامِ وَلَآمُرَنَّهُم فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلقَ اللَّهِ ۚ وَمَن يَتَّخِذِ الشَّيطانَ وَلِيًّا مِن دونِ اللَّهِ فَقَد خَسِرَ خُسرانًا مُبينًا ﴿١١٩﴾النساء. وقد جاء بيان ذلك في تفسير السعدي أن الله تعالى خلق عباده حنفاء مفطورين على قبول الحق وإيثاره، فجاءتهم الشياطين فاجتالتهم عن هذا الخلق الجميل، وزينت لهم الشر والشرك والكفر والفسوق والعصيان. فإن كل مولود يولد على الفطرة ولكن أبواه يهوِّدانه أو ينصِّرانه أو يمجِّسانه، ونحو ذلك مما يغيرون به ما فطر الله عليه العباد من توحيده وحبه ومعرفته. فافترستهم الشياطين في هذا الموضع افتراس السبع والذئاب للغنم المنفردة، فخسروا الدنيا والآخرة، ورجعوا بالخيبة والصفقة الخاسرة. ولولا لطف الله وكرمه بعباده المخلصين لجرى عليهم ما جرى على هؤلاء المفتونين [1].

وقد جاء في تفسير ابن كثير أن ابن عباس قال: أتى علي زمان وأنا أقول: أولاد المسلمين مع أولاد المسلمين، وأولاد المشركين مع المشركين. حتى حدثني فلان عن فلان: أن رسول الله ﷺ سئل عنهم فقال: "الله أعلم بما كانوا عاملين". فأمسكت عن قولي [هـ]. وهذا فيه أن ابن عباس امسك عن قوله بفصل أولاد المسلمين عن أولاد المشركين في اللعب عندما علم قول الرسول ﷺ أن أولاد المشركين أيضا على الفطرة السمحة التي فطر الله الناس عليها. وهذا ما يوافق باقي الأحاديث والآيات كما تقدم.

وجاء أيضا في تفسير ابن كثير عن الفطرة أنه لا يولد أحد إلا على ذلك، ولا تفاوت بين الناس

في ذلك [هـ]. وبهذا يعلم أن المكلفين قد تساوا في الميزان الفطري عند نشأتهم وهذا من عدل الله إذ أعطاهم سبحانه الفطرة السليمة الموافقة للعقل حتى يدركوا بذلك الميزان الديني. ولكن هذه الفطرة قد تفسد فيضل صاحبها عند البلوغ فإن شاء الله هداه وإن شاء أزاغه وكل ذلك بهداية الله الكونية. ونقل هذا المعنى القرطبي في تفسيره عن شيخه أبو العباس قوله: قال شيخنا في عبارته: إن الله تعالى خلق قلوب بني آدم مؤهلة لقبول الحق، كما خلق أعينهم وأسماعهم قابلة للمرئيات والمسموعات، فما دامت باقية على ذلك القبول وعلى تلك الأهلية أدركت الحق ودين الإسلام وهو الدين الحق. وقد دل على صحة هذا المعنى قوله: كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء يعني أن البهيمة تلد ولدها كامل الخلقة سليما من الآفات، فلو ترك على أصل تلك الخلقة لبقي كاملا بريئا من العيوب، لكن يتصرف فيه فيجدع أذنه ويوسم وجهه، فتطرأ عليه الآفات والنقائص فيخرج عن الأصل;وكذلك الإنسان، وهو تشبيه واقع ووجهه واضح [هـ]. فرحم الله علماء قرطبة من الأندلس الأسبانية الذين بينوا هذا المعنى العظيم.

2.11.2 الميزان الديني

وأما القسم الثاني من الميزان الشرعي فهو الميزان الديني أو العلم الديني وهو موافق للميزان الفطري ومكمل له. ويدرك العلم الديني بالوحي بالمنزل من عند الله تبارك وتعالى على الأنبياء والمرسلين عليهم الصلاة والسلام. ولهذا فقد أثبت سبحانه موافقة دينه للفطرة التي فطر الناس عليها في قوله تعالى: فَأَقِم وَجهَكَ لِلدّينِ حَنيفًا ۚ فِطرَتَ اللَّهِ الَّتي فَطَرَ النّاسَ عَلَيها ۚ لا تَبديلَ لِخَلقِ اللَّهِ ۚ ذٰلِكَ الدّينُ القَيِّمُ وَلٰكِنَّ أَكثَرَ النّاسِ لا يَعلَمونَ ﴿٣٠﴾الروم. وهذه فيه أن الميزان الديني الذي أنزله الله كان ولا يزال موافقا للفطرة ومكملا لها وهو دين الإسلام الذي أرسلت به كل الرسل والأنبياء عليهم الصلاة

والسلام من آدم عليه السلام إلى محمد ﷺ.

ومن الأمور التي تخالف الميزان الديني مثل الشرك (وبالأخص شرك الألوهية)، ومنع الزكاة، والحكم بغيير ما أنزل الله كتحريم ما أحل الله أو تحليل ما حرم الله وغير ذلك من الأمور التي تخالف أمر الله ورسوله والتي يمكن إدراكها بالوحي المنزل وبالحجة الواضحة والبينة إستنادا إلى جاء في كتاب الله عز وجل، أو صح في سنه نبيه الكريم، أو ثبت عن سبيل المؤمنين من السلف الصالحين.

ولهذا فقد أمر الله عز وجل جميع الأنبياء لدعوة المشركين لعبادة الله وحده لا شريك له (أي إلى توحيد الألوهية) وإقامة الحجة عليهم بالميزان الفطري أي بإيمانهم بأن الله هو من خلقهم وخلق السموات والأرض وهو مدبر الكون (أي بإيمانهم بتوحيد الربوبية) كما في قوله تعالى: وَلَئِن سَأَلتَهُم مَن خَلَقَ السَّماواتِ وَالأَرضَ لَيَقولُنَّ اللَّهُ ۚ قُل أَفَرَأَيتُم ما تَدعونَ مِن دونِ اللَّهِ إِن أَرادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَل هُنَّ كاشِفاتُ ضُرِّهِ أَو أَرادَني بِرَحمَةٍ هَل هُنَّ مُمسِكاتُ رَحمَتِهِ ۚ قُل حَسبِيَ اللَّهُ ۖ عَلَيهِ يَتَوَكَّلُ المُتَوَكِّلونَ ﴿٣٨﴾ الزمر. وفي قوله تعالى: وَلَئِن سَأَلتَهُم مَن خَلَقَهُم لَيَقولُنَّ اللَّهُ ۖ فَأَنّىٰ يُؤفَكونَ ﴿٨٧﴾ الزخرف. فوصف الله جل جلاله هؤلاء بأن أكثرهم لا يعقلون في قوله: وَلَئِن سَأَلتَهُم مَن نَزَّلَ مِنَ السَّماءِ ماءً فَأَحيا بِهِ الأَرضَ مِن بَعدِ مَوتِها لَيَقولُنَّ اللَّهُ ۚ قُلِ الحَمدُ لِلَّهِ ۚ بَل أَكثَرُهُم لا يَعقِلونَ ﴿٦٣﴾ العنكبوت. ووصفهم جل جلاله أيضا بأنهم لا يعلمون في قوله: وَلَئِن سَأَلتَهُم مَن خَلَقَ السَّماواتِ وَالأَرضَ لَيَقولُنَّ اللَّهُ ۚ قُلِ الحَمدُ لِلَّهِ ۚ بَل أَكثَرُهُم لا يَعلَمونَ ﴿٢٥﴾ لقمان. ؛ أولا لا يعقلون لمخالفتهم الميزان الفطري الموافق للعقل وثانيا لا يعلمون لمخالفتهم الميزان الديني وهو أمر الله المنزل من عنده.

ولهذا فقد بين ذلك إبراهيم عليه السلام لأبيه آزر كما في قوله تعالى: إِذ قالَ لِأَبيهِ يا أَبَتِ لِمَ تَعبُدُ ما لا يَسمَعُ وَلا يُبصِرُ وَلا يُغني عَنكَ شَيئًا ﴿٤٢﴾ يا أَبَتِ إِنّي قَد جاءَني مِنَ العِلمِ ما لَم يَأتِكَ فَاتَّبِعني أَهدِكَ صِراطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾ يا أَبَتِ لا تَعبُدِ الشَّيطانَ ۖ إِنَّ الشَّيطانَ كانَ لِلرَّحمـٰنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾ يا

أَبَتِ إِنِّي أَخافُ أَن يَمَسَّكَ عَذابٌ مِنَ الرَّحمٰنِ فَتَكونَ لِلشَّيطانِ وَلِيًّا ﴿٤٥﴾ مريم. فحاجه أولا بالميزان الفطري الذي يقام بالحجة العقلية على بطلان عبادة ما لا يسمع ولا يبصر ولا ينفع ولا يضر، وحاجه ثانيا بالميزان الديني الذي يقام بالعلم الديني الصحيح المنزل من الله تبارك وتعالى وهو الوحي الموافق للفطرة والمكمل لها. وبين له الحكم الجزائي للشرك الموجب لعذاب الله فأقام عليه بذلك الحجة الكاملة والواضحة.

والعلم الديني هو ما قام عليه الدليل من كتاب الله أو سنة نبيه ﷺ وهو الحق وهو الهدى الذي يهدي إلى الطريق المستقيم الذي يرضي الله جل جلاله ولهذا فقد قال النبي ﷺ: تركتُ فيكم أمرينِ؛ لن تَضلُّوا ما إن تمسَّكتُم بهما: كتابَ اللَّهِ وسُنَّتي، ولن يتفرَّقا حتَّى يرِدا عليَّ الحوضَ (صحيح الترغيب). وقد ضرب النبي ﷺ مثلا عن نفسه في بيان العلم الديني الذي جاء به فقال: مَثَلُ ما بَعَثَنِي اللَّهُ به مِنَ الهُدَى والعِلْمِ، كَمَثَلِ الغَيْثِ الكَثِيرِ أصابَ أرْضًا، فكانَ مِنْها نَقِيَّةٌ، قَبِلَتِ الماءَ، فأنْبَتَتِ الكَلَأَ والعُشْبَ الكَثِيرَ، وكانَتْ مِنْها أجادِبُ، أمْسَكَتِ الماءَ، فَنَفَعَ اللَّهُ بها النَّاسَ، فَشَرِبُوا وسَقَوْا وزَرَعُوا، وأَصابَتْ مِنْها طائِفَةً أُخْرَى، إنَّما هي قِيعانٌ لا تُمْسِكُ ماءً ولا تُنْبِتُ كَلَأً، فَذلكَ مَثَلُ مَن فَقُهَ في دِينِ اللَّهِ، ونَفَعَهُ ما بَعَثَنِي اللَّهُ به فَعَلِمَ وعَلَّمَ، ومَثَلُ مَن لَمْ يَرْفَعْ بذلكَ رَأْسًا، ولَمْ يَقْبَلْ هُدَى اللَّهِ الذي أُرْسِلْتُ بِهِ (صحيح البخاري).

وخير هذا العلم هو القرآن كتاب الله فقد قال النبي ﷺ: إنَّ أفْضَلَكُمْ مَن تَعَلَّمَ القُرْآنَ وعَلَّمَهُ (صحيح البخاري). وقد كان ﷺ يعلم أصحابه القرآن ويدعوا لهم فعن عبد الله بن عباس قال: ضَمَّنِي إلَيْهِ النبيُّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وقالَ: اللَّهُمَّ عَلِّمْهُ الكِتابَ، وفي رواية: اللَّهُمَّ عَلِّمْهُ الحِكْمَةَ (صحيح البخاري). وقد كان النبي ﷺ يرغب أصحابه في حفظ كتاب الله عز وجل فقال: لا حَسَدَ إلَّا في اثْنَتَيْنِ: رَجُلٌ عَلَّمَهُ اللَّهُ القُرْآنَ، فَهو يَتْلُوهُ آناءَ اللَّيْلِ، وآناءَ النَّهارِ، فَسَمِعَهُ جارٌ له، فقالَ: لَيْتَنِي أُوتِيتُ مِثْلَ ما أُوتِيَ فُلانٌ،

فَعَمِلْتُ مِثْلَ ما يَعْمَلُ، ورَجُلٌ آتاهُ اللَّهُ مالًا فَهو يُهْلِكُهُ في الحَقِّ، فقالَ رَجُلٌ: لَيْتَنِي أُوتِيتُ مِثْلَ ما أُوتِيَ فُلانٌ، فَعَمِلْتُ مِثْلَ ما يَعْمَلُ (صحيح البخاري).

ولقد كلف سبحانه عباده بالإجتهاد بهذا العلم مع العمل يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنوا كونوا قَوّامينَ بِالقِسطِ شُهَداءَ لِلَّهِالنساء يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنوا كونوا قَوّامينَ لِلَّهِ شُهَداءَ بِالقِسطِالمائدة وعدم التقلبد فيه وحجة لك أو عليك فقال جل جلال: وَقالوا رَبَّنا إِنّا أَطَعنا سادَتَنا وَكُبَراءَنا فَأَضَلّونَا السَّبيلا ﴿٦٧﴾الأحزاب

والعلم الديني نافع وحجة لصاحبه مع العمل الموافق لأمر الله الشرعي، وغير نافع وحجة على صاحبه مع العمل المخالف لأمر الله الشرعي. ومن أعظم العمل المخالف لأمر الله للرياء كما جاء عن النبي ﷺ أنه قال لأبي هريرة: أولئكَ الثلاثةُ أولُ خلقِ اللهِ تُسعَّرُ بهمُ النارُ يومَ القيامةِ. وقال ابنُ رَجَب: (أوَّلُ من تُسَعَّرُ به النَّارُ مِن الموحِّدينَ العُبَّادُ المُراؤون بأعمالِهم، أوَّلُهم العالِمُ والمجاهِدُ والمتصَدِّقُ للرِّياءِ؛ لأنَّ يَسيرَ الرِّياءِ شِركٌ) (كلمة الإخلاص). وقال ابن القيم: إنَّ النَّارَ أوَّلُ ما تسعَّرُ بالعالِمِ والمنفِقِ والمقتولِ في الجِهادِ إذا فعلوا ذلِكَ ليقال (زاد المعاد). يقول الشيخ العثيمين رحمه الله في ذلك: لا بُدَّ مِن العَملِ بالعِلمِ؛ لأنَّ ثمرةَ العِلمِ العَملُ؛ لأنَّه إذا لم يعمَلْ بعِلمِه صار مِن أوَّلِ مَن تُسعَّرُ بهم النَّارُ يومَ القيامةِ، وقد قيل: وعالِمٌ بعِلمِه لم يعمَلَنْ مُعذَّبٌ مِن قَبْلِ عُبَّادِ الوَثَنِ، فإذا لم يعمَلْ بعِلمِه أُورِث الفَشلَ في العِلمِ وعَدمَ البركةِ ونِسيانَ العِلمِ؛ لقولِ اللهِ تعالى: فَبِما نَقضِهِم ميثاقَهُم لَعَنّاهُم وَجَعَلنا قُلوبَهُم قاسِيَةً ۖ يُحَرِّفونَ الكَلِمَ عَن مَواضِعِهِ ۙ وَنَسوا حَظًّا مِمّا ذُكِّروا بِهِ ۚ وَلا تَزالُ تَطَّلِعُ عَلىٰ خائِنَةٍ مِنهُم إِلّا قَليلًا مِنهُم ۖ فَاعفُ عَنهُم وَاصفَح ۚ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ المُحسِنينَ ﴿١٣﴾الرعد [هـ].

والناس يتفاوتون في هذا العلم الشرعي، وحتى الصحابة رضوان الله عليهم وما ذكره القرطبي في تفسير قوله تعالى: فَمَكَثَ غَيرَ بَعيدٍ فَقالَ أَحَطتُ بِما لَم تُحِط بِهِ وَجِئتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقينٍ ﴿٢٢﴾النمل حيث قال: أي علمت ما لم تعلمه من الأمر فكان في هذا رد على من قال : إن الأنبياء تعلم الغيب

[٠] وفي الآية دليل على أن الصغير يقول للكبير والمتعلم للعالم: عندي ما ليس عندك، إذا تحقق ذلك وتيقنه. هذا عمر بن الخطاب رضي الله عنه مع علمه لم يكن عنده علم بالاستئذان. وكان علم التيمم عند عمار وغيره ، وغاب عن عمر وابن مسعود حتى قالا: لا يتيمم الجنب. وكان حكم الإذن في أن تنفر الحائض عند ابن عباس ولم يعلمه عمر ولا زيد بن ثابت. وكان غسل رأس المحرم معلوما عند ابن عباس وخفي عن المسور بن مخرمة . ومثله كثير فلا يطول به.

والعلم الديني هو العلم الذي يرفع قبل قيام الساعة كما ثبت عن عبد الله بن مسعود وأبو موسى الأشرعي أن النبي ﷺ قال: إِنَّ بيْنَ يَدَيِ السَّاعَةِ أيَّامًا، يُرْفَعُ فيها العِلْمُ، ويَنْزِلُ فيها الجَهْلُ، ويكْثُرُ فيها الهَرْجُ والهَرْجُ: القَتْلُ (صحيح البخاري). وفي حديث آخر عن أنس بن مالك أن النبي ﷺ قال: إنَّ مِن أشْراطِ السَّاعَةِ: أنْ يُرْفَعَ العِلْمُ ويَثْبُتَ الجَهْلُ، ويُشْرَبَ الخَمْرُ، ويَظْهَرَ الزِّنا (صحيح البخاري). وعن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حتَّى يُقْبَضَ العِلْمُ، وتَكْثُرَ الزَّلَازِلُ، ويَتَقَارَبَ الزَّمَانُ، وتَظْهَرَ الفِتَنُ، ويَكْثُرَ الهَرْجُ - وهو القَتْلُ القَتْلُ - حتَّى يَكْثُرَ فِيكُمُ المَالُ فَيَفِيضَ (صحيح البخاري). وعن أنس بن مالك أن النبي ﷺ قال: لَا تَقُومُ السَّاعَةُ وإمَّا قالَ: مِن أَشْرَاطِ السَّاعَةِ، أَنْ يُرْفَعَ العِلْمُ، وَيَظْهَرَ الجَهْلُ، وَيُشْرَبَ الخَمْرُ، وَيَظْهَرَ الزِّنَا، وَيَقِلَّ الرِّجَالُ، وَيَكْثُرَ النِّسَاءُ حتَّى يَكونَ لِلْخَمْسِينَ امْرَأَةً القَيِّمُ الوَاحِدُ (صحيح البخاري). وعن عبدالله بن عمرو أن النبي ﷺ قال: إنَّ اللَّهَ لا يَقْبِضُ العِلْمَ انْتِزَاعًا يَنْتَزِعُهُ مِنَ العِبَادِ، ولَكِنْ يَقْبِضُ العِلْمَ بقَبْضِ العُلَمَاءِ، حتَّى إذَا لَمْ يُبْقِ عَالِمًا اتَّخَذَ النَّاسُ رُؤُوسًا جُهَّالًا، فَسُئِلُوا فأَفْتَوْا بغيرِ عِلْمٍ، فَضَلُّوا وأَضَلُّوا (صحيح البخاري). وهذا فيه أن العلم الذي يرفع إنما هو العلم الديني وليس العلم السببي.

2.12 الغاية من إرسال الرسل وإنزال الكتب

أرسل الله عز وجل رسله بالكتاب أولا لبيان الحق وهو العلم الشرعي الصحيح ومن ثم لإقامة الميزان الشرعي بالقسط والعدل بين الناس حيث يقول جل جلاله: لَقَد أَرسَلنا رُسُلَنا بِالبَيِّناتِ وَأَنزَلنا مَعَهُمُ الكِتابَ وَالميزانَ لِيَقومَ النّاسُ بِالقِسطِ ۖ وَأَنزَلنَا الحَدِيدَ فيهِ بَأسٌ شَديدٌ وَمَنافِعُ لِلنّاسِ وَلِيَعلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالغَيبِ ۚ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزيزٌ ﴿٢٥﴾الحديد. فالكتاب هو الحق كما في قوله تعالى: وَإِنَّ الَّذينَ أوتُوا الكِتابَ لَيَعلَمونَ أَنَّهُ الحَقُّ مِن رَبِّهِم وَمَا اللَّهُ بِغافِلٍ عَمّا يَعمَلونَ ﴿١٤٤﴾البقرة. والقسط في الكيل والوزن والعدل بين الناس من إقامة الميزان الشرعي وهو من الأمور التي أوصى الله تعالى بها. وقد دلنا سبحانه في هذه الآية على الحديد والأخذ به لنصرة الله جل جلاله ورسله ونصرة الحق الذي جاءوا به.

وقد جاء في تفسير الطبري: عن قتادة (الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ) قال: الميزان: العدل [.] وقال ابن زيد، في قوله: (وَأَنزلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ) بالحق، قال: الميزان: ما يعمل الناس، ويتعاطون عليه في الدنيا من معايشهم التي يأخذون ويعطون، يأخذون بميزان، ويعطون بميزان، يعرف ما يأخذ وما يعطي. قال: والكتاب فيه دين الناس الذي يعملون ويتركون، فالكتاب للآخرة، والميزان للدنيا. وقوله: (لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ) يقول تعالى ذكره: ليعمل الناس بينهم بالعدل. وقوله: (وَأَنزلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ) يقول تعالى ذكره: وأنزلنا لهم الحديد فيه بأس شديد، يقول: فيه قوّة شديدة، ومنافع للناس، وذلك ما ينتفعون به منه عند لقائهم العدوّ، وغير ذلك من منافعه [.] وقوله: (وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ) يقول تعالى ذكره: أرسلنا رسلنا إلى خلقنا وأنزلنا معهم هذه الأشياء ليعدلوا بينهم، وليعلم حزب الله من ينصر دين الله ورسله بالغيب [هـ].

وجاء في تفسير ابن كثير: (وأنزلنا معهم الكتاب) وهو: النقل المصدق (والميزان) وهو: العدل قاله مجاهد، وقتادة، وغيرهما. وهو الحق الذي تشهد به العقول الصحيحة المستقيمة المخالفة للآراء السقيمة [.] ولهذا قال في هذه الآية: (ليقوم الناس بالقسط) أي: بالحق والعدل وهو: اتباع الرسل فيما أخبروا به، وطاعتهم فيما أمروا به، فإن الذي جاءوا به هو الحق الذي ليس وراءه حق، كما قال: (وتمت كلمة ربك صدقا وعدلا) [الأنعام: 115] أي: صدقا في الإخبار، وعدلا في الأوامر والنواهي ولهذا يقول المؤمنون إذا تبوءوا غرف الجنات، والمنازل العاليات، والسرر المصفوفات: (الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله لقد جاءت رسل ربنا بالحق) [الأعراف: 43]. وقوله: (وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد) أي: وجعلنا الحديد رادعا لمن أبى الحق وعانده بعد قيام الحجة عليه [.] ولهذا قال تعالى: (فيه بأس شديد) يعني: السلاح كالسيوف، والحراب، والسنان، والنصال، والدروع، ونحوها (ومنافع للناس) أي: في معايشهم كالسكة، والفأس، والقدوم، والمنشار، والإزميل، والمجرفة، والآلات التي يستعان بها في الحراثة، والحياكة، والطبخ، والخبز، وما لا قوام للناس بدونه، وغير ذلك. [.] وقوله: (وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب) أي: من نيته في حمل السلاح نصرة الله ورسله، (إن الله قوي عزيز) أي: هو قوي عزيز، ينصر من نصره من غير احتياج منه إلى الناس، وإنما شرع الجهاد ليبلو بعضكم ببعض [هـ].

وفي هذا دليل على أن نصرة الله ورسله تكون بثلاثة أمور وهي: (1) إقامة الحق في نفوس الناس بالعلم الشرعي الصحيح، (2) إقامة الميزان الشرعي بين الناس بالعدل والقسط، (3) الأخذ بأسباب القوى كالحديد وما يلزم ذلك من علوم كالحساب والطب والفيزياء وغيرها من العلوم السببية التي تكمن المسلمين من دحر الأعداء ونشر الحق ونصرته. وهذه الأمور الثلاثة هي أركان الحكم الرشيد التي بها يكون التمكين كما سيأتي بيان ذلك في فصل الحكم الرشيد.

فالله جل جلاله أنزل كتابه لتحقيق هذه الغاية العظيمة وهي إقامة الحق والميزان الشرعي كما بين ذلك في قوله تعالى: اللَّهُ الَّذي أَنزَلَ الكِتابَ بِالحَقِّ وَالميزانَ ۗ وَما يُدريكَ لَعَلَّ السّاعَةَ قَريبٌ ﴿١٧﴾الشورى. فذكر الله الميزان إلحاقا بالحق لان الحق لا يكون إلا بالعلم الشرعي الصحيح وهو يقتضي الميزان الشرعي الذي لا يكون إلا بالعمل الصحيح الموافق للحق ومنه العدل والقسط كما أمر تعالى ومن ذلك بلا شك الحساب الصحيح. فإقامة الميزان الشرعي من الوصايا العشر من سورة الأنعام في قوله تعالى: وَأَوفُوا الكَيلَ وَالميزانَ بِالقِسطِ لا نُكَلِّفُ نَفسًا إِلّا وُسعَها وَإِذا قُلتُم فَاعدِلوا وَلَو كانَ ذا قُربىٰ وَبِعَهدِ اللَّهِ أَوفوا ذٰلِكُم وَصّاكُم بِهِ لَعَلَّكُم تَذَكَّرونَ ﴿١٥٢﴾الأنعام. فقرن الله عز وجل في هذه الآيات بين الكيل والميزان والعدل في القول والوفاء بالعهد. وفيه أن الميزان والكيل لا يكون إلا بالقسط وهو العدل الظاهر. وفيه أن العدل ذكر مع ذا القربى ولذلك يكون العدل بين الناس. وأيضا من الوصايا التي ذكرها الله في سورة الإسراء في قوله تعالى: وَأَوفُوا الكَيلَ إِذا كِلتُم وَزِنوا بِالقِسطاسِ المُستَقيمِ ۚ ذٰلِكَ خَيرٌ وَأَحسَنُ تَأويلًا ﴿٣٥﴾الإسراء. يقول السعدي في تفسيره: وهذا أمر بالعدل وإيفاء المكاييل والموازين بالقسط من غير بخس ولا نقص. ويؤخذ من عموم المعنى النهي عن كل غش في ثمن أو مثمن أو معقود عليه والأمر بالنصح والصدق في المعاملة [1]. ومن ذلك بلا الشك الحساب ولذلك وجب الوفاء والصدق فيه من غير غش ولا تضليل وإقامة الميزان فيه بالقسط كما في الكيل.

وإقامة الحق تكون بالعلم الشرعي الصحيح بيانه والعمل به في النفوس وفيه صلاح الآخرة وإقامة الميزان تكون بالعدل فيما بين النفوس وفيه صلاح الدنيا. ولهذا فقد قال ابن القيم رحمه الله: «أصل كل خير في الدنيا والآخرة هو العلم والعدل، وأصل كل شرٍ في الدنيا والآخرة الجهل والظلم [هـ] (إغاثة اللهفان في مصايد الشيطان).

2.13 تفاوت الرسل في العلم والفضل ودعوتهم واحدة

لا شك أن الأنبياء والرسل قد تفاوتوا في العلم والفضل والدليل قوله تعالى: تِلكَ الرُّسُلُ فَضَّلنا بَعضَهُم عَلىٰ بَعضٍ ۘ مِنهُم مَن كَلَّمَ اللَّهُ ۖ وَرَفَعَ بَعضَهُم دَرَجاتٍ ۚ وَآتَينا عيسَى ابنَ مَريَمَ البَيِّناتِ وَأَيَّدناهُ بِروحِ القُدُسِ ۗ وَلَو شاءَ اللَّهُ مَا اقتَتَلَ الَّذينَ مِن بَعدِهِم مِن بَعدِ ما جاءَتهُمُ البَيِّناتُ وَلـٰكِنِ اختَلَفوا فَمِنهُم مَن آمَنَ وَمِنهُم مَن كَفَرَ ۚ وَلَو شاءَ اللَّهُ مَا اقتَتَلوا وَلـٰكِنَّ اللَّهَ يَفعَلُ ما يُريدُ ﴿٢٥٣﴾البقرة. وقوله تعالى: وَرَبُّكَ أَعلَمُ بِمَن فِي السَّماواتِ وَالأَرضِ ۗ وَلَقَد فَضَّلنا بَعضَ النَّبِيّينَ عَلىٰ بَعضٍ ۖ وَآتَينا داوودَ زَبورًا ﴿٥٥﴾الإسراء. ومن أمثلة ذلك ما تقدم في التفاوت في العلم والفضل بين موسى عليه السلام والخضر عليه السلام.

ولكن جميع الرسل دعوتهم واحدة وهي الدعوة إلى إقامة الحق والميزان ومن أعظم ذلك الدعوة إلى عبادة الله وحده لا شريك له كما في قوله تعالى: وَلَقَد بَعَثنا في كُلِّ أُمَّةٍ رَسولًا أَنِ اعبُدُوا اللَّهَ وَاجتَنِبُوا الطّاغوتَ ۖ فَمِنهُم مَن هَدَى اللَّهُ وَمِنهُم مَن حَقَّت عَلَيهِ الضَّلالَةُ ۚ فَسيروا فِي الأَرضِ فَانظُروا كَيفَ كانَ عـٰقِبَةُ المُكَذِّبينَ ﴿٣٦﴾النحل. وقوله تعالى: وَما أَرسَلنا مِن قَبلِكَ مِن رَسولٍ إِلّا نوحي إِلَيهِ أَنَّهُ لا إِلـٰهَ إِلّا أَنا فَاعبُدونِ ﴿٢٥﴾الأنبياء. وهذه الدعوة إنما هي دين الإسلام الذي أرسل الله به جميع الرسل والأنبياء عليهم الصلاة والسلام. وهذا فيه أن الدعوة إلى الإسلام واحدة وهي دعوة إلى توحيد الألوهية والربوبية والأسماء والصفات والعبادات والأحكام الشرعية وغيرها من الأمور التي تدعو إليها الرسل والأنبياء عليهم الصلاة والسلام كما في قوله تعالى: شَرَعَ لَكُم مِنَ الدّينِ ما وَصّىٰ بِهِ نوحًا وَالَّذي أَوحَينا إِلَيكَ وَما وَصَّينا بِهِ إِبراهيمَ وَموسىٰ وَعيسىٰ ۖ أَن أَقيمُوا الدّينَ وَلا تَتَفَرَّقوا فيهِ ۚ كَبُرَ عَلَى المُشرِكينَ ما تَدعوهُم إِلَيهِ ۚ اللَّهُ يَجتَبي إِلَيهِ مَن يَشاءُ وَيَهدي إِلَيهِ مَن يُنيبُ ﴿١٣﴾الشورى.

وبهذا يتبين أنه لا يمكن التفريق أو التفضيل بين دعوة الرسل فدعوتهم واحدة كما قال جل جلاله: قولوا آمَنّا بِاللَّهِ وَما أُنزِلَ إِلَينا وَما أُنزِلَ إِلىٰ إِبراهيمَ وَإِسماعيلَ وَإِسحاقَ وَيَعقوبَ وَالأَسباطِ وَما أوتِيَ موسىٰ وَعيسىٰ وَما أوتِيَ النَّبِيّونَ مِن رَبِّهِم لا نُفَرِّقُ بَينَ أَحَدٍ مِنهُم وَنَحنُ لَهُ مُسلِمونَ ﴿١٣٦﴾ البقرة. وقال تعالى: آمَنَ الرَّسولُ بِما أُنزِلَ إِلَيهِ مِن رَبِّهِ وَالمُؤمِنونَ ۚ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لا نُفَرِّقُ بَينَ أَحَدٍ مِن رُسُلِهِ ۚ وَقالوا سَمِعنا وَأَطَعنا ۖ غُفرانَكَ رَبَّنا وَإِلَيكَ المَصيرُ ﴿٢٨٥﴾ البقرة.

ولهذا فقد نهى النبي ﷺ عن التفضيل بينه وبين الأنبياء على سبيل الإستنقاص أو على وجه التعصب أو التفريق أو التفاخر لما في ذلك بطر للحق ومن أعظم ذلك عدم إرجاع هذا الفضل لله تبارك وتعالى والذي بيده هذا التفضيل كما تقدم دليل ذلك، ومن ذلك حديث أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال: بيْنَما يَهُودِيٌّ يَعْرِضُ سِلْعَةً له أُعْطِيَ بهَا شيئًا، كَرِهَهُ -أَوْ لَمْ يَرْضَهُ فقالَ: لَا، وَالَّذِي اصْطَفَى مُوسَى عليه السَّلَامُ علَى البَشَرِ، قالَ: فَسَمِعَهُ رَجُلٌ مِنَ الأنْصَارِ فَلَطَمَ وَجْهَهُ، قالَ: تَقُولُ: وَالَّذِي اصْطَفَى مُوسَى عليه السَّلَامُ علَى البَشَرِ وَرَسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عليه وَسَلَّمَ بيْنَ أَظْهُرِنَا؟! قالَ: فَذَهَبَ اليَهُودِيُّ إلى رَسولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عليه وَسَلَّمَ، فَقالَ: يا أَبَا القَاسِمِ، إنَّ لي ذِمَّةً وَعَهْدًا، وَقالَ: فُلَانٌ لَطَمَ وَجْهِي، فَقالَ رَسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عليه وَسَلَّمَ: لِمَ لَطَمْتَ وَجْهَهُ؟قالَ: قالَ يا رَسولَ اللهِ: وَالَّذِي اصْطَفَى مُوسَى عليه السَّلَامُ علَى البَشَرِ، وَأَنْتَ بيْنَ أَظْهُرِنَا! قالَ: فَغَضِبَ رَسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عليه وَسَلَّمَ حتَّى عُرِفَ الغَضَبُ في وَجْهِهِ، ثُمَّ قالَ: لا تُفَضِّلُوا بيْنَ أَنْبِيَاءِ اللهِ؛ فإنَّه يُنْفَخُ في الصُّورِ، فَيَصْعَقُ مَن في السَّمَوَاتِ وَمَن في الأرْضِ إلَّا مَن شَاءَ اللَّهُ، قالَ: ثُمَّ يُنْفَخُ فيه أُخْرَى، فأكُونُ أَوَّلَ مَن بُعِثَ فَإِذَا مُوسَى عليه السَّلَامُ آخِذٌ بالعَرْشِ، فلا أَدْرِي أَحُوسِبَ بصَعْقَتِهِ يَومَ الطُّورِ، أَوْ بُعِثَ قَبْلِي، وَلَا أَقُولُ: إنَّ أَحَدًا أَفْضَلُ مِن يُونُسَ بنِ مَتَّى عليه السَّلَامُ (صحيح مسلم، وصححه الألباني). وفي رواية اخرى: لا تُخَيِّروني على موسى؛ فإن الناسَ يُصْعَقون، فأكونُ أولَ مَن يَفِيقُ، فإذا موسى باطشٌ في

جانبِ العرشِ، فلا أدري أكانَ ممَن صُعِقَ فأفاق قبلي، أو كان ممَن استَثْنَى اللهُ عزَّ وجلَّ (صحيح أبي داود، وصححه الألباني).

فهذا النهي جاء لأنه لم يكن لبيان فضل الله على أنبياءه ورسله بما فضلهم الله به وإنما كان على سبيل الإستنقاص أو التعصب أو التفريق أو التفاخر أو غير ذلك من الأمور التي تعارض ما جائوا به كأنما دعوتهم ليست بواحدة وهذا بخلاف التفضيل الذي فاضل الله به بين أنبياءه ورسله والذي فيه عدل الله تبارك وتعالى حيث اثبت سبحانه التفاوت بينهم في العلم والفضل ونفى التفريق بينهم في الدعوة. وبهذا يكون المعني الصحيح لقوله ﷺ (لا تفضلوا بين أنبياء الله) أي لا تفضلوا بين أنبياء الله تفضيلا يخالف التفضيل الذي فاضلهم الله به. وكذلك يقال بين نبينا ﷺ وبين موسى عليه السلام أو بين نبينا ﷺ وبين يونس عليه السلام. والله أعلى وأعلم.

2.14 الإصلاح وأنواعه

والإصلاح هو: أن تسعى في إصلاح عقائد الناس وأخلاقهم. وجميع أحوالهم، بحيث تكون على غاية ما يمكن من الصلاح، وأيضا يشمل إصلاح الأمور الدينية، والأمور الدنيوية، وإصلاح الأفراد والجماعات، وضد هذا الفساد. والإفساد، قد نهى عنه، وذم المفسدين، وذكر عقوباتهم المتعددة، وأخبر أنه لا يصلح أعمالهم الدينية والدنيوية [1].

قد تقدم معنا تفاوت الأنبياء في العلم والفضل ولكن دعوتهم واحدة وهي دعوة إلى إقامة الحق والميزان ومن ذلك عبادة الله وحده لا شريك له. وهذه الدعوة تحتاج إلى إصلاح الناس وهذا الإصلاح يكون بالعلم النافع والعمل الصالح والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. وهذا الإصلاح

يكون إما إصلاح ديني أو إصلاح دنيوي أو كلاهما ومثال ذلك قصة موسى عليه السلام مع الخضر عليه السلام. فالخضر عليه السلام اختصه الله بعلم الغيب للإصلاح الدنيوي وأما موسى عليه السلام فاختصه الله بالعلم الديني للإصلاح الديني. فكان للخضر الرشاد والذي فيه الإصلاح الديني والدنيوي معا وكان لموسى الحكمة التي فيها الإصلاح الديني فقط. بينما فضل الله جل جلاله موسى عليه السلام في الفضل والعلم لما كان معه من العلم والحكمة في أمر الله الشرعي.

فالإنبياء جاءوا بالحق والميزان لحكمة الله عز وجل ومن ذلك الإصلاح الديني والدنيوي. ولكن أغلب الرسل اختصهم الله جل جلاله للإصلاح الديني لأن الإصلاح الديني فيه صلاح العباد والذي به تدرك مصالح الدنيا والآخرة ومن ذلك الصدق والأمانة وغيرها من الخصال التي توافق الفطرة والدين وتعود بالنفع الديني والدنيوي. إلا أن العديد من المنافع الدنيوية الآخرى لا تدرك بالعلم الديني فقط وإنما تدرك بالعلم السببي كعلم الطب والهندسة وغيرها من العلوم النافعة التي ينتفع بها الناس في أمور دنياهم وآخرتهم. وقد من الله سبحانه وتعالى على كل البشر فجعل لهم كل ما يحتاجونه من عقل وفطرة لإدراك هذا العلم السببي كما تقدم بيانه.

ومن ذلك أن الله اختص النبي ﷺ بالعلم الشرعي للإصلاح الديني وليس بالعلم السببي ومن ذلك ما رواه العديد من الصحابة رضوان الله عليهم في قصة تلقيح النخل، ومنها أن أنس بن مالك قال: أَنَّ النبيَّ صَلَّى اللَّهُ عليه وَسَلَّمَ مَرَّ بقَوْمٍ يُلَقِّحُونَ، فَقالَ: لو لَمْ تَفْعَلُوا لَصَلُحَ قالَ: فَخَرَجَ شِيصًا، فَمَرَّ بهِمْ فَقالَ: ما لِنَخْلِكُمْ؟قالوا: قُلْتَ كَذَا وَكَذَا، قالَ: أَنْتُمْ أَعْلَمُ بأَمْرِ دُنْيَاكُمْ (صحيح مسلم). وحديث طلحة بن عبيدالله حيث قال: مَرَرْتُ مع رَسولِ اللهِ ﷺ بقَوْمٍ علَى رُؤُوسِ النَّخْلِ، فَقالَ: ما يَصْنَعُ هَؤُلَاءِ؟فَقالوا: يُلَقِّحُونَهُ، يَجْعَلُونَ الذَّكَرَ في الأُنْثَى فيَلْقَحُ، فَقالَ رَسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عليه وَسَلَّمَ: ما أَظُنُّ يُغْنِي ذلكَ شيئًا، قالَ: فَأُخْبِرُوا بذلكَ فَتَرَكُوهُ، فَأُخْبِرَ رَسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عليه وَسَلَّمَ بذلكَ، فَقالَ:

إنْ كانَ يَنْفَعُهُمْ ذلكَ فَلْيَصْنَعُوهُ، فإنِّي إنَّما ظَنَنْتُ ظَنًّا، فلا تُؤَاخِذُونِي بالظَّنِّ، وَلَكِنْ إذَا حَدَّثْتُكُمْ عَنِ اللهِ شيئًا، فَخُذُوا به، فإنِّي لَنْ أَكْذِبَ علَى اللهِ عَزَّ وَجَلَّ (صحيح مسلم). وحديث رافع بن خديج حيث قال: قَدِمَ نَبِيُّ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عليه وَسَلَّمَ المَدِينَةَ وَهُمْ يَأْبُرُونَ النَّخْلَ، يقولونَ: يُلَقِّحُونَ النَّخْلَ، فَقالَ: ما تَصْنَعُونَ؟قالوا: كُنَّا نَصْنَعُهُ، قالَ: لَعَلَّكُمْ لو لَمْ تَفْعَلُوا كانَ خَيْرًا، فَتَرَكُوهُ، فَنَفَضَتْ -أَوْ فَنَقَصَتْ- قالَ: فَذَكَرُوا ذلكَ له، فَقالَ: إنَّما أَنَا بَشَرٌ، إذَا أَمَرْتُكُمْ بشَيءٍ مِن دِينِكُمْ، فَخُذُوا به، وإذَا أَمَرْتُكُمْ بشَيءٍ مِن رَأْيِي، فإنَّما أَنَا بَشَرٌ (صحيح مسلم).

وكل ما تقدم فيه أن نبينا ﷺ أقر لهم بأنهم أعلم بأمور دنياهم أي بالعلم السببي لهذا فقد قال: (إن كان ينفعهم ذلك فَلْيَصْنَعُوهُ)، وفرق عليه ﷺ بين أمر الله جل جلاله الذي به يكون الإصلاح الديني وبين أمور الدنيا التي بها يكون الإصلاح الدنيوي. فجعل كلامه ﷺ في أمور الدنيا ظن وقال: (لا تُؤَاخِذُونِي به) ولكن كلامه في أمر الله حق. وبين النبي ﷺ أنه بشر يخطئ ويصيب في أمور الدنيا كغيره من البشر ولهذا قال: (إنَّما أَنَا بَشَرٌ، إذَا أَمَرْتُكُمْ بشَيءٍ مِن دِينِكُمْ، فَخُذُوا به، وإذَا أَمَرْتُكُمْ بشَيءٍ مِن رَأْيِي، فإنَّما أَنَا بَشَرٌ). وهذا من تواضعه وصدقه ﷺ فهو الصادق الأمين الذي لا يكذب على الله ولا على الناس عليه الصلاة والسلام.

ولقد قال جل جلاله في كتابه: قُل إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثلُكُم يوحىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلٰهُكُم إِلٰهٌ واحِدٌ ۖ فَمَن كانَ يَرجو لِقاءَ رَبِّهِ فَليَعمَل عَمَلًا صالِحًا وَلا يُشرِك بِعِبادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴿١١٠﴾الكهف. وقد جاء في تفسير الطبري أن معنى ذلك: أي قل لهؤلاء المشركين يا محمد: إنما أنا بشر مثلكم من بني آدم لا علم لي إلا ما علمني الله وإن الله يوحي إليّ أن معبودكم الذي يجب عليكم أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئا، معبود واحد لا ثاني له، ولا شريك (فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ) يقول: فمن يخاف ربه يوم لقائه، ويراقبه على معاصيه، ويرجو ثوابه على طاعته (فَلْيَعْمَلْ عَمَلا صَالِحًا) يقول: فليخلص له العبادة، وليفرد له الربوبية

[هـ].

2.15 الحكمة والرشاد

ذكر جل جلاله الحكمة والرشاد في مواضع مختلفة في كتابه الكريم. فالحكمة فيها الإصلاح الديني بالعلم الشرعي الصحيح الموافق للحق وفيها العمل الموافق للميزان الشرعي. وأما الرشاد فهو أعم ومنه الحكمة بالإضافة إلى العلم بالأسباب والأخذ بها، أي أن الرشاد يكون بمعنى الإصلاح الديني فقط أو الإصلاح الدنيوي فقط أو كلاهما معا. فالرشاد الديني هي الهداية التي بها تجلب المصالح الشرعية، ويطلق الرشاد أيضا على الأمور التي بها تجلب المصالح الدنيوية مثل العلم السببي. فيكون بذلك الرشاد الكامل يشمل إقامة الحق بالعلم الشرعي الصحيح وإقامة الميزان بالعدل والعلم بالأسباب والأخذ بها. ولا يلزم أن الرشاد أفضل من الحكمة على وجه الإطلاق وإنما التفاضل يرجع للعلم والعمل بأمر الله الشرعي.

ولقد اختص جل جلاله من خلقه من يشاء بالحكمة فقال سبحانه وتعالى: يُؤتِي الحِكمَةَ مَن يَشاءُ وَمَن يُؤتَ الحِكمَةَ فَقَد أوتِيَ خَيرًا كَثيرًا وَما يَذَّكَّرُ إِلّا أُولُو الأَلبابِ ﴿٢٦٩﴾البقرة. وقد ذكر السعدي في تفسيره: لما أمر تعالى بهذه الأوامر العظيمة المشتملة على الأسرار والحكم وكان ذلك لا يحصل لكل أحد، بل لمن منَّ عليه وآتاه الله الحكمة، وهي العلم النافع والعمل الصالح ومعرفة أسرار الشرائع وحكمها، وإن من آتاه الله الحكمة فقد آتاه خيرا كثيرا وأي خير أعظم من خير فيه سعادة الدارين والنجاة من شقاوتهما! وفيه التخصيص بهذا الفضل وكونه من ورثة الأنبياء، فكمال العبد متوقف على الحكمة، إذ كماله بتكميل قوتيه العلمية والعملية فتكميل قوته العلمية بمعرفة الحق ومعرفة المقصود به، وتكميل قوته العملية بالعمل بالخير وترك الشر، وبذلك يتمكن من الإصابة بالقول والعمل وتنزيل

الأمور منازلها في نفسه وفي غيره، وبدون ذلك لا يمكنه ذلك، ولما كان الله تعالى قد فطر عباده على عبادته ومحبة الخير والقصد للحق، فبعث الله الرسل مذكرين لهم بما ركز في فطرهم وعقولهم، ومفصلين لهم ما لم يعرفوه، انقسم الناس قسمين قسم أجابوا دعوتهم فتذكروا ما ينفعهم ففعلوه، وما يضرهم فتركوه، وهؤلاء هم أولو الألباب الكاملة، والعقول التامة، وقسم لم يستجيبوا لدعوتهم، بل أجابوا ما عرض لفطرهم من الفساد، وتركوا طاعة رب العباد، فهؤلاء ليسوا من أولي الألباب، فلهذا قال تعالى: (وما يذكر إلا أولو الألباب) [1].

ومن رحمة الله جل جلاله أنه جعل نبينا الكريم ﷺ معلما لأمته لهذه الحكمة فقال جل جلاله: كَما أَرسَلنا فيكُم رَسولًا مِنكُم يَتلو عَلَيكُم آياتِنا وَيُزَكّيكُم وَيُعَلِّمُكُمُ الكِتابَ وَالحِكمَةَ وَيُعَلِّمُكُم ما لَم تَكونوا تَعلَمونَ ﴿١٥١﴾ البقرة. وقد جاء في تفسير ابن كثير أنه تعالى يذكر عباده المؤمنين ما أنعم به عليهم من بعثة الرسول محمد صلى الله عليه وسلم إليهم، يتلو عليهم آيات الله مبينات ويزكيهم، أي: يطهرهم من رذائل الأخلاق ودنس النفوس وأفعال الجاهلية، ويخرجهم من الظلمات إلى النور، ويعلمهم الكتاب وهو القرآن والحكمة وهي السنة [هـ]. وقال السعدي أن معنى (وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ) أي: القرآن، ألفاظه ومعانيه، (وَالْحِكْمَةَ) قيل: هي السنة، وقيل: الحكمة، معرفة أسرار الشريعة والفقه فيها، وتنزيل الأمور منازلها. فيكون - على هذا - تعليم السنة داخلا في تعليم الكتاب، لأن السنة، تبين القرآن وتفسره، وتعبر عنه [1].

وأما الرشاد قد يكون بمعنى الإصلاح الديني فقط وهو الهداية لإتباع الحق كقوله تعالى: وَإِذا سَأَلَكَ عِبادي عَنّي فَإِنّي قَريبٌ ۖ أُجيبُ دَعوَةَ الدّاعِ إِذا دَعانِ ۖ فَلَيَستَجيبوا لي وَلْيُؤمِنوا بي لَعَلَّهُم يَرشُدونَ ﴿١٨٦﴾. ومعنى يرشدون أي يهتدون فيحصل لهم الرشد الديني الذي هو الهداية للإيمان والأعمال الصالحة، ويزول عنهم الغي المنافي للإيمان والأعمال الصالحة كما جاء في تفسير السعدي. وأيضا قوله

تعالى: وَقالَ الَّذي آمَنَ يا قَومِ اتَّبِعونِ أَهدِكُم سَبيلَ الرَّشادِ ﴿٣٨﴾غافر. وجاء معنى هذا في تفسير الطبري أي: إن اتبعتموني فقبلتم مني ما أقول لكم، بينت لكم طريق الصواب الذي ترشدون إذا أخذتم فيه وسلكتموه وذلك هو دين الله الذي ابتعث به موسى. وكل هذا من الإصلاح الديني والهداية. ويأتي الرشاد أيضا بمعنى الإصلاح الدنيوي فقط كقوله تعالى: قالَ لَهُ موسىٰ هَل أَتَّبِعُكَ عَلىٰ أَن تُعَلِّمَنِ مِمّا عُلِّمتَ رُشدًا ﴿٦٦﴾الكهف، وهذا لأن موسى عليه السلام كان لديه الإصلاح الديني وهو أعلم من الخضر عليه السلام في ذلك. ويأتي الرشاد أيضا بمعنى الإصلاح الديني والدنيوي معا كقوله تعالى: إِذ أَوَى الفِتيَةُ إِلَى الكَهفِ فَقالوا رَبَّنا آتِنا مِن لَدُنكَ رَحمَةً وَهَيِّئ لَنا مِن أَمرِنا رَشَدًا ﴿١٠﴾يونس، وهذا فيه أولا صلاح الدين حيث أن الله جل جلاله هداهم وزادهم هدى، وثانيا صلاح الدنيا حيث جعل سبحانه وتعالى لهم حفظ البدن مع طول الفترة المكوث في الكهف فرارا من قومهم. وكمال الرشاد لا يدركه الإنسان بسهولة لأنه يتطلب الجمع بين العلم الشرعي والعلم السببي معا وهذا الأمر يعطيه الله لمن شاء من عباده ولهذا فقد أمر جل جلاله نبيه الكريم ﷺ فقال: وَاذكُر رَبَّكَ إِذا نَسيتَ وَقُل عَسىٰ أَن يَهدِيَنِ رَبّي لِأَقرَبَ مِن هـٰذا رَشَدًا ﴿٢٤﴾الكهف. وقال السعدي في تفسيره: فأمره أن يدعو الله ويرجوه، ويثق به أن يهديه لأقرب الطرق الموصلة إلى الرشد. وحري بعبد، تكون هذه حاله، ثم يبذل جهده، ويستفرغ وسعه في طلب الهدى والرشد، أن يوفق لذلك، وأن تأتيه المعونة من ربه، وأن يسدده في جميع أموره [1].

والرشاد إن جمع مع الهداية يكون بمعنى الإصلاح الدنيوي، وتكون الهداية بمعنى الحكمة والتي بها يكون الإصلاح الديني. ولهذا فإن نبينا الكريم ﷺ بدأ بالإصلاح الديني وسمى الخلفاء من بعده بالخلفاء الراشدين حتى يقوموا بالإصلاح الديني والدنيوي معا حيث قال ﷺ: عَلَيكم بِسنَّتي وسنَّةِ الخلفاءِ الرَّاشدينَ المَهْدِيِّينَ مِن بَعدي (صححه الألباني). وفي رواية أخرى: المهديين الراشدين (صحيح الجامع، صححه

الألباني).

2.16 مكانة أهل العلم الشرعي

إن أهل العلم الشرعي هم القائمين بالإصلاح الديني وهم الذين يأمرون الناس بالقسط فيأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر فهم أعلم الناس بالحق كما في قوله تعالى: وَيَرَى الَّذِينَ أوتُوا العِلمَ الَّذي أُنزِلَ إِلَيكَ مِن رَبِّكَ هُوَ الحَقَّ وَيَهدي إِلىٰ صِراطِ العَزيزِ الحَميدِ ﴿٦﴾ سبأ. وهذا لأن الحق يهدي إلى الطريق المستقيم كما ذكر تعالى في هذه الآية وفي قوله تعالى: وَلِيَعلَمَ الَّذينَ أوتُوا العِلمَ أَنَّهُ الحَقُّ مِن رَبِّكَ فَيُؤمِنوا بِهِ فَتُخبِتَ لَهُ قُلوبُهُم ۗ وَإِنَّ اللَّهَ لَهادِ الَّذينَ آمَنوا إِلىٰ صِراطٍ مُستَقيمٍ ﴿٥٤﴾ الحج. فأهل العلم الشرعي يبينون للناس الحق الذي جاءت به الرسل والأنبياء ساعين إلى الهداية الشرعية للناس وراجين لهم الهداية الكونية من الله جل جلاله. وقد جعل الله جل جلاله أهل العلم حجة على الناس لما معهم من الحق فكانوا بذلك هم ورثة الأنبياء في الأرض فقد قال تعالى: قُل آمِنوا بِهِ أَو لا تُؤمِنوا ۚ إِنَّ الَّذينَ أوتُوا العِلمَ مِن قَبلِهِ إِذا يُتلىٰ عَلَيهِم يَخِرّونَ لِلأَذقانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ الإسراء. وقوله تعالى: بَل هُوَ آياتٌ بَيِّناتٌ في صُدورِ الَّذينَ أوتُوا العِلمَ ۚ وَما يَجحَدُ بِآياتِنا إِلَّا الظّالِمونَ ﴿٤٩﴾ العنكبوت.

ولهذا فقد رفع الله مكانة أهل الإيمان وأهل العلم في الدنيا والأخرة لما عرفوا من الحق كما في قوله تعالى: يَرفَعِ اللَّهُ الَّذينَ آمَنوا مِنكُم وَالَّذينَ أوتُوا العِلمَ دَرَجاتٍ وَاللَّهُ بِما تَعمَلونَ خَبيرٌ ﴿١١﴾ المجادلة. ومن أعظم ذلك قوله تعالى: شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلـٰهَ إِلّا هُوَ وَالمَلائِكَةُ وَأُولُو العِلمِ قائِمًا بِالقِسطِ ۚ لا إِلـٰهَ إِلّا هُوَ العَزيزُ الحَكيمُ ﴿١٨﴾ آل عمران. يقول السعدي في تفسيره: هذا تقرير من الله تعالى للتوحيد بأعظم الطرق الموجبة له، وهي شهادته تعالى وشهادة خواص الخلق وهم الملائكة وأهل العلم [.] وأما شهادة

أهل العلم فلأنهم هم المرجع في جميع الأمور الدينية خصوصا في أعظم الأمور وأجلها وأشرفها وهو التوحيد، فكلهم من أولهم إلى آخرهم قد اتفقوا على ذلك ودعوا إليه وبينوا للناس الطرق الموصلة إليه، فوجب على الخلق التزام هذا الأمر المشهود عليه والعمل به، وفي هذا دليل على أن أشرف الأمور علم التوحيد لأن الله شهد به بنفسه وأشهد عليه خواص خلقه، والشهادة لا تكون إلا عن علم ويقين، بمنزلة المشاهدة للبصر، ففيه دليل على أن من لم يصل في علم التوحيد إلى هذه الحالة فليس من أولي العلم. وفي هذه الآية دليل على شرف العلم من وجوه كثيرة، منها: أن الله خصهم بالشهادة على أعظم مشهود عليه دون الناس، ومنها: أن الله قرن شهادتهم بشهادته وشهادة ملائكته، وكفى بذلك فضلا، ومنها: أنه جعلهم أولي العلم، فأضافهم إلى العلم، إذ هم القائمون به المتصفون بصفته، ومنها: أنه تعالى جعلهم شهداء وحجة على الناس، وألزم الناس العمل بالأمر المشهود به، فيكونون هم السبب في ذلك، فيكون كل من عمل بذلك نالهم من أجره، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، ومنها: أن إشهاده تعالى أهل العلم يتضمن ذلك تزكيتهم وتعديلهم وأنهم أمناء على ما استرعاهم عليه [1].

ومن أعظم المنكر قتل الأنبياء أو الذين يأمرون الناس بالقسط القائمين بالإصلاح الديني أو الإصلاح الدنيوي أو كلاهما. ولهذا فقد قال جل جلاله ذمه لأهل الكتاب لبيان هذا الجرم العظيم في قوله تعالى: إِنَّ الَّذِينَ يَكفُرونَ بِآياتِ اللَّهِ وَيَقتُلونَ النَّبِيّينَ بِغَيرِ حَقٍّ وَيَقتُلونَ الَّذينَ يَأمُرونَ بِالقِسطِ مِنَ النّاسِ فَبَشِّرهُم بِعَذابٍ أَليمٍ ﴿٢١﴾آل عمران. وقد جاء في تفسير السعدي أن هؤلاء الذين أخبر الله عنهم في هذه الآية، أشد الناس جرما وأي: جرم أعظم من الكفر بآيات الله التي تدل دلالة قاطعة على الحق الذي من كفر بها فهو في غاية الكفر والعناد ويقتلون أنبياء الله الذين حقهم أوجب الحقوق على العباد بعد حق الله، الذين أوجب الله طاعتهم والإيمان بهم، وتعزيرهم، وتوقيرهم، ونصرهم وهؤلاء قابلوهم بضد ذلك، ويقتلون أيضا الذين يأمرون الناس بالقسط الذي هو العدل، وهو الأمر

بالمعروف والنهي عن المنكر الذي حقيقته إحسان إلى المأمور ونصح له، فقابلوهم شر مقابلة، فاستحقوا بهذه الجنايات المنكرات أشد العقوبات، وهو العذاب المؤلم البالغ في الشدة إلى غاية لا يمكن وصفها، ولا يقدر قدرها المؤلم للأبدان والقلوب والأرواح [1].

وقد صح عن النبي ﷺ أنه قال: إن الإسلام بدأ غريبًا، وسيعودُ غريبًا كما بدأَ، فطُوبَى للغُرباءِ قيل: من هم يا رسولَ اللهِ؟قال: الذينَ يصلحونَ إذا فسدَ الناسُ (صحيحه الألباني في السلسلة الصحيحة). وفي زيادة: وليأرَزنَّ الإسلامُ إلى ما بين المسجدَيْن كما تأرَزُ الحيَّةُ إلى جُحرِها (غريب أورده ابن حجر العسقلاني في موافقة الخبر الخبر). وفي رواية: الذين يُصْلِحُون ما أفسَدَ الناسُ مِن بعدِي مِن سُنتي (قال الألباني ضعيف جدا).

عن أنسٍ رضي اللَّه عنه قالَ: قيلَ يا رسولَ اللَّهِ متى نتركُ الأمرَ بالمعروفِ والنَّهيَ عنِ المنكرِ قالَ إذا ظهرَ فيكم ما ظهرَ في الأممِ السابقة وفي روايةٍ في بني إسرائيلَ قالوا يا رسولَ اللَّهِ وما ظهرَ في الأممِ قبلنا قالَ المُلكُ في صغارِكم والفاحِشةُ في كبارِكم والعلمُ في رُذالتِكم (حسنه السخاوي والوادعي وضعفه الألباني).

فالأمر بالمعروف واجب على كل مسلم إلى أن يشاء الله.

2.17 حال الأنبياء وأتباعهم مع الميزان الشرعي

ولما كان الأنبياء أعلم الناس بأمر الله وأحرصهم، فقد أقاموا الميزان الشرعي حق إقامته في حكمهم الرشيد بين الخلق. ومثال ذلك يوسف عليه السلام في قوله تعالى: قالَ اجعَلني عَلىٰ خَزائِنِ الأَرضِ ۖ إِنّي حَفيظٌ عَليمٌ ﴿٥٥﴾يوسف. وهذا فيه حرصه عليه السلام على إقامة الكيل والوزن بما يرضي الله

وهذا من الإصلاح الذي أمر الله به حيث قال لإخوته عن الكيل: وَلَمّا جَهَّزَهُم بِجَهازِهِم قالَ ائتوني بِأَخٍ لَكُم مِن أَبيكُم ۚ أَلا تَرَونَ أَنّي أُوفِي الكَيلَ وَأَنا خَيرُ المُنزِلينَ ﴿٥٩﴾ فَإِن لَم تَأتوني بِهِ فَلا كَيلَ لَكُم عِندي وَلا تَقرَبونِ ﴿٦٠﴾يوسف.

فلا شك أن التفريط في الكيل والوزن من أعظم البلايا التي حذرنا الله عز وجل منها في كتابه الكريم فيقول تعالى: وَيلٌ لِلمُطَفِّفينَ ﴿١﴾ الَّذينَ إِذَا اكتالوا عَلَى النّاسِ يَستَوفونَ ﴿٢﴾ وَإِذا كالوهُم أَو وَزَنوهُم يُخسِرونَ ﴿٣﴾ أَلا يَظُنُّ أُولـٰئِكَ أَنَّهُم مَبعوثونَ ﴿٤﴾ لِيَومٍ عَظيمٍ ﴿٥﴾ يَومَ يَقومُ النّاسُ لِرَبِّ العالَمينَ ﴿٦﴾المطففين. فالظلم في الكيل والوزن من الإفساد العظيم ومن أسباب تعجيل العذاب في الدنيا قبل الأخرة، وفي قصة مدين مع نبيهم شعيبا العبرة الواضحة في ذلك. يقول تعالى على لسان نبيه شعيب محذرا قومه: وَإِلىٰ مَدينَ أَخاهُم شُعَيبًا ۗ قالَ يا قَومِ اعبُدُوا اللَّهَ ما لَكُم مِن إِلـٰهٍ غَيرُهُ ۖ قَد جاءَتكُم بَيِّنَةٌ مِن رَبِّكُم ۖ فَأَوفُوا الكَيلَ وَالميزانَ وَلا تَبخَسُوا النّاسَ أَشياءَهُم وَلا تُفسِدوا فِي الأَرضِ بَعدَ إِصلاحِها ۚ ذـٰلِكُم خَيرٌ لَكُم إِن كُنتُم مُؤمِنينَ ﴿٨٥﴾الأعراف. وفي موضع أخر من سورة الشعراء: أَوفُوا الكَيلَ وَلا تَكونوا مِنَ المُخسِرينَ ﴿١٨١﴾ وَزِنوا بِالقِسطاسِ المُستَقيمِ ﴿١٨٢﴾ وَلا تَبخَسُوا النّاسَ أَشياءَهُم وَلا تَعثَوا فِي الأَرضِ مُفسِدينَ ﴿١٨٣﴾الشعراء. وفي سورة هود: وَإِلىٰ مَدينَ أَخاهُم شُعَيبًا ۚ قالَ يا قَومِ اعبُدُوا اللَّهَ ما لَكُم مِن إِلـٰهٍ غَيرُهُ ۖ وَلا تَنقُصُوا المِكيالَ وَالميزانَ ۚ إِنّي أَراكُم بِخَيرٍ وَإِنّي أَخافُ عَلَيكُم عَذابَ يَومٍ مُحيطٍ ﴿٨٤﴾ وَيا قَومِ أَوفُوا المِكيالَ وَالميزانَ بِالقِسطِ ۖ وَلا تَبخَسُوا النّاسَ أَشياءَهُم وَلا تَعثَوا فِي الأَرضِ مُفسِدينَ ﴿٨٥﴾هود. وهذا فيه أن شعيبا عليه السلام دعا قومه لإقامة الحق أولا وهو التوحيد بإفراد الله بالعبادة وثانيا لإقامة الميزان الشرعي وهو الكيل والوزن بالقسط. وفيه أن بخس الناس أشيائهم والخسران والنقصان في الكيل والوزن من الظلم والفساد الموجب لسخط الله وعذابه العاجل.

ونبينا ﷺ كان من أحرص الناس في إقامة الكيل والميزان وحذر من الفساد في ذلك في العديد من المواضع منها ما ورد عن ابن عباس رضي الله عنه أنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِأَصْحَابِ الْكَيْلِ وَالْمِيزَانِ: «إِنَّكُمْ قَدْ وُلِّيتُمْ أَمْرَيْنِ هَلَكَتْ فِيهِمَا الْأُمَمُ السَّابِقَة قبلكُمْ». رَوَاهُ التِّرْمِذِيّ. وقد علم الصحابة والتابعين بأهمية إقامة الميزان والمكيال وأن الفساد فيهما من أسباب سخط الله ومنه ما ورد في كتاب الموطأ للإمام مالك عَنْ يَحْيَى بْنِ سَعِيدٍ، أَنَّهُ سَمِعَ سَعِيدَ بْنَ الْمُسَيَّبِ، يَقُولُ إِذَا جِئْتَ أَرْضًا يُوفُونَ الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ فَأَطِلِ الْمُقَامَ بِهَا وَإِذَا جِئْتَ أَرْضًا يُنَقِّصُونَ الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ فَأَقْلِلِ الْمُقَامَ بِهَا.

2.18 حال الأمم مع الحق والميزان الشرعي

من عدل الله جل جلاله أن سنته في خلقه من الأمم السابقة واللاحقة ثابتة كما قال تعالى: سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوا مِن قَبلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبدِيلًا ﴿٦٢﴾الأحزاب، أي أن سنة الله لا تبدل ولا تغير كما جاء في تفسير ابن كثير. والتفاوت في العقوبة أو التمكين أو الهوان للأمم السابقة أو اللاحقة في الدنيا كل بحسب حاله وما يستحقه بما شاء الله جل جلاله بعدله أو رحمته أو حكمته. وحال الأمم في الدنيا، سواء كانت كافرة أو مسلمة، يدور مع الحق والميزان في خمسة أحوال من الأشد عقوبة إلى الأهون عقوبة، أو من الأقل تمكينا إلى الأكثر تمكينا، أو من الأكثر هوانا إلى الأقل هونا:

- الدولة الكافرة الظالمة الهالكة
- الدولة المسلمة الظالمة
- الدولة الكافرة الظالمة

- الدولة الكافرة العادلة
- الدولة المؤمنة العادلة

وهذا الترتيب فيه تقديم الميزان على الحق في الدنيا بحسب ما قامت به الحجة. وهذا لأن الله جل جلاله قدم في الدنيا المصلحة العامة التي تكون بين الناس على المصلحة الشخصية التي تكون في النفس، فجعل سبحانه إقامة الميزان أي العدل بين الناس والإصلاح فيما بينهم في الدنيا مقدما على إقامة الحق في نفوس الناس. وهذا لأنه بالعدل في الدنيا تحفظ الأموال والأعراض والدماء، فلا تصلح الحياة إلا بالإصلاح الذي يكون بالعدل والدليل على هذا قوله تعالى: وَما كانَ رَبُّكَ لِيُهلِكَ القُرىٰ بِظُلمٍ وَأَهلُها مُصلِحونَ ﴿١١٧﴾ هود. وقد جاء في تفسير الطبري أن معنى ذلك أن الله جل جلاله لم يكن ليهلكهم بشركهم بالله. وذلك قوله " بظلم " يعني: بشرك، (وأهلها مصلحون)، فيما بينهم لا يتظالمون، ولكنهم يتعاطَون الحقّ (أي العدل) بينهم، وإن كانوا مشركين، إنما يهلكهم إذا تظالموا [هـ]. وأدنى هذا العدل هو العدل الموافق للفطرة أي الميزان الفطري. وجاء أيضا تفصيل ذلك في تفسير القرطبي أن معنى وأهلها مصلحون أي فيما بينهم في تعاطي الحقوق; أي لم يكن ليهلكهم بالكفر وحده حتى ينضاف إليه الفساد، كما أهلك قوم شعيب ببخس المكيال والميزان، وقوم لوط باللواط; ودل هذا على أن المعاصي أقرب إلى عذاب الاستئصال في الدنيا من الشرك، وإن كان عذاب الشرك في الآخرة أصعب [هـ]. فكل هذا فيه أن مخالفة الميزان أهلك في الدنيا من مخالفة الحق، وأن مخالفة الميزان الفطري على وجه الخصوص بالظلم والفساد والمعاصي من أسباب تعجيل سخط الله وعقابه في الدنيا قبل الآخرة.

ومن ذلك ما نقله شيخ الإسلام ابن تيمية: وَلِهَذَا قِيلَ: إنَّ اللَّهَ يُقِيمُ الدَّوْلَةَ الْعَادِلَةَ وَإِنْ كَانَتْ كَافِرَةً، وَلَا يُقِيمُ الظَّالِمَةَ وَإِنْ كَانَتْ مُسْلِمَةً. وَيُقَالُ: الدُّنْيَا تَدُومُ مَعَ الْعَدْلِ وَالْكُفْرِ وَلَا تَدُومُ مَعَ الظُّلْمِ

وَالْإِسْلَامِ [.] وَذَلِكَ أَنَّ الْعَدْلَ نِظَامُ كُلِّ شَيْءٍ، فَإِذَا أُقِيمَ أَمْرُ الدُّنْيَا بِعَدْلٍ قَامَتْ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ لِصَاحِبِهَا فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ وَمَتَى لَمْ تَقُمْ بِعَدْلٍ لَمْ تَقُمْ وَإِنْ كَانَ لِصَاحِبِهَا مِنْ الْإِيمَانِ مَا يُجْزَى بِهِ فِي الْآخِرَةِ (مجموع الفتاوى 28/146). وقد قال الشيخ الألباني رحمه الله تعالى في توضيح هذا المعنى: ذلك لأنَّ الظلم هو سبب خراب البلاد وهلاك العباد، فإذا كانت الأمة أو الدولة كافرة ولكنها تحكم بالعدل فيما بينها، هذا العدل الذي يعرفه الناس بفِطَرهم، فإذا كانوا يحكمون بذلك فستقوم دولتهم وتستمرُّ مدَّة طويلة، والتاريخ يحفل بهذا [هـ]. وقال الشيخ ابن باز رحمه الله في ذلك: مع الظلم والفساد في الأرض تعمّ العقوبات، ولا تستقيم الدولة على ذلك، وإنما تستقيم على العدل، دولة عادلة وإن كانت كافرةً تستقيم معها أحوال رعيتها، ودولة ظالمة وإن كانت مسلمةً تختلُّ بها الأمور، ولا تنتظم بها الأمور، وقد تحصل الشَّحناء والعداوة والفتن، نسأل الله العافية [هـ].

ولقد بين رسولنا الكريم ﷺ خطر مخالفة الميزان الشرعي على الحاكم والمحكومين وهذا يشمل الميزان الفطري والميزان الديني. وجاء في حديث سعد بن تميم أنه قيل: يا رسولَ اللهِ، ما للخليفةِ مِن بعدِك؟ قال: مِثلُ الذي لي، ما عدَلَ في الحُكمِ، وقسَطَ في القِسطِ، ورَحِمَ ذا الرَّحِمِ، فمَن فعَلَ غيرَ ذلك فليس مِنِّي ولستُ منه (صحيح، تخريج سنن أبي داود، وصححه الألباني). وهذا فيه أن الله أوجب على الحاكم العدل في الحكم وأن النبي ﷺ تبرأ من الحاكم الظالم. وعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ، قَالَ أَقْبَلَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ ـ ﷺ ـ فَقَالَ «يَا مَعْشَرَ الْمُهَاجِرِينَ خَمْسٌ إِذَا ابْتُلِيتُمْ بِهِنَّ وَأَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ تُدْرِكُوهُنَّ: لَمْ تَظْهَرِ الْفَاحِشَةُ فِي قَوْمٍ قَطُّ حَتَّى يُعْلِنُوا بِهَا إِلاَّ فَشَا فِيهِمُ الطَّاعُونُ وَالأَوْجَاعُ الَّتِي لَمْ تَكُنْ مَضَتْ فِي أَسْلاَفِهِمُ الَّذِينَ مَضَوْا، وَلَمْ يَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِلاَّ أُخِذُوا بِالسِّنِينَ وَشِدَّةِ الْمَؤُنَةِ وَجَوْرِ السُّلْطَانِ عَلَيْهِمْ، وَلَمْ يَمْنَعُوا زَكَاةَ أَمْوَالِهِمْ إِلاَّ مُنِعُوا الْقَطْرَ مِنَ السَّمَاءِ وَلَوْلاَ الْبَهَائِمُ لَمْ يُمْطَرُوا، وَلَمْ يَنْقُضُوا عَهْدَ اللَّهِ وَعَهْدَ رَسُولِهِ إِلاَّ سَلَّطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ غَيْرِهِمْ فَأَخَذُوا بَعْضَ مَا فِي أَيْدِيهِمْ، وَمَا لَمْ تَحْكُمْ أَئِمَّتُهُمْ بِكِتَابِ اللَّهِ وَيَتَخَيَّرُوا مِمَّا أَنْزَلَ

اللَّهُ إِلاَّ جَعَلَ اللَّهُ بَأْسَهُمْ بَيْنَهُمْ». (أخرجه ابن ماجه وصححه الألباني). فكل ما ذكره النبي ﷺ في هذا الحديث هي من المخالفات الظالمة التي تخالف الميزان الشرعي، ولكن الرسول ﷺ قدم مخالفة الميزان الفطري على الميزان الديني. فالمجاهرة بالمعاصي وإنقاص الكيل من الأعمال التي تعارض الميزان الفطري والذي يمكن إدراكه بالفطرة السليمة. وهذا فيه بيان خطورة مخالفة الفطرة للناس عموما مسلمين كانوا أو غير مسلمين. وفي تقديم هذا النوع بيان المبالغة في المعصية. وأما منع الزكاة، ومخالفة أمر الله ورسوله، والحكم بغير ما أنزل الله فهي تخالف الميزان الديني الذي يدرك بالوحي. وهذا فيه بيان خطورة مخالفة أمر الله وبالأخص للمسلمين. فكل هذه الأمور من أسباب البلاء العظيم ومنها الطاعون والأمراض والفقر والجوع وجور السلطان والهوان والفتن. وفيه الدليل على نبوته ﷺ فقد وقع ذلك كما أخبر بعد أن تهاون الكثير من المسلمين وغير المسلمين في أمر الميزان إلا من رحم الله. وبهذا يعرف أن الأمة المسلمة ينالها بمخالفة الميزان الشرعي من العقوبات في الدنيا ما لا يناله غيرها وذلك لما عرفت من الحق وبحسب ما قامت به من الظلم كما هو موضح في الجدول 1.2. وسيأتي بيان ذلك في حال الأمة المسلمة الظالمة.

زُوِيَتْ لي الأرضُ حتَّى رأيتُ مشارقَها ومغارِبَها وأُعطيتُ الكَنزينِ الأصفَرَ أو الأحمرَ والأَبيضَ يَعني الذَّهبَ والفضَّةَ وقِيلَ لي إنَّ مُلكَك إلى حيثُ زُوِيَ لكَ وإنِّي سَألتُ اللهَ عزَّ وجلَّ ثلاثًا أنْ لا يسلِّطَ على أُمَّتي جوعًا فيهلكَهم بهِ عامَّةً وأنْ لا يَلبِسَهم شيَعًا ويُذيقَ بَعضَهم بأسَ بَعضٍ وإنّه قِيلَ لي إذا قَضيتُ قضاءً فلا مردَّ لهُ وإنِّي لنْ أُسلِّطَ علَى أُمَّتِك جوعًا فيُهلكَهم فيهِ ولَن أجمعَ علَيْهِم من بينِ أقطارِها حتَّى يُفنِيَ بعضُهم بَعضًا ويقتُلَ بعضُهم بَعضًا وإذا وُضِعَ السَّيفُ في أُمَّتي فلَن يُرفَعَ عنهم إلى يومِ القيامةِ وإنَّ ممَّا أتَخوَّفُ على أُمَّتي أئمَّةً مضلِّينَ وستَعبدُ قبائلُ مِن أُمَّتي الأَوثانَ وستَلحَقُ قبائلُ من أُمَّتي بالمشركينِ وإنَّ بينَ يدَي السَّاعةِ دجَّالينَ كذَّابينَ قريبًا مِن ثلاثينَ كلُّهم يزعُمُ أنَّه نبيٌّ ولن

تزالَ طائفةٌ من أُمَّتي على الحقِّ مَنصورينَ لا يضُرُّهُم مَن خالفَهم حتَّى يأتيَ أمرُ اللهِ عزَّ وجلَّ عرض مختصر.. الراوي : ثوبان مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم | المحدث : الألباني | المصدر : صحيح ابن ماجه الصفحة أو الرقم : 3207 | خلاصة حكم المحدث : صحيح

المخالفة الظالمة	العقوبة	نوع الميزان	الأمة
ظهور الفاحشة والجهر بها	الطاعون والأوجاع	الميزان الفطري	مسلمة أو كافرة
نقص المكيال والميزان	السنين وشدة المؤنة وجور السلطان	الميزان الفطريي	مسلمة أو كافرة
منع الزكاة	منع القطر من السماء	الميزان الديني	مسلمة
نقض عهد الله ورسوله	تسلط العدو وأخذه بعض ما في أيديهم	الميزان الديني	مسلمة
الحكم بغير كتاب الله	القتال والفتن بينهم	الميزان الديني	مسلمة

جدول 1.2: مخالفات الميزان الشرعي وعقوباتها بحسب ما أخبر النبي ﷺ

2.18.1 الدولة الكافرة الظالمة الهالكة

الدولة أو الأمة الكافرة الظالمة الهالكة هي التي أرسل الله لها رسولا على وجه الخصوص من الأمم السابقة فلم تقبل الحق بكفرها ولم تقم الميزان بظلمها رغم قيام الحجة عليهم. وهي الأشد عقوبة في الدنيا سواءا كان لها التمكين أو لم يكن، وهذا لأن الحجة قامت عليها ولكن لم تقم الحق ولم تقم أدنى درجات العدل وهو الميزان الفطري فلم يقيموا العدل الذي به تحفظ الأموال (كالغش في الكيل مثل قوم شعيب)، أو الأعراض (كالزنى واللواط مثل قوم لوط)، أو الدماء (كالجور والقتل بغير حق مثل فرعون)، وغيرها من الأمور التي تخالف الميزان الفطري، والتي جاء الأنبياء بتحريمها.

وقد جرت سنة الله في الأزمان الخالية من الأمم الكافرة الظالمة الهالكة المكذبة لرسلها أن ينزل الله عليها عذابه العاجل بمجرد إخراجهم لرسلهم ظلما وعدوانا وكفرا كما قال تعالى: سُنَّةَ مَن قَد أَرسَلنا قَبلَكَ مِن رُسُلِنا ۖ وَلا تَجِدُ لِسُنَّتِنا تَحويلًا ﴿٧٧﴾الإسراء. وقد جاء في تفسير ابن كثير أنه أي: هكذا عادتنا في الذين كفروا برسلنا وآذوهم، يخرج الرسول من بين أظهرهم ويأتيهم العذاب [هـ]. وقد تنوع فيهم العقاب كل بحسب حاله كما قال تعالى: فَكُلًّا أَخَذنا بِذَنبِهِ ۖ فَمِنهُم مَن أَرسَلنا عَلَيهِ حاصِبًا وَمِنهُم مَن أَخَذَتهُ الصَّيحَةُ وَمِنهُم مَن خَسَفنا بِهِ الأَرضَ وَمِنهُم مَن أَغرَقنا ۚ وَما كانَ اللَّهُ لِيَظلِمَهُم وَلـٰكِن كانوا أَنفُسَهُم يَظلِمونَ ﴿٤٠﴾العنكبوت. وكل هذا فيه العبرة والتذكير من الله جل جلاله لإتباع أمره والإنقياد له لكل من استخلفه الله ولهذا فقد قال تعالى: وَلَقَد أَهلَكنَا القُرونَ مِن قَبلِكُم لَمّا ظَلَموا ۙ وَجاءَتهُم رُسُلُهُم بِالبَيِّناتِ وَما كانوا لِيُؤمِنوا ۚ كَذٰلِكَ نَجزِي القَومَ المُجرِمينَ ﴿١٣﴾ ثُمَّ جَعَلناكُم خَلائِفَ فِي الأَرضِ مِن بَعدِهِم لِنَنظُرَ كَيفَ تَعمَلونَ ﴿١٤﴾يونس. وهذا فيه أن الله جل جلاله ناظر إلى أعمالنا وأعمال الأمم ومجازيها بعدله سبحانه وتعالى.

2.18.2 الدولة المسلمة الظالمة

الدولة أو الأمة المسلمة الظالمة هي التي عرفت الحق بقبولها للإسلام دينا لها ولم تقم الميزان بظلمها فلم يعمل غالب أفرادها بتعاليم وأوامر الإسلام. فعقوبتها في الدنيا تكون بالهوان وعدم التمكين وهذا لأنها عرفت الحق ولم تعمل به على الوجه المطلوب منها فلم تقم العدل الذي أمرها الله به وهو الميزان الشرعي، أي أن أفرادها، حكاما كانوا أو محكومين، لم يقيموا العدل الذي به تحفظ الأموال، أو الأعراض، أو الدماء، وغيرها من الأمور التي تخالف الميزان الفطري، بالإضافة إلى مخالفة الميزان الديني كمنع الزكاة، أو الحكم بغير ما أنزل الله، وغيرها من الأوامر الدينية التي تخالف الميزان الشرعي،

وهذا يشمل الميزان الفطري والميزان الديني معا.

فعدل الدولة المسلمة لا يكون فقط بموافقة الميزان الفطري كما هو الحال بالنسبة للدولة الكافرة، وإنما يكون عدل الدولة المسلمة بموافقة الميزان الشرعي، أي الميزان الفطري والديني معا. وظلم الدولة المسلمة يكون بمخالفة الميزان الشرعي وهذا لما عرفت من الحق والدليل قوله تعالى: أَلَم تَرَ إِلَى الَّذينَ أوتوا نَصيبًا مِنَ الكِتابِ يُدعَونَ إِلىٰ كِتابِ اللَّهِ لِيَحكُمَ بَينَهُم ثُمَّ يَتَوَلّىٰ فَريقٌ مِنهُم وَهُم مُعرِضونَ ﴿٢٣﴾آل عمران. وقد جاء في تفسير السعدي أن الله تعالى يخبر عن حال أهل الكتاب الذين أنعم الله عليهم بكتابه، فكان يجب أن يكونوا أقوم الناس به وأسرعهم انقيادا لأحكامه، فأخبر الله عنهم أنهم إذا دعوا إلى حكم الكتاب تولى فريق منهم وهم يعرضون، تولوا بأبدانهم، وأعرضوا بقلوبهم، وهذا غاية الذم، وفي ضمنها التحذير لنا أن نفعل كفعلهم، فيصيبنا من الذم والعقاب ما أصابهم، بل الواجب على كل أحد إذا دعي إلى كتاب الله أن يسمع ويطيع وينقاد، كما قال تعالى إِنَّما كانَ قَولَ المُؤمِنينَ إِذا دُعوا إِلَى اللَّهِ وَرَسولِهِ لِيَحكُمَ بَينَهُم أَن يَقولوا سَمِعنا وَأَطَعنا ۚ وَأُولـٰئِكَ هُمُ المُفلِحونَ ﴿٥١﴾النور [1].

وقد قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: ولهذا يروى ان الله ينصر الدولة العادلة وان كانت كافرة، ولا ينصر الدولة الظالمة وان كانت مؤمنة (مجموع الفتاوى 28/63). والأصح أن يقال: "ولا ينصر الدولة الظالمة وإن كانت مسلمة"، وهذا لان الظلم ينافي الغاية من الإيمان وكماله وهو بلا شك معصية لله ورسوله والدليل قوله تعالى: قالَتِ الأَعرابُ آمَنّا ۖ قُل لَم تُؤمِنوا وَلـٰكِن قولوا أَسلَمنا وَلَمّا يَدخُلِ الإيمانُ في قُلوبِكُم ۖ وَإِن تُطيعُوا اللَّهَ وَرَسولَهُ لا يَلِتكُم مِن أَعمالِكُم شَيئًا ۚ إِنَّ اللَّهَ غَفورٌ رَحيمٌ ﴿١٤﴾الحجرات. فالدولة المؤمنة هي التي تطيع الله ورسوله ومن ذلك الحكم بالعدل، فإن خالفت أمر الله فقد خالفت الغاية من الإيمان وتكون أدنى مرتبة في الدين وهي مرتبة الإسلام وليس مرتبة الإيمان. فالله جل جلاله لم يكتب للأمة المسلمة الظالمة التمكين بل كتب لهم الهوان، ووعد سبحانه الذين ءامنوا بالتمكين

كما سيأتي بيانه في الأمة المؤمنة العادلة. ولهذا فقد جاء أيضا عن شيخ الإسلام هذا التصحيح فقال في موضع آخر: وَلِهَذَا قِيلَ: إنَّ اللَّهَ يُقِيمُ الدَّوْلَةَ الْعَادِلَةَ وَإِنْ كَانَتْ كَافِرَةً، وَلَا يُقِيمُ الظَّالِمَةَ وَإِنْ كَانَتْ مُسْلِمَةً. وَيُقَالُ: الدُّنْيَا تَدُومُ مَعَ الْعَدْلِ وَالْكُفْرِ وَلَا تَدُومُ مَعَ الظُّلْمِ وَالْإِسْلَامِ (مجموع الفتاوى 28/146).

والدولة المسلمة الظالمة ينالها من العقوبات والهوان ما لا ينال غيرها وهذا لأنها عرفت الحق أو انتسبت إليه ولم تعمل به أو تسعى للعمل به فينالها كل العقوبات الخمسة التي ذكرها النبي ﷺ كما تقدم في الجدول 1.2. ومن ذلك الذل والهوان وتسلط العدو لنقض عهد الله ورسوله أي مخالفة أمر الله كالربا والعينة وترك الجهاد فعَنِ ابْنِ عُمَرَ، قَالَ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ "إِذَا تَبَايَعْتُمْ بِالْعِينَةِ وَأَخَذْتُمْ أَذْنَابَ الْبَقَرِ وَرَضِيتُمْ بِالزَّرْعِ وَتَرَكْتُمُ الْجِهَادَ سَلَّطَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ ذُلاًّ لاَ يَنْزِعُهُ حَتَّى تَرْجِعُوا إِلَى دِينِكُمْ" (صححه الألباني). وهذا الذل يكون بتسلط الأعداء الكفار عليها وهذا لنقضها عهد الله وهو الميزان الشرعي الذي كلفهم الله به حبا في الدنيا، فهذا كله من أسباب الذل والهوان في الدنيا قبل الأخرة ومن أسباب تعجيل عقاب الله وتسلط الأعداء كما بين ذلك النبي ﷺ فعَنْ ثَوْبَانَ، قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ "يُوشِكُ الأُمَمُ أَنْ تَدَاعَى عَلَيْكُمْ كَمَا تَدَاعَى الأَكَلَةُ إِلَى قَصْعَتِهَا". فَقَالَ قَائِلٌ وَمِنْ قِلَّةٍ نَحْنُ يَوْمَئِذٍ قَالَ "بَلْ أَنْتُمْ يَوْمَئِذٍ كَثِيرٌ وَلَكِنَّكُمْ غُثَاءٌ كَغُثَاءِ السَّيْلِ وَلَيَنْزِعَنَّ اللَّهُ مِنْ صُدُورِ عَدُوِّكُمُ الْمَهَابَةَ مِنْكُمْ وَلَيَقْذِفَنَّ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمُ الْوَهَنَ". فَقَالَ قَائِلٌ يَا رَسُولَ اللَّهِ وَمَا الْوَهَنُ قَالَ "حُبُّ الدُّنْيَا وَكَرَاهِيَةُ الْمَوْتِ" (صححه الألباني).

وكل هذا فيه أيضا أن الله يمكن الأمم الأخرى كالدولة الكافرة على المسلمين ولو كانوا ظالمين لهم وهذا لأن المسلمين خالفوا أمر الله الشرعي فيمسهم من الظلم والهوان ما لا يمس غيرهم حتى يرجعوا إلى دينهم الذي كلفهم الله به. ولم يستثني الرسول ﷺ من الأمم الأخرى وهذا بالعموم فتكون بذلك الأمة الكافرة الظالمة والأمة الكافرة العادلة مسلطة على الأمة المسلمة الظالمة. وهذا إنما

لحكمة الله وعدله ورحمته فلو كان التمكين للأمة المسلمة الظالمة لطغت على أمر الله ولتجبرت ولتركت هذا الدين العظيم ظلما وعدوانا وغرورا ولكان حالها كحال الأمم السابقة التي فرحت بما كان لديها من العلم السببي ولتركت أمر الله الشرعي كما هي عادة البشر في من سبق من الذين خلوا من قبل. وهذا لا يكون لأن الله جل جلاله أراد لهذا الدين أن يبقى إلى قبل قيام الساعة. وسيأتي بيان ذلك في دولة الحكم الرشيد وهي الدولة المؤمنة العادلة.

وقد نهى النبي ﷺ عن الخروج على الدولة المسلمة الظالمة وبالأخص لما يترتب على ذلك من ظلم الذي يخالف الميزان الفطري والذي به يكون فساد المصالح العامة في الدنيا كسفك الدماء ونهب الأموال وهتك الأعراض، والتي هي أشد ظلما في الدنيا من الظلم الذي يكون بمخالفة الميزان الديني كمنع الزكاة أو الحكم بغير ما أنزل الله من باب الهوى. وقد تقدم معنا أن الله جل جلاله قدم في الدنيا إقامة الميزان بين الناس بالعدل على إقامة الحق في نفوس الناس لتقديم المصلحة العامة على الخاصة. ولذلك فقد نهى النبي ﷺ عن الخروج على ولاة الأمر المسلمين ولو كانوا ظالمين وعاصين لله ولرسوله ما أقاموا فينا الصلاة وكفى بنا أن نبغضهم في الله على ما عصوا به الله ورسوله كما جاء عن عوف بن مالك الأشجعي أن النبي ﷺ قال: خِيارُ أَئِمَّتِكُمُ الَّذِينَ تُحِبُّونَهُمْ ويُحِبُّونَكُمْ، ويُصَلُّونَ عَلَيْكُم وتُصَلُّونَ عليهم، وشِرارُ أَئِمَّتِكُمُ الَّذِينَ تُبْغِضُونَهُمْ ويُبْغِضُونَكُمْ، وتَلْعَنُونَهُمْ ويَلْعَنُونَكُمْ، قيلَ: يا رَسولَ اللهِ، أفَلا نُنابِذُهُمْ بالسَّيْفِ؟ فقالَ: لا، ما أقامُوا فِيكُمُ الصَّلاةَ، وإذا رَأَيْتُمْ مِن وُلاتِكُمْ شيئًا تَكْرَهُونَهُ، فاكْرَهُوا عَمَلَهُ، ولا تَنْزِعُوا يَدًا مِن طاعَةٍ، وفي رواية أخرى، قالَ: لا، ما أقامُوا فِيكُمُ الصَّلاةَ، لا، ما أقامُوا فِيكُمُ الصَّلاةَ، ألا مَن ولِيَ عليه والٍ، فَرَآهُ يَأْتي شيئًا مِن مَعْصِيَةِ اللهِ، فَلْيَكْرَهْ ما يَأْتي مِن مَعْصِيَةِ اللهِ، ولا يَنْزِعَنَّ يَدًا مِن طاعَةٍ (صحيح مسلم، وصححه الألباني في تخريج كتاب السنة). للمزيد من التفاصيل، راجع فصل 9.9 مسألة الخروج على ولي أمر المسلمين.

ولهذا يجب على الدولة المسلمة الظالمة التي تنتسب إلى الإسلام الرجوع لأمر الله جل جلاله بتحكيم شرع الله والذي به تحفظ الدماء والأموال والأعراض بما يرضي الله جل جلاله. وقد قال الشيخ ابن باز رحمه الله: والواجب على كل دولة إسلامية أن تحذر نقمة الله، وأن تبادر بتحكيم شريعة الله، وأن تتقي الله في ذلك، كل دولة تنتسب للإسلام ثم تتساهل في هذا الأمر فقد أتت أمرًا عظيمًا، وإذا كان تساهلها عن اعتقاد الجواز وإنه لا يجب عليها تحكيم شريعة الله فهذه دولة كافرة كفراً أكبر، نعوذ بالله، إذا اعتقدت أنه لا يلزمها الحكم بشريعة الله، وأنه يجوز لها الحكم بهذه القوانين فهذا كفر أكبر، وردة عظمى [.] ولا حول ولا قوة إلا بالله. نسأل الله السلامة والعافية (أحوال الحكم بغير ما أنزل الله، التعليقات على ندوات الجامع الكبير).

2.18.3 الدولة الكافرة الظالمة

الدولة أو الأمة الكافرة الظالمة هي التي لم تقبل الحق بكفرها ولم تقم الميزان بظلمها فيمسها من العقوبات في الدنيا بحسب ما قامت به الحجة عليهم سواءا كان لها التمكين أو لم يكن ولكن الله جل جلاله يؤخذها في الدنيا بمخالفة أدنى درجات العدل وهو الميزان الفطري. فعدل الدولة الكافرة يكون بموافقة الميزان الفطري، أي أن أفرادها، حكاما كانوا أو محكومين، لم يقيموا العدل الذي به تحفظ الأموال (كالغش في الكيل)، أو الأعراض (كالزنى واللواط)، أو الدماء (كالجور والقتل بغير حق)، وغيرها من الأمور التي تخالف الميزان الفطري.

وهذا يكون للأمم أو الدول الكافرة الظالمة اللاحقة التي لم يبعث لها رسول على وجه الخصوص فلها من العذاب في الدنيا بحسب ما قامت به عليهم الحجة ومن ذلك قوله تعالى: مَنِ اهتَدىٰ فَإِنَّما يَهتَدي لِنَفسِهِ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّما يَضِلُّ عَلَيها ۚ وَلا تَزِرُ وازِرَةٌ وِزرَ أُخرىٰ ۗ وَما كُنّا مُعَذِّبينَ حَتّىٰ نَبعَثَ رَسولًا

﴿١٥﴾الإسراء. فالله جل جلاله يؤاخذهم في الدنيا بمخالفتهم للميزان الفطري ولهذا فقد عمم رسولنا ﷺ العقوبة في المخالفات التي تخالف الفطرة السليمة كما تقدم معنا بيانه في الجدول 1.2 كالمجاهرة بالمعاصي والغش في الكيل. ومن حكمة الله وعدله أن الله يسلط الأمم الأخرى أي الأمم الكافرة على الدولة المسلمة الظالمة حتى ترجع إلى دينها ولهذا فقد قال النبي ﷺ: "يُوشِكُ الأُمَمُ أَنْ تَدَاعَى عَلَيْكُمْ كَمَا تَدَاعَى الأَكَلَةُ إِلَى قَصْعَتِهَا، ألى أن قال: وَلَيَنْزِعَنَّ اللَّهُ مِنْ صُدُورِ عَدُوِّكُمُ الْمَهَابَةَ مِنْكُمْ وَلَيَقْذِفَنَّ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمُ الْوَهَنَ (صححه الألباني). وقد تقدم بيان ذلك في حال الدولة المسلمة الظالمة وكيف تتكالب عليها الأمم الأخرى.

2.18.4 الدولة الكافرة العادلة

الدولة أو الأمة الكافرة العادلة هي التي لم تقبل الحق بكفرها ولم تقم الميزان الشرعي بمخالفة الميزان الديني ولكن أقامت أدنى درجات العدل وهو الميزان الفطري فتسلم بذلك في الدنيا من العقوبات بحسب ما وافقت به الفطرة وينزل عليها العذاب لمخالفة الحق والميزان الديني بحسب ما قامت به الحجة عليهم. ولكن الله يجعل لها من التمكين والنصر بحسب ما قامت به من العدل. وهذا لأن عدل الدولة الكافرة يكون بموافقة الميزان الفطري، أي أن أفرادها، حكاما كانوا أو محكومين، أقاموا العدل الذي به تحفظ الأموال، أو الأعراض، أو الدماء، وغيرها من الأمور التي توافق الميزان الفطري. وقد تقدم معنا ما نقله شيخ الإسلام ابن تيمية: وَلِهَذَا قِيلَ: إنَّ اللَّهَ يُقِيمُ الدَّوْلَةَ الْعَادِلَةَ وَإِنْ كَانَتْ كَافِرَةً، وَلَا يُقِيمُ الظَّالِمَةَ وَإِنْ كَانَتْ مُسْلِمَةً. وَيُقَالُ: الدُّنْيَا تَدُومُ مَعَ الْعَدْلِ وَالْكُفْرِ وَلَا تَدُومُ مَعَ الظُّلْمِ وَالْإِسْلَامِ (مجموع الفتاوى 28/146).

وهذا ينطبق اليوم على حال كثير من دول الغرب التي على ما فيها من الكفر بدين الإسلام إلا أن

القانون فيها نافذ على جميع مواطنيها فتعطى الحقوق وتقام الحدود بدون تفريق على ضعيفهم وشريفهم وبما اتفقوا عليه في برلماناتهم التشريعية ولهذا فقد سلموا في غالبهم من جور سلاطينهم عليهم. فمن ذلك على سبيل المثال الأنظمة الإجتماعية التي فيها تجمع الأموال من العاملين والشركات كالضرائب فتعطى لفقرائهم ومساكينهم وتمول بها البنى التحتية من خدمات صحية وغيرها والتي فيها صلاح معيشتهم. ومن ذلك أيضا فصل الأجهزة الرقابية والتشريعية عن الجيهات التنفيذية لمراقبتها ومحاسبتها ومراجعتها وإنفاذ القانون على من يستغل السلطة لسرقة المال العام أو التلاعب به وإهداره. وكل هذا لما لهم من الأخلاق والمحاسن الإنسانية الموافقة للفطرة من الصدق في القول والأمانة في العمل وهذا لا يخفى على كل من عاش في بلادهم. وقد أدرك ذلك الصحابي عمرو بن العاص بعدما سمع المستورد بن شداد يقول أن النبي ﷺ قال: تَقُومُ السَّاعَةُ والرُّومُ أَكْثَرُ النَّاسِ. فَقالَ له عَمْرٌو بن العاص: أبْصِرْ ما تَقُولُ، قالَ: أقُولُ ما سَمِعْتُ مِن رَسولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عليه وسلَّمَ، قالَ: لَئِنْ قُلْتَ ذلكَ، إنَّ فيهم لَخِصالًا أرْبَعًا: إنَّهُمْ لأَحْلَمُ النَّاسِ عِنْدَ فِتْنَةٍ، وأَسْرَعُهُمْ إفاقَةً بَعْدَ مُصِيبَةٍ، وأَوْشَكُهُمْ كَرَّةً بَعْدَ فَرَّةٍ وخَيْرُهُمْ لِمِسْكِينٍ ويَتِيمٍ وضَعِيفٍ، وخامِسَةٌ حَسَنَةٌ جَمِيلَةٌ: وأَمْنَعُهُمْ مِن ظُلْمِ المُلُوكِ. وفي رواية أخرى: إنَّهُمْ لأَحْلَمُ النَّاسِ عِنْدَ فِتْنَةٍ، وأَجْبَرُ النَّاسِ عِنْدَ مُصِيبَةٍ، وخَيْرُ النَّاسِ لِمَساكِينِهِمْ وضُعَفائِهِمْ (صحيح مسلم).

وكل هذا فيه أن الدولة الكافرة العادلة لها وعليها، فيذم كفرها ويحمد عدلها، ولا يرد عليها كل أمرها، بل يحمد ما فيها من العدل والإنصاف والمحاسن الإنسانية الموافقة للفطرة، ويذم ما فيها من كفر وفسق وعدوان على دين الله ورسله وهذا ما أوصانا به جل جلاله في كتابه العظيم فقال: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنوا كونوا قَوّامينَ لِلَّهِ شُهَداءَ بِالقِسطِ ۖ وَلا يَجرِمَنَّكُم شَنَآنُ قَومٍ عَلىٰ أَلّا تَعدِلُوا ۚ اعدِلوا هُوَ أَقرَبُ لِلتَّقوىٰ ۖ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ خَبيرٌ بِما تَعمَلونَ ﴿٨﴾ المائدة. وقال القرطبي في تفسيره: ودلت الآية أيضا على أن كفر الكافر لا يمنع من العدل عليه. وقال ابن كثير في تفسيره: وقوله: (ولا يجرمنكم شنآن

قوم على ألا تعدلوا) أي: لا يحملنكم بغض قوم على ترك العدل فيهم، بل استعملوا العدل في كل أحد، صديقا كان أو عدوا. للمزيد من التفاصيل، راجع فصل 9.8 مسألة العدل مع الكفار.

2.18.5 الدولة المؤمنة العادلة

الدولة أو الأمة المؤمنة العادلة هي التي عرفت الحق بقبولها للإسلام دينا لها وأقامت الميزان الشرعي التي أمرها الله به فعمل غالب أفرادها بتعاليم وأوامر الإسلام بإقامة الحق في أنفسهم وإقامة الميزان الشرعي فيما بينهم. فجزائها في الدنيا يكون بالتمكين على سائر الأمم الأخرى وهذا لأنها عرفت الحق وعملت به على الوجه المطلوب منها فأقامت العدل الذي أمرها الله به وهو الميزان الشرعي، أي أن أفرادها، حكاما كانوا أو محكومين، أقاموا العدل الذي به تحفظ الأموال، والأعراض، والدماء، وغيرها من الأمور التي توافق الميزان الفطري، بالإضافة إلى إقامة الميزان الديني كأداء الزكاة، والوفاء بعهد الله ورسوله، والحكم بما أنزل الله، وغيرها من الأوامر الدينية التي توافق الميزان الشرعي، وهذا يشمل الميزان الفطري والميزان الديني معا.

فالدولة المؤمنة العادلة هي التي آمنت بالحق وهو العلم الشرعي الصحيح من كتاب الله وسنة نبيه الثابتة والصحيحة وأقامت الميزان الشرعي بالعدل والقسط إتباعا لأمر الله جل جلاله. وقد وعدها جل جلاله بالتمكين فقال: وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنوا مِنكُم وَعَمِلُوا الصّالِحاتِ لَيَستَخلِفَنَّهُم فِي الأَرضِ كَما استَخلَفَ الَّذِينَ مِن قَبلِهِم وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُم دينَهُمُ الَّذِي ارتَضىٰ لَهُم وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِن بَعدِ خَوفِهِم أَمنًا ۚ يَعبُدونَني لا يُشرِكونَ بي شَيئًا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعدَ ذٰلِكَ فَأُولـٰئِكَ هُمُ الفاسِقونَ ﴿٥٥﴾النور. وهذا فيه أن الله نعتهم بالإيمان لأنهم آمنوا بالحق وعملوا الصالحات الموافقة للميزان الشرعي الذي يرضي الله جل جلاله ومن أجل ذلك التوحيد وهو عبادة الله وحده لا شريك له، فوافقوا بذلك المعنى الحقيقي لكلمة التوحيد

بإقامة الحق في أنفسهم وإقامة العدل فيما بينهم. وهذا بخلاف ما ينشر الأن أن التمكين يأتي بإقامة التوحيد في أنفس العباد فقط دون الإشارة إلى ما يلزم ذلك من إقامة العدل فيما بين العباد وهذا بخلاف الأدلة والبراهين الواضحة من كتاب الله جل جلاله.

والأمة المؤمنة العادلة منصورة بوعد الله عز وجل وبوعد الرسول ﷺ إلى آخر الزمان حتى يقبضهم الله جل جلاله قبل قيام الساعة فعن عقبة بن نافع أنه سمع رَسولَ اللهِ ﷺ يقولُ: لا تَزَالُ عِصَابَةٌ مِن أُمَّتِي يُقَاتِلُونَ علَى أَمْرِ اللهِ، قَاهِرِينَ لِعَدُوِّهِمْ، لا يَضُرُّهُمْ مَن خَالَفَهُمْ، حتَّى تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ وَهُمْ علَى ذلكَ. فَقالَ عبدُ اللهِ: أَجَلْ، ثُمَّ يَبْعَثُ اللَّهُ رِيحًا كَرِيحِ المِسْكِ مَسُّهَا مَسُّ الحَرِيرِ، فلا تَتْرُكُ نَفْسًا في قَلْبِهِ مِثْقَالُ حَبَّةٍ مِنَ الإيمَانِ إلَّا قَبَضَتْهُ، ثُمَّ يَبْقَى شِرَارُ النَّاسِ عليهم تَقُومُ السَّاعَةُ (صحيح مسلم).

والدولة المؤمنة العادلة هي دولة الحكم الرشيد وهي الدولة التي أسسها النبي ﷺ وبدأها بالإصلاح الديني أولا ومن ثم قام عليها الخلفاء المهديين الراشدين من بعده بالإصلاح الديني والدنيوي معا حيث أقاموا الحق والميزان الشرعي مع الأخذ بالأسباب فكتب الله لهم التمكين وجعلهم ملوكا في الأرض حتى بلغ الإسلام الهند والصين شرقا وبلاد الأندلس وأروبا غربا. وسيأتي تفصيل ذلك في فصل الحكم الرشيد.

ولقد وضع النبي ﷺ لنا أسس هذه الدولة التي يحكم فيها بكتاب الله عز وجل وسنة نبيه ويكون فيها الشورى، والرحمة، واللين، والحكمة، والعدل، والرشاد. ففي هذه الدولة يتساوى فيها المسلمين في الحقوق والواجبات الأساسية ومن أعظم ذلك حرمة الدم والمال والعرض وإن اختلفت ألوانهم وأشكالهم فقال ﷺ: يا أَيُّها النَّاسُ، أَلَا إنَّ ربَّكم واحِدٌ، وإنَّ أباكم واحِدٌ، أَلَا لا فَضْلَ لِعَربِيٍّ على عَجَمِيٍّ، ولا لعَجَمِيٍّ على عَرَبِيٍّ، ولا أحمَرَ على أسوَدَ، ولا أسوَدَ على أحمَرَ، إلَّا بالتَّقْوى، إلى أن قال: فإنَّ اللهَ قد حَرَّمَ بيْنَكم دِماءَكم وأمْوالَكم وأعْراضَكم كحُرْمةِ يَومِكم هذا، في شَهرِكم هذا، في بَلَدِكم هذا،

(صحيح، تخريج المسند لشعيب، الصحيح المسند). ومن ذلك أيضا أن المسلمين يتساوون أيضا في الحدود وهذا من عدل الإسلام إذ تطبق الحدود على الشريف والضعيف على حد السواء بدون تفريق فقد صح عن النبي ﷺ قال: لو أَنَّ فَاطِمَةَ بِنْتَ مُحَمَّدٍ سَرَقَتْ لَقَطَعْتُ يَدَهَا (صحيح مسلم).

وكل هذا فيه أن دولة الحكم الرشيد هي الدولة المؤمنة العادلة التي تقام بإقامة الحق في النفوس وإقامة الميزان بين النفوس مع الأخذ بالأسباب. وهي الدولة التي تحفظ فيها الدماء والأموال والأعراض بما يرضي الله جل جلاله، فيقام فيها الكيل بالقسط، وتؤدى فيها الزكاة، وتقام فيها الحدود، وتتبع فيها أوامر الله جل جلاله من الحكام والمحكومين، كل بما أوتمن عليه من الأمانة، وما فرض عليه من العهد والميثاق، فكل ذلك سيئل عليه الجميع يوم الحساب. وهي الدولة التي حكامها يتخيرون في حكمهم مما أنزل الله جل جلاله حتى لا يكون حالهم كحال الدولة المسلمة الظالمة كما حذر من ذلك النبي ﷺ كما تقدم.

2.18.6 ملخص حال الأمم

بالتتبع والإستقراء يتبين أن الله يقيم الأمم التي تحكم بالعدل الذي يوافق الفطرة وإن كانت كافرة. فإن في ذلك سلامة من عذاب الله في الدنيا كما تقدم. فإن كانت مؤمنة وتحكم بالعدل كانت حكما راشدا ووعدها الله بالتمكين في الدنيا والفوز في الأخرة. وإن كانت مسلمة ولا تحكم بالعدل فقد خالفت حكمة الله والغاية من إيمانها الذي يقتضي إقامة العدل والميزان ويصدق فيها قوله تعالى: قالَتِ الأَعرابُ آمَنّا ۖ قُل لَم تُؤمِنوا وَلـٰكِن قولوا أَسلَمنا وَلَمّا يَدخُلِ الإيمانُ في قُلوبِكُم ۖ وَإِن تُطيعُوا اللَّهَ وَرَسولَهُ لا يَلِتكُم مِن أَعمالِكُم شَيئًا ۚ إِنَّ اللَّهَ غَفورٌ رَحيمٌ ﴿١٤﴾الحجرات. وهذا هو حال أغلب أمة الإسلام في يومنا هذا كما هو معروف. فتكون بذلك الأمة الكافرة التي تحكم بالعدل قائمة فوق الأمة المسلمة التي لا تحكم بالعدل.

وأما الأمة المؤمنة التي تقيم الحق وأجله التوحيد وما يقتضيه ذلك من إقامة الميزان ومنه العدل بين الناس مع الأخذ بالأسباب تكون هي فوقهم جميعا كما دلت على ذلك الآيات والأحاديث. وهذا فيه الحكمة البالغة من الله عز وجل ومنه أن الله لا يرضى لعباده الظلم. ولا يزال الذل والهوان هو حال الأمة المسلمة الظالمة حتى تقيم في غالبها، حكاما ومحكومين، الميزان الشرعي بالعدل الذي أمر الله به. وقد قال تعالى: إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ ما بِقَومٍ حَتّىٰ يُغَيِّروا ما بِأَنفُسِهِم وَإِذا أَرادَ اللَّهُ بِقَومٍ سوءًا فَلا مَرَدَّ لَهُ وَما لَهُم مِن دونِهِ مِن والٍ ﴿١١﴾ الرعد.

وبهذا يعلم أن الأمم إنما تقام بإقامة الميزان بالعدل بين الناس فإن تحقق ذلك سلمت سخط الله وعذابه في الدنيا وإن كانت كافرة. فإن لم تقم الميزان بالعدل بين الناس، تكون بذلك قد جنت على نفسها عقاب الله العاجل في الدنيا من فقر وجوع وذل وجور السلطان وإن كانت مسلمة. وأما إن كانت مؤمنة وأقامت الحق مع إقامة الميزان والأخذ بالأسباب كما أمر الله تعالى كانت حكما راشدا وتحقق لها التمكين في الدنيا والفوز في الأخرة. وأما إقامة التوحيد دون إقامة الميزان وما يقتضيه من العدل بين الناس فهذا ينافي حكمة الله وأمره الذي بينه في كتابه وعلى لسان نبيه ﷺ. ولهذا وجب على المسلمين ودعاتهم الرجوع إلى أمر الله وعدم التهاون في ذلك بالعناية بإقامة الحق وأجلُّه التوحيد وإقامة الميزان وأجلُّه العدل بين الناس على حد السواء، مع الأخذ بالأسباب حتى يكون لهم التمكين الذي وعد الله به. ولمعرفة الأسباب وفهمها وجب علينا العناية بعلم الحساب بحثا وتطبيقا سعيا لتحقيق هذه الغاية العظيمة التي أمرنا الله بها، والتي عليها يبنى الحكم الرشيد.

وبهذا يعلم أن الحساب الصحيح يكون سبيلا إلى الحكم بالعدل والحكم الرشيد. فإن وافق الحساب الميزان الفطري (أي الفطرة السليمة) كان ذلك نجاة من سخط الله وعذابه في العاجلة (اي في الدنيا). ومثال ذلك أن يكون حساب البائع حسابا صحيحا مع زبائنه بدون غش أو نقص. وإن وافق الحساب

الميزان الديني كان ذلك نجاة من سخط الله وعذابه في الأخرة. ومثال ذلك حساب المواريث والزكاة الحساب الصحيح. وإن وافق الحساب الميزان الشرعي (أي الميزان الفطري والميزان الديني معا) كان ذلك نجاة من سخط الله وعذابه في الدنيا والآخرة معا. ومثال ذلك إخراج الزكاة صحيحة وكاملة من تجارة لا غش فيها ولا ظلم. وفي غالب الأحيان يكون الحساب الموافق للميزان الديني موافقا أيضا للميزان الفطري وهذا لأن الدين جاء موافقا للفطرة ومكملا لها. ولهذا كان الحساب الصحيح لإقامة الحق والميزان الشرعي من بنيان الحكم الرشيد. وعليه يكون علم الحساب من الدين بالضرورة وليس بخلاف ذلك إذ يتعذر إقامة الميزان حق إقامته من دون حساب صحيح. وهو أيضا مفتاح العلوم السببية، إذ يتعذر معرفة الأسباب وفهمها من دون حساب صحيح.

والدولة المؤمنة العادلة لا تأتي بالعواطف والأوهام، إنما تكون عن علم وإخلاص في القول والعمل وصبر على أقدار الله ويقين بوعد الله عز وجل. وهذا يتطلب الجهاد في سبيل الله جهاد النفس وجهاد الغير سعيا لإقامة الحق والميزان الشرعي وليس لإبتغاء السلطة أو العلو في الأرض وإنما لنشر الحق والعدل الذي أمر الله به. وهذا لا يقوم به إلا من أخلص لله حقا وباع نفسه وماله لله عن صدق ورضي أن يدخل مع الله في هذه التجارة الرابحة ولهذا فقد قال جل جلاله: إِنَّ اللَّهَ اشتَرىٰ مِنَ المُؤمِنينَ أَنفُسَهُم وَأَموالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الجَنَّةَ ۚ يُقاتِلونَ فِي سَبيلِ اللَّهِ فَيَقتُلونَ وَيُقتَلونَ ۖ وَعدًا عَلَيهِ حَقًّا فِي التَّوراةِ وَالإِنجيلِ وَالقُرآنِ ۚ وَمَن أَوفىٰ بِعَهدِهِ مِنَ اللَّهِ ۚ فَاستَبشِروا بِبَيعِكُمُ الَّذي بايَعتُم بِهِ ۚ وَذٰلِكَ هُوَ الفَوزُ العَظيمُ ﴿١١١﴾ التوبة. وهذه التجارة مع الله لإبتغاء مرضاته والسعي لبلوغ جنته التي وعد المتقين وللنجاة من عذابه وسخطه يوم الحساب. ولهذا يأتي بيان حساب الله قبل بيان الحكم الرشيد حتى يعلم الإنسان ما فيه نجاته يوم الحساب، وأن الغاية ليست الحكم الرشيد أو الخلافة الراشدة في حد ذاتها كما يتغنى بذلك الكثير من الواهمين، إنما الحكم الرشيد والخلافة الراشدة هي وسيلة لغاية عظيمة وهي

إقامة الحق والميزان مع الأخذ بالأسباب كما بين جل جلاله ذلك في كتابه العظيم.

حساب الله

3.1 مقدمة

العد والإحصاء والحساب كلها داخلة صفات الله جل جلاله وأفعاله، وهذا من كمال عدله سبحانه حتى يعطي لكي ذي حق حقه يوم الحساب. ولقد أثبت سبحانه في مواضع كثيره في كتابه العظيم أنه سبحانه أحصى كل شئ عددا، وأنه سبحانه سريع الحساب كما يليق بجلاله بدون تشبيه أو تكييف أو تعطيل أو تمثيل. ومن ذلك أن الله جل جلاله قدر المقادير كلها وأحصاها عددا ويقوم سبحانه بمحاسبة كل نفس يوم الحساب وهو سبحانه سريع الحساب وهو أسرع الحاسبين.

ومن حكمة الله وكمال علمه أنه سبحانه أحصى كل شئ كما في قوله تعالى: وَأَحصىٰ كُلَّ شَيءٍ عَدَدًا ﴿٢٨﴾ الجن. بل إن علمه سبحانه بذلك قد سبق فعله كما في قوله تعالى: وَكُلَّ شَيءٍ أَحصَيناهُ كِتابًا ﴿٢٩﴾ النبأ. وجاء في تفسير السعدي: (وَكُلُّ شَيْءٍ) من قليل وكثير، وخير وشر (أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا) أي: كتبناه في اللوح المحفوظ [1]. ولهذا فإن الحسيب من أسماء الله عز وجل كما في قوله تعالى: وَإِذا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيّوا بِأَحسَنَ مِنها أَو رُدّوها ۗ إِنَّ اللَّهَ كانَ عَلىٰ كُلِّ شَيءٍ حَسيبًا ﴿٨٦﴾ النساء. وقوله تعالى:

الَّذينَ يُبَلِّغونَ رِسالاتِ اللَّهِ وَيَخشَونَهُ وَلا يَخشَونَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ ۗ وَكَفىٰ بِاللَّهِ حَسيبًا ﴿٣٩﴾ الأحزاب. والله يحاسب خلقه في تدبيره لهذا الكون كل بحسب حاله كما في قوله تعالى في الكافرين: وَكَأَيِّن مِن قَريَةٍ عَتَت عَن أَمرِ رَبِّها وَرُسُلِهِ فَحاسَبناها حِسابًا شَديدًا وَعَذَّبناها عَذابًا نُكرًا ﴿٨﴾ الطلاق. فهو سبحانه المحاسب لعباده والمجازي لهم في الدنيا والآخرة [1].

ومن كمال عدله سبحانه أنه يحصى أعمال العباد ليوم الحساب كما في قوله تعالى: إِنّا نَحنُ نُحيِي المَوتىٰ وَنَكتُبُ ما قَدَّموا وَآثارَهُم ۚ وَكُلَّ شَيءٍ أَحصَيناهُ في إِمامٍ مُبينٍ ﴿١٢﴾ يس. وقوله تعالى: يَومَ يَبعَثُهُمُ اللَّهُ جَميعًا فَيُنَبِّئُهُم بِما عَمِلوا ۚ أَحصاهُ اللَّهُ وَنَسوهُ ۚ وَاللَّهُ عَلىٰ كُلِّ شَيءٍ شَهيدٌ ﴿٦﴾ المجادلة. ولهذا يوم القيامة يقول تعالى: وَوُضِعَ الكِتابُ فَتَرَى المُجرِمينَ مُشفِقينَ مِمّا فيهِ وَيَقولونَ يا وَيلَتَنا مالِ هـٰذَا الكِتابِ لا يُغادِرُ صَغيرَةً وَلا كَبيرَةً إِلّا أَحصاها ۚ وَوَجَدوا ما عَمِلوا حاضِرًا ۗ وَلا يَظلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾ الكهف. ومن كمال عدله سبحانه أنه أحصى الأعمال كلها ويضع لها موازين القسط لحساب المكلفين من الجن والإنس حسابا ظاهرا لإظهار عدله سبحانه كما في قوله تعالى: وَنَضَعُ المَوازينَ القِسطَ لِيَومِ القِيامَةِ فَلا تُظلَمُ نَفسٌ شَيـًٔا ۖ وَإِن كانَ مِثقالَ حَبَّةٍ مِن خَردَلٍ أَتَينا بِها ۗ وَكَفىٰ بِنا حاسِبينَ ﴿٤٧﴾ الأنبياء. فيتنازع الخصماء يوم القيامة عند الله كما في قوله تعالى: ثُمَّ إِنَّكُم يَومَ القِيامَةِ عِندَ رَبِّكُم تَختَصِمونَ ﴿٣١﴾ الزمر. يحكم الله جل جلاله بعدله يوم القيامة بين الناس كما في قوله تعالى: اللَّهُ يَحكُمُ بَينَكُم يَومَ القِيامَةِ فيما كُنتُم فيهِ تَختَلِفونَ ﴿٦٩﴾ الحج. فيجد كل مكلف كتابا له مكتوب فيه كل أعماله كما في قوله تعالى: وَكُلَّ إِنسانٍ أَلزَمناهُ طائِرَهُ في عُنُقِهِ ۖ وَنُخرِجُ لَهُ يَومَ القِيامَةِ كِتابًا يَلقاهُ مَنشورًا ﴿١٣﴾ الإسراء. ومن كمال عدله سبحانه أنه يعطي لكل مكلف كتابه يقرأه بنفسه كما في قوله تعالى: اقرَأ كِتابَكَ كَفىٰ بِنَفسِكَ اليَومَ عَلَيكَ حَسيبًا ﴿١٤﴾ إبراهيم.

وكل هذا الإحصاء حتى يوفي الله جل جلاله أجور المكلفين في حكمه الجزائي من جنة أو نار، وبحسب ما كلفهم به في حكمه الشرعي من طاعة أو عصيان، وبحسب ما شاء لهم في حكمه الكوني من حياة أو موت ومن هداية أو ضلال، كما في قوله تعالى: كُلُّ نَفسٍ ذائِقَةُ المَوتِ ۗ وَإِنَّما تُوَفَّونَ أُجورَكُم يَومَ القِيامَةِ ۖ فَمَن زُحزِحَ عَنِ النّارِ وَأُدخِلَ الجَنَّةَ فَقَد فازَ ۗ وَمَا الحَياةُ الدُّنيا إِلّا مَتاعُ الغُرورِ ﴿١٨٥﴾آل عمران. ولهذا فقد سمى الله جل جلاله يوم القيامة بيوم الحساب الذي فيه يكون الجزاء كما في قوله تعالى: هـٰذا ما توعَدونَ لِيَومِ الحِسابِ ﴿٥٣﴾ص. فيحاسب المؤمنين حسابا يسيرا كما في قوله تعالى: فَأَمّا مَن أوتِيَ كِتابَهُ بِيَمينِهِ ﴿٧﴾ فَسَوفَ يُحاسَبُ حِسابًا يَسيرًا ﴿٨﴾ وَيَنقَلِبُ إِلىٰ أَهلِهِ مَسرورًا ﴿٩﴾الانشقاق. ويحاسب الكافرين حسابا عسيرا كما في قوله تعالى: وَأَمّا مَن أوتِيَ كِتابَهُ وَراءَ ظَهرِهِ ﴿١٠﴾ فَسَوفَ يَدعو ثُبورًا ﴿١١﴾ وَيَصلىٰ سَعيرًا ﴿١٢﴾ إِنَّهُ كانَ في أَهلِهِ مَسرورًا ﴿١٣﴾ إِنَّهُ ظَنَّ أَن لَن يَحورَ ﴿١٤﴾ بَلىٰ إِنَّ رَبَّهُ كانَ بِهِ بَصيرًا ﴿١٥﴾الانشقاق. وقد صح أن عائشة أم المؤمنين أنها قالت: سمعتُ النبيَّ ﷺ يقولُ في بعضِ صلاتهِ : اللهمَّ حاسِبني حسابًا يسيرًا، فلمَّا انصرف قلتُ: يا نبيَّ اللهِ ما الحسابُ اليسيرُ؟ قال: أنْ ينظرَ في كتابهِ فيتجاوزَ عنه، إنَّه من نوقِشَ الحسابَ يومئذٍ يا عائشةُ هلكَ (بإسناد جيد، الألباني أصل صفة الصلاة). وهذا فيه أن الحساب اليسير هو العرض الذي فيه يتجاوز عن السيئات وتجزى الحسنات وتضاعف برحمة الله وأن الحساب العسير هو النقاش الذي فيه حساب الحسنات والسيئات كبيرها وصغيرها ولا يتجاوز عن شيئ منها بعدل الله وكلاهما حساب. وهذا فيه أن الأنبياء والرسل سيحاسبون يوم القيامة.

ولهذا فإن الله عز وجل أحصى كل شئ عددا حتى يقوم بنفسه جل جلاله بحاسب المكلفين بعدله يوم الحساب وهو سبحانه سريع الحساب كما في قوله تعالى: وَإِن ما نُرِيَنَّكَ بَعضَ الَّذي نَعِدُهُم أَو نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّما عَلَيكَ البَلاغُ وَعَلَينَا الحِسابُ ﴿٤٠﴾ أَوَلَم يَروا أَنّا نَأتِي الأَرضَ نَنقُصُها مِن أَطرافِها ۚ وَاللَّهُ

يَحكُمُ لا مُعَقِّبَ لِحُكمِهِ ۚ وَهُوَ سَريعُ الحِسابِ ﴿٤١﴾الرعد. ومن عدل الله أنه سبحانه سريع الحساب وحسابه لا يكون إلا بما كسبت كل نفس كما في قوله تعالى: لِيَجزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفسٍ ما كَسَبَت ۚ إِنَّ اللَّهَ سَريعُ الحِسابِ ﴿٥١﴾إبراهيم. وأنه سبحانه سريع الحساب ولكن حسابه لا ظلم فيه كما في قوله تعالى: اليَومَ تُجزىٰ كُلُّ نَفسٍ بِما كَسَبَت ۚ لا ظُلمَ اليَومَ ۚ إِنَّ اللَّهَ سَريعُ الحِسابِ ﴿١٧﴾غافر. ولهذا فقد وصف الله جل جلاله نفسه بأنه أسرع الحاسبين كما في قوله تعالى: ثُمَّ رُدّوا إِلَى اللَّهِ مَولاهُمُ الحَقِّ ۚ أَلا لَهُ الحُكمُ وَهُوَ أَسرَعُ الحاسِبينَ ﴿٦٢﴾الأنعام. وقد كان النبي يدعو الله بصفة سريع الحساب ومن ذلك عندما دعا علَى الأَحْزَابِ، فَقَالَ: اللَّهُمَّ مُنْزِلَ الكِتَابِ، سَرِيعَ الحِسَابِ، اهْزِمِ الأَحْزَابَ، اهْزِمْهُمْ وَزَلْزِلْهُمْ (صحيح البخاري)

3.2 صفة العد والحساب

إِنَّ اللَّهَ اشتَرىٰ مِنَ المُؤمِنينَ أَنفُسَهُم وَأَموالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الجَنَّةَ ۚ يُقاتِلونَ في سَبيلِ اللَّهِ فَيَقتُلونَ وَيُقتَلونَ ۖ وَعدًا عَلَيهِ حَقًّا فِي التَّوراةِ وَالإِنجيلِ وَالقُرآنِ ۚ وَمَن أَوفىٰ بِعَهدِهِ مِنَ اللَّهِ ۚ فَاستَبشِروا بِبَيعِكُمُ الَّذي بايَعتُم بِهِ ۚ وَذٰلِكَ هُوَ الفَوزُ العَظيمُ ﴿١١١﴾التوبة

وقد كان النبي يدعو الله بصفة سريع الحساب ومن ذلك عندما دعا علَى الأَحْزَابِ، فَقَالَ: اللَّهُمَّ مُنْزِلَ الكِتَابِ، سَرِيعَ الحِسَابِ، اهْزِمِ الأَحْزَابَ، اهْزِمْهُمْ وَزَلْزِلْهُمْ (صحيح البخاري)

(صحيح البخاري، صحيح مسلم)

يَدْخُلُ الجَنَّةَ مِن أُمَّتِي سَبْعُونَ أَلْفًا بغيرِ حِسابٍ، قالوا: ومَن هُمْ يا رَسولَ اللهِ؟ قالَ: هُمُ الَّذِينَ لا يَكْتَوُونَ ولا يَسْتَرْقُونَ، وعلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ، فَقامَ عُكّاشَةُ، فقالَ: ادْعُ اللَّهَ أنْ يَجْعَلَنِي منهمْ، قالَ: أنْتَ

منهمْ، قالَ: فَقامَ رَجُلٌ، فقالَ: يا نَبِيَّ اللهِ، ادْعُ اللهَ أنْ يَجْعَلَنِي منهمْ، قالَ: سَبَقَكَ بها عُكّاشَةُ(صحيح مسلم).

جاءتِ امرأَةٌ إلى النَّبِيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بها لَمَمٌ ، فقالت: يا رسولَ اللهِ، ادْعُ اللهَ أنْ يَشفيَني. قال: إنْ شِئتِ دعَوتُ اللهَ أنْ يَشفيَكِ، وإنْ شِئتِ فاصْبِري، ولا حِسابَ عليكِ. قالت: بَلْ أصبِرُ، ولا حِسابَ عَلَيَّ (إسناده حسن، تخريج المسند لشعيب).

لا حساب على من ضحك أليه الله في الدنيا وهم الشهداء

أنَّ رجلًا سأل أيُّ الشهداءِ أفضلُ قال : الذين إن يُلْقُوا في الصفِّ لا يَلفِتون وجوهَهم حتى يُقتَلوا ، أولئك يَنطلِقون في الغُرَفِ العُلا من الجنَّةِ ، ويضحكُ إليهم ربُّهم ، وإذا ضحِك ربُّك إلى عبدٍ في الدنيا فلا حسابَ عليه (صححه الألباني في صحيح الترغيب).

أنَّ رَسولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قَالَ: يَضْحَكُ اللَّهُ إلى رَجُلَيْنِ يَقْتُلُ أحَدُهُما الآخَرَ يَدْخُلَانِ الجَنَّةَ: يُقَاتِلُ هذا في سَبيلِ اللَّهِ، فيُقْتَلُ، ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ علَى القَاتِلِ، فيُسْتَشْهَدُ. الراوي : أبو هريرة | المحدث : البخاري | المصدر : صحيح البخاري الصفحة أو الرقم : 2826 | خلاصة حكم المحدث : [صحيح]

أوَّلُ ما يُحاسَبُ به العبدُ يومَ القيامةِ صَلاتُه، فإنْ كان أكمَلَها كُتِبَتْ كامِلَةً، وإنْ لم يكنْ أكمَلَها قال اللهُ عزَّ وجلَّ لملائكتِه: انظُروا هل تَجِدونَ لعَبدي من تطوُّعٍ فأكْمِلوا به ما ضيَّعَ من فَريضَتِه، والزَّكاةُ مِثلُ ذلك، ثم تُؤخَذُ الأعمالُ على حِسابِ ذلك (صحيح، تخريج مشكل الآثار، شعيب الأرناؤوط).

3.3 التجارة مع الله في الدنيا

3.4 القبر أول منازل الآخرة

وما تقول ؟ قلتُ : تقول أعاذَكُم اللهُ من فتنةِ الدجالِ، ومن فتنةِ عذابِ القبرِ قالت عائشةُ : فقام رسولُ اللهِ فرفع يديْهِ مدًّا، يستعيذُ باللهِ من فتنةِ الدجالِ، ومن عذابِ القبرِ ثم قال : أما فتنةُ الدجالِ، فإنه لم يكن نبيٌّ إلا (قد) حذَّرَ أُمَّتَه، وسأُحدِّثُكم (وه) بحديثٍ لم يُحذِّرْه نبيٌّ أُمَّتَه : إنَّهُ أعورُ، وإنَّ اللهَ ليس بأعورَ، مكتوبٌ بين عينيه كافرٌ، يقرؤُه كلُّ مؤمنٍ. فأما فتنةُ القبرِ فبي تُفتنونَ، وعنِّي تُسألونَ، فإذا كان الرجلُ الصالحُ أُجْلِسَ في قبرِه غيرَ فزعٍ ولا مشعوفٍ، ثم يقال له : فيم كنتَ ؟ فيقول في الإسلامِ فيقال ماهذا الرجلُ الذي كان فيكم ؟ فيقول : محمدٌ رسولُ اللهِ، جاءنا بالبيناتِ من عند اللهِ فصدَّقناهُ، فيفرجُ له فُرجةً قِبَلَ النارِ، فينظر إليها يُحطِّمُ بعضُها بعضًا، فيقال له : انظر إلى ماوقاك اللهُ، ثم يفرجُ له فُرجةً إلى الجنةِ، فينظرُ إلى زهرتِها وما فيها، فيقال له هذا مقعدُك منها ويقال على اليقينِ كنتَ وعليه مُتَّ، وعليه تُبعثُ إن شاء اللهُ وإذا كان الرجلُ السوءُ، أُجْلِسَ في قبرِه فزعًا مشعوفًا فيقال له : فيم كنتَ ؟ فيقول : سمعتُ الناسَ يقولون قولًا فقلتُ كما قالوا، فيُفرجُ له فُرجةً إلى الجنةِ، فينظرُ إلى زهرتِها ومافيها، فيقال له انظر إلى ماصرف اللهُ عنك ثم يُفرجُ له فُرجةً قِبَلَ النارِ فينظرُ إليها يُحطِّمُ بعضُها بعضًا ويقال (له) هذا مقعدُك منها، على الشكِّ كنتَ، وعليه مُتَّ وعليه تُبعثُ إن شاء اللهُ ثم يُعذَّبُ

الراوي : عائشة أم المؤمنين | المحدث : الألباني | المصدر : صحيح الترغيب الصفحة أو الرقم : 3557 | خلاصة حكم المحدث : صحيح

جاءت يهوديةٌ فاستطعمتْ على بابي، فقالَتْ : أطعموني أعاذَكُم اللهُ من فتنةِ الدجالِ ومن فتنةِ عذابِ القبرِ، فلم أزل أحبِسُها حتى أتى رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليْهِ وسلَّمَ فقلتُ : يا رسولَ اللهِ ما تقولُ هذه اليهوديةُ ؟ قال : وما تقولُ ؟ قلتُ : تقولُ : أعاذَكُم اللهُ من فتنةِ الدجالِ ومن فتنةِ عذابِ القبرِ. قالَتْ عائشةُ : فقال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليْهِ وسلَّمَ فرفع يديه مدًّا يستعيذُ باللهِ من فتنةِ الدجالِ ومن فتنةِ عذابِ القبرِ، ثم قال : أما فتنةُ الدجالِ فإنَّهُ لم يكن نبيٌّ إلا وقد حذَّرَ أُمَّتَه وسأُحذِّرُكُموه بحديثٍ لم يُحذِّرْه نبيٌّ أُمَّتَه، إنَّهُ أعورُ واللهُ ليس بأعورَ، مكتوبٌ بين عينيه كافرٌ يقرؤُه كلُّ مؤمنٍ، فأما فتنةُ القبرِ فبي تُفتنونَ وعني تُسألونَ، فإن كان الرجلُ الصالحُ أُجلسَ في قبرِه غيرَ فزعٍ ولا مشغوفٍ، ثم يقال له : فيم كنتَ ؟ فيقول : في الإسلامِ، فيقال : ما هذا الرجلُ الذي كان فيكم ؟ فيقول : محمدٌ رسولُ اللهِ جاءنا بالبيناتِ من عِندَ اللهِ فصدَّقناهُ، فيُفرجُ له فرجةً قبلَ النارِ فينظر إليها يُحطِّمُ بعضُها بعضًا، فيقال له : انظر إلى ما وقاك اللهُ، ثم يُفْرَجُ له فُرجةً على الجنةِ فينظرُ إلى زهرتها وما فيها، فيقال له : هذا مقعدُك منها ويقال : على اليقينِ كنتَ وعليْهِ مُتَّ وعليْهِ تُبعثُ إن شاء اللهُ. وإذا كان الرجلُ السوءُ جلس في قبرِه فزعًا مشعوفًا فيقال له : فيم كنتَ ؟ فيقول : لا أدري. فيقال : ما هذا الرجلُ الذي كان فيكم ؟ فيقول : سمعتُ الناسَ يقولون قولًا فقلتُ كما قالوا : فيُفرجُ له فُرجةً قِبَلَ الجنةِ فينظرُ إلى زهرتِها وما فيها فيقال له : انظر إلى ما صرف اللهُ عنك، ثم يُفرجُ له فُرجةً قِبَلَ النارِ فينظرُ إليها يُحطِّمُ بعضُها بعضًا ويقال له : هذا مقعدُك منها، على الشكِّ كنتَ وعليْهِ مُتَّ وعليْهِ تُبعثُ إن شاء اللهُ. ثم يُعذَّبُ

الراوي : عائشة أم المؤمنين | المحدث : السيوطي | المصدر : شرح الصدور الصفحة أو الرقم : 193 | خلاصة حكم المحدث : إسناده صحيح

الراوي : عائشة أم المؤمنين | المحدث : شعيب الأرناؤوط | المصدر : تخريج المسند لشعيب الصفحة

أو الرقم : 25089 | خلاصة حكم المحدث : إسناده صحيح على شرط الشيخين

3.5 يوم القيامة

كل إنسان سواء كان متعلما أو أميا لا يعلم القراءة والحساب يكون يوم القيامة قارءا وحاسبا والدليل قوله تعالى:

وَكُلَّ إِنسانٍ أَلزَمناهُ طائِرَهُ في عُنُقِهِ ۖ وَنُخرِجُ لَهُ يَومَ القِيامَةِ كِتابًا يَلقاهُ مَنشورًا ﴿١٣﴾ اقرَأ كِتابَكَ كَفىٰ بِنَفسِكَ اليَومَ عَلَيكَ حَسيبًا ﴿١٤﴾ الإسراء

وجاء في تفسير الطبري: (اقرأْ كِتَابَكَ) : اقرأ كتاب عملك الذي عملته في الدنيا، الذي كان كاتبانا يكتبانه، ونحصيه عليك (كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا) يقول: حسبك اليوم نفسك عليك حاسبا يحسب عليك أعمالك، فيحصيها عليك، لا نبتغي عليك شاهدا غيرها، ولا نطلب عليك محصيا سواها. حدثنا بشر، قال: ثنا يزيد، قال: ثنا سعيد، عن قتادة (اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا) سيقرأ يومئذ من لم يكن قارئا في الدنيا.

جَاءَ حَبْرٌ مِنَ اليَهُودِ، فَقَالَ: إِنَّه إِذَا كانَ يَوْمُ القِيَامَةِ جَعَلَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ عَلَى إِصْبَعٍ، والأَرَضِينَ عَلَى إِصْبَعٍ، والمَاءَ والثَّرَى عَلَى إِصْبَعٍ، والخَلَائِقَ عَلَى إِصْبَعٍ، ثُمَّ يَهُزُّهُنَّ، ثُمَّ يقولُ: أَنَا المَلِكُ أَنَا المَلِكُ، فَلَقَدْ رَأَيْتُ النبيَّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ يَضْحَكُ حتَّى بَدَتْ نَوَاجِذُهُ تَعَجُّبًا وتَصْدِيقًا لِقَوْلِهِ، ثُمَّ قالَ النبيُّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: وَما قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ [الأنعام: 91] إلى قَوْلِهِ يُشْرِكُونَ [الزمر: 67]. الراوي : عبدالله بن مسعود | المحدث : البخاري | المصدر : صحيح البخاري الصفحة أو الرقم : 7513 | خلاصة حكم المحدث : [صحيح]

جَاءَ حَبْرٌ إلى النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عليه وَسَلَّمَ، فَقالَ: يا مُحَمَّدُ، أَوْ يا أَبَا القَاسِمِ إنَّ اللَّهَ تَعَالَى يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ يَومَ القِيَامَةِ علَى إصْبَعٍ، وَالأَرَضِينَ علَى إصْبَعٍ، وَالْجِبَالَ وَالشَّجَرَ علَى إصْبَعٍ، وَالْمَاءَ وَالثَّرَى علَى إصْبَعٍ، وَسَائِرَ الخَلْقِ علَى إصْبَعٍ، ثُمَّ يَهُزُّهُنَّ، فيَقولُ: أَنَا المَلِكُ، أَنَا المَلِكُ، فَضَحِكَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عليه وَسَلَّمَ تَعَجُّبًا ممَّا قالَ الحَبْرُ ، تَصْدِيقًا له، ثُمَّ قَرَأَ: وَما قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَومَ القِيَامَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ [الزمر: 67]. 7148- [20-...] حَدَّثَنَا عُثْمَانُ بنُ أَبِي شيبَةَ، وإسْحَاقُ بنُ إبْرَاهِيمَ كِلَاهُمَا، عن جَرِيرٍ، عن مَنْصُورٍ بهذا الإسْنَادِ، قالَ: جَاءَ حَبْرٌ مِنَ اليَهُودِ إلى رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عليه وَسَلَّمَ،... بمِثْلِ حَدِيثِ فُضَيْلٍ وَلَمْ يَذْكُرْ: ثُمَّ يَهُزُّهُنَّ. وَقالَ: فَلَقَدْ رَأَيْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عليه وَسَلَّمَ ضَحِكَ حتَّى بَدَتْ نَوَاجِذُهُ تَعَجُّبًا لِما قالَ تَصْدِيقًا له، ثُمَّ قالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عليه وَسَلَّمَ: وَما قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَتَلَا الآيَةَ. عرض مختصر.. الراوي : عبدالله بن مسعود | المحدث : مسلم | المصدر : صحيح مسلم الصفحة أو الرقم : 2786 | خلاصة حكم المحدث : [صحيح]

3.5.1 البعث

3.5.2 المحشر

3.5.3 الحساب يبدأ عند الميزان وقبل الجزاء

نقل القرطبي أن الحساب يكون قبل الميزان وفيه تعرض الأعمال فقط قبل أن توزن على الميزان وهذا لا يصح. لأن الحساب لا يكتمل إلا بعد وزن الأعمال كلها كبيرها وصغيرها وعدها وجمعها. ولهذا فإن الحساب يبدأ مع بداية وزن الأعمال وينتهي عند الإنتهاء من وزنها وعدها وجمعها. يبدأ الحساب

مع وزن الأعمال وهنا تعرض الأعمال وتوزن على الميزان كلها صغيرها وكبيرها حتى يحسب حسابها الحساب الكامل والوافي الذي لا ظلم فيه، وبناءا على الحساب الكلي يعطى الجزاء إما جنة وإما نار. لكن هذا الحساب نوعان، إما الحساب اليسير وإما الحساب العسير. فمن كان حسابه يسيرا يعطى كتاب أعماله بيمينه وأما من كان حسابه عسيرا يعطى كتاب أعماله من وراء ظهره في يده الشمال

قال تعالى: فَأَمَّا مَن أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ ﴿٧﴾ فَسَوفَ يُحَاسَبُ حِسابًا يَسيرًا ﴿٨﴾ وَيَنقَلِبُ إِلىٰ أَهلِهِ مَسرورًا ﴿٩﴾ وَأَمّا مَن أوتِيَ كِتَابَهُ وَراءَ ظَهرِهِ ﴿١٠﴾ فَسَوفَ يَدعو ثُبورًا ﴿١١﴾ وَيَصلىٰ سَعيرًا ﴿١٢﴾ إِنَّهُ كانَ في أَهلِهِ مَسرورًا ﴿١٣﴾ إِنَّهُ ظَنَّ أَن لَن يَحورَ ﴿١٤﴾ بَلىٰ إِنَّ رَبَّهُ كانَ بِهِ بَصيرًا ﴿١٥﴾الانشقاق. وقد جاء عن الطبري قوله في تفسير هذه الآيات: وقوله: (فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ) يقول تعالى ذكره: فأما من أعطي كتاب أعماله بيمينه. (فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا) بأن ينظر في أعماله، فيغفر له سيئها، ويُجازى على حُسنها. وقوله: (وَيَنْقَلِبُ إِلَى أَهْلِهِ مَسْرُورًا) يقول: وينصرف هذا المحاسَبُ حسابًا يسيرًا إلى أهله في الجنة مسرورًا. (وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ) وأما من أعطي كتابه منكم أيها الناس يومئذ وراء ظهره، وذلك أن جعل يده اليمنى إلى عنقه وجعل الشمال من يديه وراء ظهره، فيتناول كتابه بشماله من وراء ظهره، ولذلك وصفهم جلَّ ثناؤه أحيانًا أنهم يؤتون كتبهم بشمائلهم، وأحيانًا أنهم يؤتونها من وراء ظهورهم. (فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُورًا) يقول: فسوف ينادي بالهلاك، وهو أن يقول: واثبوراه، واويلاه، وهو من قولهم: دعا فلان لهفه: إذا قال: والهفاه. وقوله: (وَيَصْلَى سَعِيرًا) اختلفت القرّاء في قراءة ذلك، فقرأته عامة قرّاء مكة والمدينة والشام: (وَيُصَلَّى) بضم الياء وتشديد اللام، بمعنى: أن الله يصليهم تصلية بعد تصلية، وإنضاجة بعد إنضاجة، كما قال تعالى: كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا ، واستشهدوا لتصحيح قراءتهم ذلك كذلك، بقوله: ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ وقرأ ذلك بعض المدنيين وعامة قرّاء الكوفة والبصرة: (وَيَصْلَى) بفتح الياء وتخفيف اللام،

بمعنى: أنهم يَصْلونها ويَرِدونها، فيحترقون فيها، واستشهدوا لتصحيح قراءتهم ذلك كذلك بقول الله: يَصْلَوْنَهَا و إِلا مَنْ هُوَ صَالِ الْجَحِيمِ . وقوله: (إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُورًا) يقول تعالى ذكره: إنه كان في أهله في الدنيا مسرورا لما فيه من خلافه أمرَ الله، وركوبه معاصيه. وقوله: (إِنَّهُ ظَنَّ أَنْ لَنْ يَحُورَ* بَلَى) يقول تعالى ذكره: إنّ هذا الذي أُوتي كتابه وراء ظهره يوم القيامة، ظنّ في الدنيا أن لن يرجع إلينا، ولن يُبعث بعد مماته، فلم يكن يبالي ما ركب من المآثم؛ لأنه لم يكن يرجو ثوابًا، ولم يكن يخشى عقابًا، يقال منه: حار فلان عن هذا الأمر: إذا رجع عنه، ومنه الخبر الذي رُوي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه كان يقول في دعائه: " اللَّهُمَّ إنّي أعُوذُ بِكَ مِنَ الحَوْرِ بَعْدَ الكَوْرِ" يعني بذلك: من الرجُوع إلى الكفر، بعد الإيمان. وقوله: (بَلَى) يقول تعالى ذكره: بلى لَيَحُورَنَّ وَلَيَرْجِعَنّ إلى ربه حيا كما كان قبل مماته. وقوله: (إِنَّ رَبَّهُ كَانَ بِهِ بَصِيرًا) يقول جلّ ثناؤه: إن ربّ هذا الذي ظن أن لن يحور، كان به بصيرا، إذ هو في الدنيا بما كان يعمل فيها من المعاصي، وما إليه يصير أمره في الآخرة، عالم بذلك كلّه [هـ].

وقد صح أن عائشة أم المؤمنين أنها قالت: سمعتُ النبيَّ ﷺ يقولُ في بعضِ صلاتهِ : اللهمَّ حاسِبني حسابًا يسيرًا، فلمَّا انصرف قلتُ: يا نبيَّ اللهِ ما الحسابُ اليسيرُ؟ قال: أنْ ينظرَ في كتابِهِ فيتجاوزَ عنه، إنَّه من نوقِشَ الحسابَ يومئذٍ يا عائشةُ هلكَ (بإسناد جيد، الألباني أصل صفة الصلاة). وهذا فيه أن الحساب اليسير هو العرض الذي فيه يتجاوز عن السيئات وتجزى الحسنات وتضاعف برحمة الله وأن الحساب العسير هو النقاش الذي فيه حساب الحسنات والسيئات كبيرها وصغيرها ولا يتجاوز عن شيئ منها بعدل الله وكلاهما حساب. وهذا فيه أن الأنبياء والرسل سيحاسبون يوم القيامة.

وقد صح عن النبي ﷺ أنه قال: مَن حُوسِبَ عُذِّبَ قَالَتْ عَائِشَةُ: فَقُلتُ أَوَليسَ يقولُ اللَّهُ تَعَالَى: فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا [الانشقاق: 8] قَالَتْ: فَقَالَ: إنَّما ذَلِكِ العَرْضُ، ولكِنْ: مَن نُوقِشَ

الحِسَابَ يَهْلِكْ، وفي رواية: عذب (صحيح البخاري، صحيح مسلم). والمقصود والمراد بقول النبي ﷺ: (من حوسب عذب)، هو الحساب العسير الذي يكون فيه النقاش ولهذا جاء بيان ذلك في نهاية الحديث كما في أغلب الأحاديث الأخرى: (من نوقش الحساب عذب) كما سبق بيانه، وهذا هو المعنى الصحيح وهو الحساب العسير الذي فيه تناقش الأعمال كبيرها وصغيرها. فمن المعلوم أن كل المكلفين من الجن والإنس وحتى الأنبياء سيحاسبون يوم القيامة، فلا يكون المعنى أن كل من حوسب عموما عذب فهذا لا يتوافق ما عدل الله ومع كتابه وما صح عن نبيه ﷺ.

وقد صح عن النبي ﷺ أنه قال:

النبي ﷺ فقالت:

ومن عدل الله جل جلاله أنه سبحانه يقضي في المظالم بين الناس يوم الحاسب ولهذا فقد قال النبي ﷺ: من كَانَتْ له مَظْلِمَةٌ لأخِيهِ مِن عِرْضِهِ أَوْ شيءٍ، فَلْيَتَحَلَّهُ منه اليَومَ، قَبْلَ أَنْ لا يَكونَ دِينَارٌ وَلَا دِرْهَمٌ، إنْ كانَ له عَمَلٌ صَالِحٌ أُخِذَ منه بقَدْرِ مَظْلِمَتِهِ، وإنْ لَمْ تَكُنْ له حَسَنَاتٌ أُخِذَ مِن سَيِّئَاتِ صَاحِبِهِ فَحُمِلَ عليه (صحيح البخاري). ومن ذلك أيضا أن الله يجزي عباده كل بحسب ما دل عليه من العمل فعن جرير بن عبدالله أن النبي ﷺ قال: مَن سَنَّ في الإسْلَامِ سُنَّةً حَسَنَةً، فَعُمِلَ بهَا بَعْدَهُ، كُتِبَ له مِثْلُ أَجْرِ مَن عَمِلَ بهَا، وَلَا يَنْقُصُ مِن أُجُورِهِمْ شيءٌ، وَمَن سَنَّ في الإسْلَامِ سُنَّةً سَيِّئَةً، فَعُمِلَ بهَا بَعْدَهُ، كُتِبَ عليه مِثْلُ وِزْرِ مَن عَمِلَ بهَا، وَلَا يَنْقُصُ مِن أَوْزَارِهِمْ شيءٌ (صحيح مسلم).

العجائب:

إنَّ اللَّهَ سيُخَلِّصُ رجلًا من أمَّتي على رؤوسِ الخلائقِ يومَ القيامةِ فينشُرُ عليهِ تسعةً وتسعينَ سجلًّا، كلُّ سجلٍّ مثلُ مدِّ البصرِ ثمَّ يقولُ: أتنكرُ من هذا شيئًا ؟ أظلمَكَ كتبتي الحافظونَ ؟يقولُ: لا يا ربِّ، فيقولُ: أفلَكَ عذرٌ ؟ فيقولُ: لا يا ربِّ، فيقولُ: بلَى، إنَّ لَكَ عِندَنا حسنةً، وإنَّهُ لا ظُلمَ عليكَ اليومَ،

فيخرجُ بطاقةً فيها أشهدُ أن لا إلَهَ إلَّا اللَّهُ، وأشهدُ أنَّ محمَّدًا عبدُهُ ورسولُهُ، فيقولُ: احضُر وزنَكَ فيقولُ يا ربِّ، ما هذِهِ البطاقةُ مع هذِهِ السِّجلَّاتِ ؟ فقالَ: فإنَّكَ لا تُظلَمُ، قالَ: فتوضَعُ السِّجلَّاتُ في كفَّةٍ، والبطاقةُ في كفَّةٍ فطاشتِ السِّجلَّاتُ وثقُلتِ البطاقةُ، ولا يثقلُ معَ اسمِ اللَّهِ شيءٌ (صحيح الترمذي، صححه الألباني)

الجزاء إما جنة أو نار

الجنة

مائة درجة

وهي مائة درجة كما جاء ذلك عن النبي ﷺ حيث قال: مَن آمَنَ باللَّهِ وبِرَسولِهِ، وأَقامَ الصَّلاةَ، وصامَ رَمَضانَ، كانَ حَقًّا علَى اللَّهِ أنْ يُدْخِلَهُ الجنَّةَ، جاهَدَ في سَبيلِ اللَّهِ أوْ جَلَسَ في أرْضِهِ الَّتي وُلِدَ فيها، فقالوا: يا رَسولَ اللَّهِ، أفَلا نُبَشِّرُ النَّاسَ؟ قالَ: إنَّ في الجنَّةِ مِئَةَ دَرَجَةٍ، أعَدَّها اللَّهُ لِلْمُجاهِدِينَ في سَبيلِ اللَّهِ، ما بيْنَ الدَّرَجَتَيْنِ كما بيْنَ السَّماءِ والأرْضِ، فإذا سَأَلْتُمُ اللَّهَ، فاسْأَلُوهُ الفِرْدَوْسَ؛ فإنَّه أوْسَطُ الجنَّةِ وأَعْلَى الجنَّةِ -أُراهُ- فَوْقَهُ عَرْشُ الرَّحْمَنِ، ومِنْهُ تَفَجَّرُ أنْهارُ الجنَّةِ. (صحيح البخاري).

أعلى مراتب الجنة هي الفردوس الأعلى كما جاء عن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها أن النبيُّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ كانَ يقولُ وهو صَحِيحٌ: إنَّه لَمْ يُقْبَضْ نَبِيٌّ حتَّى يَرَى مَقْعَدَهُ مِنَ الجنَّةِ، ثُمَّ يُخَيَّرَ فلَمَّا نَزَلَ به، ورَأْسُهُ علَى فَخِذِي غُشِيَ عليه، ثُمَّ أفَاقَ فأشْخَصَ بَصَرَهُ إلى سَقْفِ البَيْتِ، ثُمَّ قالَ: اللَّهُمَّ الرَّفِيقَ الأعْلَى فقُلتُ: إذًا لا يَخْتَارُنَا، وعَرَفْتُ أنَّه الحَدِيثُ الذي كانَ يُحَدِّثُنَا وهو صَحِيحٌ، قالَتْ: فكَانَتْ آخِرَ كَلِمَةٍ تَكَلَّمَ بهَا: اللَّهُمَّ الرَّفِيقَ الأعْلَى (صحيح البخاري). فعرفت عائشة رضي الله عنه أن الرسول ﷺ أوري مقعده في الجنة فاختار الرفيق الأعلى قبل أن تقض روحه ﷺ.

وأدناهم مرتبة هو آخر رجل يدخل الجنة وهو آخر رجل يخرج من النار كما صح ذلك عن النبي ﷺ حيث قال: إِنِّي لأعلَمُ آخِرَ أهلِ النَّارِ خُرُوجًا مِنها، وآخِرَ أهلِ الجَنَّةِ دُخُولًا الجَنَّةَ: رَجُلٌ يَخرُجُ مِنَ النَّارِ حَبْوًا، فيَقُولُ اللهُ تباركَ وتعالى لَه: اذهَب فادخُلِ الجَنَّةَ، فيأتيها فيُخَيَّلُ إليه أنَّها مَلأى، فيَرجِعُ فيَقُولُ: يا رَبِّ، وجَدْتُها مَلأى، فيَقُولُ اللهُ تباركَ وتعالى لَه: اذهَبْ فادخُلِ الجَنَّةَ، قال: فيأتيها فيُخَيَّلُ إليه أنَّها مَلأى، فيَرجِعُ فيَقُولُ: يا رَبِّ، وجَدْتُها مَلأى، فيَقُولُ اللهُ لَه: اذهَبْ فادخُلِ الجَنَّةَ؛ فإنَّ لَكَ مِثلَ الدُّنيا وعَشَرةَ أمثالِها -أو إنَّ لَكَ عَشَرةَ أمثالِ الدُّنيا- قال: فيَقُولُ: أتَسخَرُ بي -أو أتضحَكُ بي- وأنتَ المَلِكُ؟ قال: لَقَد رَأيتُ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم ضَحِكَ حَتَّى بَدَت نَواجِذُه، قال: فكانَ يُقالُ: ذاكَ أدنى أهلِ الجَنَّةِ مَنزِلةً (صحيح البخاري، صحيح مسلم واللفظ له).

الحكم الرشيد

4.1 مقدمة

قال تعالى:

يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ۚ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ [ص : 26]

تفسير ابن كثير:

هذه وصية من الله - عز وجل - لولاة الأمور أن يحكموا بين الناس بالحق المنزل من عنده تبارك وتعالى ولا يعدلوا عنه فيضلوا عن سبيله وقد توعد [الله] تعالى من ضل عن سبيله ، وتناسى يوم الحساب ، بالوعيد الأكيد والعذاب الشديد .

قال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي حدثنا هشام بن خالد حدثنا الوليد ، حدثنا مروان بن جناح ، حدثني إبراهيم أبو زرعة - وكان قد قرأ الكتاب - أن الوليد بن عبد الملك قال له : أيحاسب الخليفة فإنك قد قرأت الكتاب الأول ، وقرأت القرآن وفقهت ؟ فقلت : يا أمير المؤمنين أقول ؟ قال : قل

في أمان . قلت يا أمير المؤمنين أنت أكرم على الله أو داود ؟ إن الله - عز وجل - جمع له النبوة والخلافة ثم توعده في كتابه فقال : (يا داود إنا جعلناك خليفة في الأرض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله إن الذين يضلون) الآية .

وقال عكرمة : (لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب) هذا من المقدم والمؤخر لهم عذاب شديد يوم الحساب بما نسوا .

وقال السدي : لهم عذاب شديد بما تركوا أن يعملوا ليوم الحساب .

وهذا القول أمشى على ظاهر الآية فالله أعلم .

4.2 أركان الحكم الرشيد

يقام الحكم الرشيد على ثلاثة أركان وهي: (1) إقامة الحق بالعلم الصحيح، (2) إقامة الميزان الشرعي بالعدل والقسط، (3) الأخذ بأسباب القوى كالحديد وما يلزم ذلك من علوم كالحساب والطب وغيرها من العلوم التي تكمن المسلمين من دحر الأعداء ونشر الحق ونصرته. فهذا كله من نصر الله ورسله وقد وعد سبحانه بنصر من ينصره كما في قوله تعالى: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُركُمْ وَيُثَبِّت أَقدامَكُم ﴿٧﴾ محمد.

وبهذه الأمور الثلاثة التي يبنى عليها الحكم الرشيد يكون التمكين الذي وعد الله به كما ذكر سبحانه في قصة ذي القرنين في قوله تعالى: إِنّا مَكَّنّا لَهُ فِي الأَرضِ وَآتَيناهُ مِن كُلِّ شَيءٍ سَبَبًا ﴿٨٤﴾ فَأَتبَعَ سَبَبًا ﴿٨٥﴾ الكهف. وقد بين معنى ذلك الشيخ العثيمين رحمه الله أن معنى "من كل شئ سببا" أن الله أتاه كل الأسباب التي بها يكون التمكين في الأرض من قوة السلطة وتمام الملك فانتفع بما أعطاه الله

من الأسباب. فهذا التمكين جاء بتسخير الله وهذا لأن ذي القرنين أخذ بالأسباب التي أعطاها الله له مع إقامة الحق وإقامة العدل كما في قوله تعالى: قالَ أَمّا مَن ظَلَمَ فَسَوفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلىٰ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذابًا نُكرًا ﴿٨٧﴾ وَأَمّا مَن آمَنَ وَعَمِلَ صالِحًا فَلَهُ جَزاءً الحُسنىٰ ۖ وَسَنَقولُ لَهُ مِن أَمرِنا يُسرًا ﴿٨٨﴾ ثُمَّ أَتبَعَ سَبَبًا ﴿٨٩﴾الكهف. وقد جاء في تفسير السعدي رحمه الله أن هذا يدل على كونه من الملوك الصالحين الأولياء، العادلين العالمين، حيث وافق مرضاة الله في معاملة كل أحد، بما يليق بحاله [هـ]. وقد أثبت سبحانه له التمكين والرشد لما له من الخبرة في إتباع الأسباب كما في قوله تعالى: كَذٰلِكَ وَقَد أَحَطنا بِما لَدَيهِ خُبرًا ﴿٩١﴾ ثُمَّ أَتبَعَ سَبَبًا ﴿٩٢﴾الكهف. ومعنى ذلك أي: أحطنا بما عنده من الخير والأسباب العظيمة كما جاء في تفسير السعدي. ومن ذلك أنه كان لديه من الأسباب العلمية ما يمكنه من فهم العديد من العلوم التي تمكنه من الإنتقال إلى مشارق الأرض ومغاربها وفهم اللغات الأخرى، ومن ذلك ما فقه به ألسنة أولئك القوم (الذين لا يفقهون قولا) الذين اشتكوا إليه ضرر يأجوج ومأجوج [.] إفسادهم في الأرض، فلم يكن ذو القرنين ذا طمع، ولا رغبة في الدنيا، ولا تاركا لإصلاح أحوال الرعية، بل كان قصده الإصلاح، فلذلك أجاب طلبتهم لما فيها من المصلحة، ولم يأخذ منهم أجرة، وشكر ربه على تمكينه واقتداره [هـ]. فلم يطلب منهم إلا أن يعينوه على حمل زبر أي قطع الحديد ووضعه في مكانه بين الجبلين وإشعال النار له بالمنافيخ الشديدة والآلات العظيمة لإذابة النحاس حتى يكون سائلا فيصبه عليها ليستحكم السد استحكاما هائلا يعجز يأجوج ومأجوج على الصعود فوقه فضلا عن ثقبه.

وقد علم ذا القرنين أن كل ذلك من فضل الله عليه حيث قال تعالى: قالَ هٰذا رَحمَةٌ مِن رَبّي ۖ فَإِذا جاءَ وَعدُ رَبّي جَعَلَهُ دَكّاءَ ۖ وَكانَ وَعدُ رَبّي حَقًّا ﴿٩٨﴾الكهف. وما أجمل ما أورده السعدي في تفسيره هذه الآية حيث قال: فلما فعل هذا الفعل الجميل والأثر الجليل، أضاف النعمة إلى موليها

وقال: هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّيْ أي: من فضله وإحسانه عليَّ، وهذه حال الخلفاء الصالحين، إذا من الله عليهم بالنعم الجليلة، ازداد شكرهم وإقرارهم، واعترافهم بنعمة الله كما قال سليمان عليه السلام، لما حضر عنده عرش ملكة سبأ مع البعد العظيم، قال: قالَ هـٰذا مِن فَضلِ رَبّي لِيَبلُوَني أَأَشكُرُ أَم أَكفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّما يَشكُرُ لِنَفسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبّي غَنِيٌّ كَريمٌ ﴿٤٠﴾النمل. بخلاف أهل التجبر والتكبر والعلو في الأرض فإن النعم الكبار، تزيدهم شرا وبطرا. كما قال قارون، لما آتاه الله من الكنوز، ما إن مفاتحه لتنوء بالعصبة أولي القوة، قال: قالَ إِنَّما أوتيتُهُ عَلىٰ عِلمٍ عِندي القصص.

وقد علم أيضا ذا القرنين بما لديه من الخبرة بأسباب الحديد وما قد يطرأ عليه من صدإ وتآكل بعد زمن أنه سياتي يوم وينهار هذا السد العظيم ويخرج يأجوج ومأجوج في آخر الزمان كما في قوله تعالى: فَإِذا جاءَ وَعدُ رَبّي جَعَلَهُ دَكّاءَ وَكانَ وَعدُ رَبّي حَقًّا ﴿٩٨﴾الكهف. وجاء في تفسير السعده رحمه الله أن قوله: فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّيْ أي: لخروج يأجوج ومأجوج جَعَلَهُ أي: ذلك السد المحكم المتقن دَكَّاءَ أي: دكه فانهدم، واستوى هو والأرض وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا [هـ]. ولهذا فقد أخبر سبحانه بوقوع ذلك لا محالة في قوله تعالى: حَتّىٰ إِذا فُتِحَت يَأجوجُ وَمَأجوجُ وَهُم مِن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلونَ ﴿٩٦﴾الأنبياء. وقد قال السعدي رحمه الله: أنه في آخر الزمان، ينفتح السد عنهم، فيخرجون إلى الناس في هذه الحالة والوصف، الذي ذكره الله من كل من مكان مرتفع، وهو الحدب ينسلون أي: يسرعون. وفي هذا دلالة على كثرتهم الباهرة، وإسراعهم في الأرض، إما لبذواتهم، وإما لما خلق الله لهم من الأسباب التي تقرب لهم البعيد، وتسهل عليهم الصعب، وأنهم يقهرون الناس، ويعلون عليهم في الدنيا، وأنه لا يد لأحد بقتالهم.

وكل ما تقدم فيه أن ذا القرنين لم يكن فقط يأخذ بالأسباب وإنما كان يقيم الحق والعدل مع الأخذ بالأسباب والعلم بها وذلك من فضل الله عليه وتوفيقه له رحمه الله تعالى ورضي عنه. وقد

قال عنه الشيخ ابن باز رحمه الله: ذو القرنين ملك عظيم صاحب خير، وإحسان، وإصلاح، واختلف الناس في نبوته، والمشهور أنه ملك صالح. وفي موضع آخر رجح الشيخ ابن باز رحمه الله أن ذا القرنين نبيا من الأنبياء لأنه كان يتبع أمر الله في الأرض وظاهر الآيات أنه كان يتلقى هذه الأوامر والتوجيهات من ربه جل جلاله وهذا شأن النبي.

4.3 شروط الحكم الرشيد

ولقد وضع النبي ﷺ لنا أسس هذه الدولة التي يحكم فيها بكتاب الله عز وجل وسنة نبيه ويكون فيها الشورى، والرحمة، واللين، والحكمة، والعدل، والرشاد. ففي هذه الدولة يتساوى فيها المسلمين في الحقوق والواجبات الأساسية ومن أعظم ذلك حرمة الدم والمال والعرض وإن اختلفت ألوانهم وأشكالهم فقال ﷺ: يا أَيُّها النَّاسُ، أَلَا إنَّ ربَّكم واحِدٌ، وإنَّ أباكم واحِدٌ، أَلَا لا فَضْلَ لِعَربيٍّ على عَجَميٍّ، ولا لعَجَميٍّ على عَرَبيٍّ، ولا أحمَرَ على أسوَدَ، ولا أسوَدَ على أحمَرَ، إلَّا بالتَّقْوى، أبَلَّغتُ؟ قالوا: بَلَّغَ رسولُ اللهِ، ثم قال: أيُّ يَومٍ هذا؟ قالوا: يَومٌ حَرامٌ، ثم قال: أيُّ شَهرٍ هذا؟ قالوا: شَهرٌ حَرامٌ، قال: ثم قال: أيُّ بَلَدٍ هذا؟ قالوا: بَلَدٌ حَرامٌ، قال: فإنَّ اللهَ قد حَرَّمَ بيْنَكم دِماءَكم وأمْوالَكم وأعْراضَكم كحُرْمةِ يَومِكم هذا، في شَهرِكم هذا، في بَلَدِكم هذا، أبَلَّغتُ؟ قالوا: بَلَّغَ رسولُ اللهِ، قال: لِيُبلِّغِ الشَّاهِدُ الغائِبَ (صحيح، تخريج المسند لشعيب، الصحيح المسند).

ومن ذلك أيضا أن المسلمين يتساوون أيضا في الحدود وهذا من عدل الإسلام إذ تطبق الحدود على الشريف والضعيف على حد السواء بدون تفريق فقد صح عن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها أنها قالت: أنَّ قُرَيْشًا أَهَمَّهُمْ شَأْنُ المَرْأَةِ الَّتِي سَرَقَتْ في عَهْدِ النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عليه وسلَّمَ في غَزْوَةِ الفَتْحِ،

فَقالوا: مَن يُكَلِّمُ فِيهَا رَسولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عليه وسلَّمَ؟ فَقالوا: وَمَن يَجْتَرِئُ عليه إلَّا أُسَامَةُ بنُ زَيْدٍ، حِبُّ رَسولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عليه وسلَّمَ ، فَأُتِيَ بهَا رَسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عليه وسلَّمَ، فَكَلَّمَهُ فِيهَا أُسَامَةُ بنُ زَيْدٍ، فَتَلَوَّنَ وَجْهُ رَسولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عليه وسلَّمَ ، فَقالَ: أَتَشْفَعُ في حَدٍّ مِن حُدُودِ اللهِ؟ فَقالَ له أُسَامَةُ: اسْتَغْفِرْ لي يا رَسولَ اللهِ، فَلَمَّا كانَ العَشِيُّ، قَامَ رَسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عليه وسلَّمَ، فَاخْتَطَبَ، فأَثْنَى علَى اللهِ بما هو أَهْلُهُ، ثُمَّ قالَ: أَمَّا بَعْدُ، فإنَّما أَهْلَكَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ أَنَّهُمْ كَانُوا إذَا سَرَقَ فِيهِمِ الشَّرِيفُ تَرَكُوهُ، وإذَا سَرَقَ فِيهِمِ الضَّعِيفُ أَقَامُوا عليه الحَدَّ، وإنِّي وَالَّذِي نَفْسِي بيَدِهِ، لو أنَّ فَاطِمَةَ بنْتَ مُحَمَّدٍ سَرَقَتْ لَقَطَعْتُ يَدَهَا، ثُمَّ أَمَرَ بتِلْكَ المَرْأَةِ الَّتي سَرَقَتْ، فَقُطِعَتْ يَدُهَا. وقالَتْ عَائِشَةُ: فَحَسُنَتْ تَوْبَتُهَا بَعْدُ، وَتَزَوَّجَتْ، وكَانَتْ تَأْتِينِي بَعْدَ ذلكَ فأَرْفَعُ حَاجَتَهَا إلى رَسولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عليه وسلَّمَ (صحيح مسلم).

4.4 واجبات الحكم الرشيد

تقديم المصلحة العامة على المصلحة الخاصة:

لولا قَومُكِ حَديثو عَهدٍ بكُفرٍ لنَقَضتُ الكَعبةَ فجَعَلتُ لها بابَينِ: بابٌ يَدخُلُ منه النَّاسُ، وبابٌ يَخرُجونَ

قال الشيخ ابن باز: فترك ﷺ نقض الكعبة وإدخال حجر إسماعيل فيها خشية الفتنة، وهذا يدل على وجوب مراعاة المصالح العامة وتقديم المصلحة العليا، وهي تأليف القلوب وتثبيتها على الإسلام على المصلحة التي هي أدنى منها وهي إعادة الكعبة على قواعد إبراهيم.

الرحمة:

قال ﷺ :مَنْ لَا يَرْحَمِ النَّاسَ لَا يُرْحَمْ، وَمَنْ لَا يُرْحَمْ لَا يُغْفَرْ لَهُ (صحيح الترمذي).

التيسير:

قال ﷺ :يَسِّرُوا وَلَا تُعَسِّرُوا، وَبَشِّرُوا وَلَا تُنَفِّرُوا (صحيح البخاري).

إنَّ الدِّينَ يُسرٌ، و لا يُشادُّ الدِّينَ أحدٌ إلا غَلَبَهُ، فَسَدِّدُوا و قارِبُوا و أَبْشِرُوا، و اسْتَعِينُوا بِالغَدْوَةِ و الرَّوْحَةِ وشيءٍ من الدُّلْجَةِ الراوي : أبو هريرة | المحدث : الألباني | المصدر : صحيح الجامع الصفحة أو الرقم : 1611 | خلاصة حكم المحدث : صحيح

جاء عن سعد بن أبي وقاص أنه اسْتَأْذَنَ عُمَرُ علَى رَسولِ اللَّهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ وعِنْدَهُ نِساءٌ مِن قُرَيْشٍ يُكَلِّمْنَهُ ويَسْتَكْثِرْنَهُ، عالِيَةً أصْواتُهُنَّ، فَلَمَّا اسْتَأْذَنَ عُمَرُ قُمْنَ يَبْتَدِرْنَ الحِجابَ، فأذِنَ له رَسولُ اللَّهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ ورَسولُ اللَّهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ يَضْحَكُ، فقالَ عُمَرُ: أضْحَكَ اللَّهُ سِنَّكَ يا رَسولَ اللَّهِ، قالَ: عَجِبْتُ مِن هَؤُلاءِ اللَّاتي كُنَّ عِندِي، فَلَمَّا سَمِعْنَ صَوْتَكَ ابْتَدَرْنَ الحِجابَ! قالَ عُمَرُ: فأنْتَ يا رَسولَ اللَّهِ كُنْتَ أحَقَّ أنْ يَهَبْنَ، ثُمَّ قالَ: أيْ عَدُوَّاتِ أنْفُسِهِنَّ؛ أتَهَبْنَنِي ولا تَهَبْنَ رَسولَ اللَّهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ؟! قُلْنَ: نَعَمْ، أنْتَ أفَظُّ وأغْلَظُ مِن رَسولِ اللَّهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، قالَ رَسولُ اللَّهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: والَّذي نَفْسِي بيَدِهِ، ما لَقِيَكَ الشَّيْطانُ قَطُّ سالِكًا فَجًّا إلَّا سَلَكَ فَجًّا غيرَ فَجِّكَ (صحيح البخاري).

عن أبي هريرة قال: بيْنَا الحَبَشَةُ يَلْعَبُونَ عِنْدَ النبيِّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بحِرَابِهِمْ، دَخَلَ عُمَرُ فأهْوَى إلى الحَصَى فَحَصَبَهُمْ بهَا، فَقالَ: دَعْهُمْ يا عُمَرُ. [وفي رِوايةٍ زادَ]: في المَسْجِدِ. (صحيح البخاري).

وعن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها قالت: رَأَيْتُ النبيَّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ يَسْتُرُنِي بِردائِهِ، وأنا أنْظُرُ إلى الحَبَشَةِ يَلْعَبُونَ في المَسْجِدِ، حتَّى أكُونَ أنا الَّتي أسْأَمُ، فاقْدُرُوا قَدْرَ الجارِيَةِ الحَدِيثَةِ السِّنِّ، الحَرِيصَةِ علَى اللَّهْوِ. (صحيح البخاري).

وعن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها قالت: أنَّ أبَا بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عنْه، دَخَلَ عَلَيْهَا، وعِنْدَهَا جَارِيَتَانِ في أيَّامِ مِنًى تُغَنِّيَانِ، وتُدَفِّفَانِ، وتَضْرِبَانِ، والنبيُّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ مُتَغَشٍّ بثَوْبِهِ، فَانْتَهَرَهُما أبو بَكْرٍ، فَكَشَفَ النبيُّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ عن وجْهِهِ، فَقالَ: دَعْهُما يا أبَا بَكْرٍ، فإنَّهَا أيَّامُ عِيدٍ. وتِلْكَ الأيَّامُ أيَّامُ مِنًى . وَقالَتْ عَائِشَةُ: رَأَيْتُ النبيَّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ يَسْتُرُنِي، وأَنَا أنْظُرُ إلى الحَبَشَةِ، وهُمْ يَلْعَبُونَ في المَسْجِدِ، فَزَجَرَهُمْ فَقالَ النبيُّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: دَعْهُمْ، أمْنًا بَنِي أرْفِدَةَ يَعْنِي مِنَ الأمْنِ. (صحيح البخاري).

الأمانة: قال ﷺ :ما مِنْ عبدٍ يسترْعيه اللهُ رعيَّةً، يموتُ يومَ يموتُ، وهوَ غاشٌّ لرعِيَّتِهِ، إلَّا حرّمَ اللهُ عليْهِ الجنَّةَ (صحيح الجامع وصححه الألباني). وفي رواية: ما مِن عَبْدٍ اسْتَرْعاهُ اللَّهُ رَعِيَّةً، فَلَمْ يَحُطْها بنَصِيحَةٍ، إلَّا لَمْ يَجِدْ رائِحَةَ الجَنَّةِ (صحيح البخاري).

النصيحة من الرعية:

وفي صحيح الترمذي من حديث أبي بكر الصديق - رضي الله عنه - قال: سمعت رسول الله - ﷺ - يقول: إن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه أوشك أن يعمهم الله بعقاب من عنده.

الشورى:

قال تعالى: وَالَّذِينَ استَجابوا لِرَبِّهِم وَأَقامُوا الصَّلاةَ وَأَمرُهُم شورىٰ بَينَهُم وَمِمّا رَزَقناهُم يُنفِقونَ ﴿٣٨﴾الشورى يقول الشيخ الألباني رحمه الله: فنسأل الله عز وجل أن يرحم عباده المسلمين وأن يلهمهم الرجوع إلى الدين على الفهم الصحيح، وأن لا يتعصبوا لحاكم، وأن يعطلوا كلمة شاعت في العصر الحاضر: "ولي الأمر هكذا يريد"، ولي الأمر من هو؟ هو عمر بن الخطاب!، هو رجل من الناس، ولي الأمر هذا واجب عليه من قديم أنه يشكل مجلس شورى وهو أحوج إلى هذا المجلس من عمر بن الخطاب، عمر بن الخطاب لو كان يريد أن يعتد برأيه وبشخصه وبعلمه وبخاصة بعد أن سمع تلك

الشهادة ممن لا ينطق عن الهوى، إن هو إلا وحي يوحى: "يابن الخطاب، ما سلكت فجا إلا سلك الشيطان فجا غير فجك"، كان هو بيستقل! افعلوا، لا تفعلوا، افعلوا، اهجموا، امسكوا، إلى غيره، لكن لا، هو يعرف، كما أنزل الله على قلب محمد عليه السلام: "وشاورهم في الأمر"، ورسول الله أولى أن لا يشاور فضلا عن عمر، عمر أولى أن يشاور من الرسول، والرسول أولى من عمر أن لا يشاور، لأنه ما بتكلم إلا بوحي السماء ولكن جعلها قاعدة شرعية أبدية: "وأمرهم شورى بينهم". فكل دولة مسلمة تدعي بأنها تحكِّم شريعة الله وتحكم بما أنزل الله، قبل كل شئ يجب أن يكون لديها مجلس شورى، هذا المجلس يجب أن يكون فيه نخبة العلماء، أولا علماء في الشرع، ثانيا علماء في كل العلوم اللي بحاجة لهذا المجتمع إن كان مثلا إقتصاد، ان كان اجتماع، ان كان سياسة، ان كان جيش، إلى اخره. هذا المجلس إذا طرأ على البلاد الإسلامية طارئ يستشار، بعد ذلك يقال رأى ولي الأمر كذا. أما ولي الأمر ما استشار قيل له افعل كذا ففعل ثم يفرض على أهل العلم ان يبرروا وأن يسوغوا هذا الواقع، هذا ليس من الإسلام في شئ أبدا.

4.5 الحكم الرشيد في زمن الصحابة

البيان الواضح لسنين الخلافة الراشدة

قال صلى الله عليه وسلم

خلافةُ النُّبوَّةِ ثلاثون سنةً ، ثم يُؤتي اللهُ الملكَ مَن يشاءُ

الراوي : سفينة مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم | المحدث : الألباني | المصدر : صحيح الجامع | الصفحة أو الرقم : 3257 | خلاصة حكم المحدث : صحيح

قال سعيدٌ: قال لي سَفينةُ: أمسِكْ عليكَ : أبو بكرٍ سنتين، وعمرُ عشرًا، وعثمانُ اثنتي عشرةَ، وعليٌّ كذا، قال سعيدٌ : قلتُ لسفينةَ : إنَّ هؤلاء يزعمون أنَّ عليًّا لم يكن بخليفةٍ، قال : كذَبَتْ أستاهُ بني الزرقاءِ – يعني : بني مرْوانَ -الراوي : سفينة مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم | المحدث : الألباني | المصدر : صحيح أبي داود الصفحة أو الرقم: 4646 | خلاصة حكم المحدث : حسن

وجاء في تفسير ابن كثير وجاء في تفسيير القرطبي ان الشعبي قال: كان بين عمر وأبي خصومة ، فتقاضيا إلى زيد بن ثابت ، فلما دخلا عليه أشار لعمر إلى وسادته ، فقال عمر : هذا أول جورك ، أجلسني وإياه مجلسا واحدا ، فجلسا بين يديه .

لَمَّا تُوُفِّيَ النبيُّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ واسْتُخْلِفَ أبو بَكْرٍ، وكَفَرَ مَن كَفَرَ مِنَ العَرَبِ، قالَ عُمَرُ: يا أبا بَكْرٍ، كيفَ تُقَاتِلُ النَّاسَ، وقدْ قالَ رَسولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: أُمِرْتُ أنْ أُقاتِلَ النَّاسَ حتَّى يقولوا: لا إلَهَ إلَّا اللَّهُ، فَمَن قالَ: لا إلَهَ إلَّا اللَّهُ، فقَدْ عَصَمَ مِنِّي مالَهُ ونَفْسَهُ إلَّا بحَقِّهِ، وحِسابُهُ علَى اللَّهِ قالَ أبو بَكْرٍ: واللَّهِ لَأُقاتِلَنَّ مَن فَرَّقَ بيْنَ الصَّلاةِ والزَّكاةِ، فإنَّ الزَّكاةَ حَقُّ المالِ، واللَّهِ لو مَنَعُونِي عَناقًا كانُوا يُؤَدُّونَها إلى رَسولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ لَقاتَلْتُهُمْ علَى مَنْعِها قالَ عُمَرُ: فَواللَّهِ ما هو إلَّا أنْ رَأَيْتُ أنْ قدْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَ أبِي بَكْرٍ لِلْقِتالِ، فَعَرَفْتُ أنَّه الحَقُّ. عرض مختصر.. الراوي : أبو هريرة | المحدث : البخاري | المصدر : صحيح البخاري الصفحة أو الرقم : 6924 | خلاصة حكم المحدث : [صحيح]

أنَّ أَبَا بَكْرٍ رَضيَ اللهُ عنه خَرَجَ، وعُمَرُ رَضيَ اللهُ عنه يُكَلِّمُ النَّاسَ، فَقالَ: اجْلِسْ، فأبَى، فَقالَ: اجْلِسْ، فأبَى، فَتَشَهَّدَ أَبُو بَكْرٍ رَضيَ اللهُ عنه، فَمَالَ إلَيْهِ النَّاسُ، وتَرَكُوا عُمَرَ، فَقالَ: أَمَّا بَعْدُ، فَمَن كانَ مِنكُم يَعْبُدُ مُحَمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، فإنَّ مُحَمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قدْ مَاتَ، ومَن كانَ يَعْبُدُ اللَّهَ، فإنَّ اللَّهَ حَيٌّ لا يَمُوتُ، قالَ اللَّهُ تَعَالَى: وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ إلى الشَّاكِرِينَ [آل عمران: 144]، واللَّهِ لَكأنَّ النَّاسَ لمْ يَكونُوا يَعْلَمُونَ أنَّ اللَّهَ أَنْزَلَهَا حتَّى تَلاهَا أَبُو بَكْرٍ رَضيَ اللهُ عنه،

فَتَلَقَّاهَا منه النَّاسُ، فَمَا يُسْمَعُ بَشَرٌ إِلَّا يَتْلُوهَا. عرض مختصر.. الراوي : عبدالله بن عباس | المحدث : البخاري | المصدر : صحيح البخاري الصفحة أو الرقم : 1242 | خلاصة حكم المحدث : [صحيح]

قال أبو بكرٍ ، بعد أن حمِد اللهَ وأثنَى عليه : يا أيُّها النَّاسُ ، إنَّكم تقرءون هذه الآيةَ ، وتضعونها على غيرِ موضعِها عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ وإنَّا سمِعنا النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يقولُ : إنَّ النَّاسَ إذا رأَوُا الظَّالمَ فلم يأخُذوا على يدَيْه أوشك أن يعُمَّهم اللهُ بعقابٍ وإنِّي سمِعتُ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يقولُ : ما من قومٍ يُعمَلُ فيهم بالمعاصي ، ثمَّ يقدِرون على أن يُغيِّروا ، ثمَّ لا يُغيِّروا إلَّا يوشِكُ أن يعُمَّهم اللهُ منه بعقابٍ الراوي : أبو بكر الصديق | المحدث : الألباني | المصدر : صحيح أبي داود الصفحة أو الرقم: 4338 | خلاصة حكم المحدث : صحيح

أنَّ أَبَا بَكْرٍ رَضِيَ اللهُ عنه خَرَجَ، وعُمَرُ رَضِيَ اللهُ عنه يُكَلِّمُ النَّاسَ، فَقالَ: اجْلِسْ، فأبَى، فَقالَ: اجْلِسْ، فأبَى، فَتَشَهَّدَ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللهُ عنه، فَمَالَ إلَيْهِ النَّاسُ، وتَرَكُوا عُمَرَ، فَقالَ: أَمَّا بَعْدُ، فَمَن كانَ مِنكُم يَعْبُدُ مُحَمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، فإنَّ مُحَمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قدْ مَاتَ، ومَن كانَ يَعْبُدُ اللَّهَ، فإنَّ اللَّهَ حَيٌّ لا يَمُوتُ، قالَ اللَّهُ تَعَالَى: وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ إلى الشَّاكِرِينَ [آل عمران: 144]، واللَّهِ لَكأنَّ النَّاسَ لمْ يكونُوا يَعْلَمُونَ أنَّ اللَّهَ أَنْزَلَهَا حتَّى تَلاهَا أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللهُ عنه، فَتَلَقَّاهَا منه النَّاسُ، فَمَا يُسْمَعُ بَشَرٌ إِلَّا يَتْلُوهَا. عرض مختصر.. الراوي : عبدالله بن عباس | المحدث : البخاري | المصدر : صحيح البخاري الصفحة أو الرقم : 1242 | خلاصة حكم المحدث : [صحيح]

كُنْتُ جَالِسًا عِنْدَ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، إذْ أَقْبَلَ أبو بَكْرٍ آخِذًا بطَرَفِ ثَوْبِهِ حتَّى أبْدَى عن رُكْبَتِهِ، فَقَالَ النَّبيُّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: أمَّا صَاحِبُكُمْ فقَدْ غَامَرَ ، فَسَلَّمَ وقَالَ: إنِّي كانَ بَيْنِي وبيْنَ ابْنِ الخَطَّابِ شَيءٌ، فأسْرَعْتُ إلَيْهِ ثُمَّ نَدِمْتُ، فَسَأَلْتُهُ أنْ يَغْفِرَ لي فأبَى عَلَيَّ، فأقْبَلْتُ إلَيْكَ، فَقَالَ: يَغْفِرُ اللَّهُ لكَ يا أبَا بَكْرٍ، ثَلَاثًا، ثُمَّ إنَّ عُمَرَ نَدِمَ، فأتَى مَنْزِلَ أبِي بَكْرٍ، فَسَأَلَ: أثَمَّ أبو بَكْرٍ؟ فَقالوا: لَا، فأتَى إلى النَّبِيِّ

صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ فَسَلَّمَ، فَجَعَلَ وجْهُ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ يَتَمَعَّرُ، حتَّى أشْفَقَ أبو بَكْرٍ، فَجَثَا علَى رُكْبَتَيْهِ، فَقَالَ: يا رَسولَ اللَّهِ، واللَّهِ أنَا كُنْتُ أظْلَمَ، مَرَّتَيْنِ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: إنَّ اللَّهَ بَعَثَنِي إلَيْكُمْ فَقُلتُمْ: كَذَبْتَ، وقَالَ أبو بَكْرٍ: صَدَقَ، ووَاسَانِي بنَفْسِهِ ومَالِهِ، فَهلْ أنتُمْ تَارِكُوا لي صَاحِبِي؟ مَرَّتَيْنِ، فَمَا أُوذِيَ بَعْدَهَا. عرض مختصر.. الراوي : أبو الدرداء | المحدث : البخاري | المصدر : صحيح البخاري الصفحة أو الرقم : 3661 | خلاصة حكم المحدث : [صحيح]

لما بويع أبو بكر بالخلافة بعد بيعة السقيفة تكلم أبو بكر، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: "أما بعد أيها الناس فإني قد وليت عليكم ولست بخيركم، فإن أحسنت فأعينوني، وإن أسأت فقوموني، الصدق أمانة، والكذب خيانة، والضعيف فيكم قوي عندي حتى أريح عليه حقه إن شاء الله، والقوى فيكم ضعيف حتى آخذ الحق منه إن شاء الله، لا يدع قوم الجهاد في سبيل الله إلا ضربهم الله بالذل، ولا تشيع الفاحشة في قوم قط إلا عمهم الله بالبلاء، أطيعوني ما أطعت الله ورسوله، فإذا عصيت الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم".

(يا أيُّها الناس، قد وُلِّيت عليكم ولست بخيركم، فإن رأيتموني على حقٍّ فأعينوني، وإن رأيتموني على باطل فسدِّدوني. أطيعوني ما أطعتُ الله فيكم، فإذا عصيتُه فلا طاعة لي عليكم. ألا إنَّ أقواكم عندي الضعيف حتى آخذ الحقَّ له، وأضعفكم عندي القويُّ حتى آخذ الحقَّ منه. أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم).

أنَّ رجلًا، قال لرسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم : رأيتُ كأنَّ ميزانًا دُلِّيَ منَ السماءِ، فوُزِنتَ بأبي بكرٍ فرجَحتَ بأبي بكرٍ، ثم وُزِن أبو بكرٍ بعُمرَ، فرجَح أبو بكرٍ، ثم وُزِن عُمرُ بعثمانَ، فرَجَح عُمرُ، ثم رُفِع الميزانُ، فاستَهَلَّها رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم خلافةَ نبوةٍ، ثم يؤتي اللهُ المُلكَ مَن يشاءُ

الراوي : سفينة مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم | المحدث : البوصيري | المصدر : إتحاف

الخيرة المهرة الصفحة أو الرقم : 5/ 11 | خلاصة حكم المحدث : إسناده صحيح | أحاديث مشابهة | شرح حديث مشابه

أنَّ رجلًا قال : يا رسولَ اللهِ رأيتُ كأنَّ مِيزانًا دُلِّي مِنَ السماءِ فَوُزِنْتَ فيه أنت وأبوبكرٍ فَرَجَحْتَ بأبي بكرٍ ثم وُزِنَ فيه أبوبكرٍ وعمرُ فَرَجَحَ أبو بكرٍ بعمرَ ثم وُزِنَ فيه عمرُ وعثمانُ فَرَجَحَ عمرُ بعثمانَ ثم رُفِعَ الميزانُ فاسْتآلَهَا يعني تَأَوَّلَها ثم قال : خِلافَةُ نُبُوَّةٍ ثم يُؤْتِي اللهُ الملكَ مَنْ يَشاءُ

الراوي : أبو بكرة نفيع بن الحارث | المحدث : الألباني | المصدر : تخريج كتاب السنة الصفحة أو الرقم : 1135 | خلاصة حكم المحدث : صحيح

4.6 مختصر سيرة معاوية بن أبي سفيان

وثبت من طرق عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أنه قال: ما رأيت أحدا أسود من معاوية، قال الراوي: ولا عمر؟ قال: كان عمر خيرا منه، وكان معاوية أسود منه41. قال الإمام أحمد: "معنى أسود: أي أسخى، وقال: السيّد: الحليم، والسيّد: المعطي، أعطى معاويةُ أهلَ المدينة عَطايا ما أعطاها خليفةٌ قد كان قبلَه".

قال عنه عبدالله بن عباس -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُما-: ما رأيتُ رجلًا كان أخْلَقَ للمُلْك من معاوية.

قال قبيصة بن جابر: ما رأيت أحدًا أعظم حلمًا، ولا أكثر سؤددًا، ولا أبعد أناةً، ولا ألين مخرجًا، ولا أرحب باعًا بالمعروف من معاوية.

وعن عبدالله بن عمرو بن العاص -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- أنه قال: ما رأيت أحدًا أسود (من السيادة) من معاوية.

وعن أبي الدرداء -رضي الله عنه- أنه قال لأهل الشام: ما رأيت أحدًا أشبه صلاة بصلاة رسول الله -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- من إمامكم هذا (يعني: معاوية).

أخرج الطبراني عن سعيد المقبري، قال: قال عمر بن الخطاب: تذكرون كسرى وقيصر ودهاءهما وعندكم معاوية!

قال عمر بن الخطاب -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- لما ولَّاه الشام: لا تذكروا معاوية إلا بخير، فإني سمعت رسول الله -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- يقول: (اللهم اهد به).

روى البخاري في الصحيح أنه قيل لابن عباس: هل لك في أمير المؤمنين معاوية فإنه ما أوتر إلا بواحدة، قال: إنه فقيه.

ولقد دعى النبي ﷺ لمعاوية تعلم الكتاب والحساب معا فعن العرباض بن سارية أنه قال سمِعتُ النَّبيَّ ﷺ وهوَ يَدعو إلى السَّحورِ في شهرِ رمضانَ: هَلُمَّ إلى الغداءِ المبارَكِ ثمَّ سمعتُه يقولُ: اللَّهمَّ علِّمْ مُعاويةَ الكِتابَ، والحِسابَ ، وقِهِ العَذابَ [4][5][6][7].[1] وفي رواية أخرى: "اللهم علمه الكتاب ومكن له في البلاد وقه العذاب". ولعل هذا فيه الإشارة الكافية لأهمية علم الحساب وأنه من الدين وأنه من أسباب التمكين لأن به يقام العدل في الحكم. ولقد إستجاب الله جل جلاله هذا الدعاء لنبيه ﷺ فقد كان معاوية رضي الله عنه حكما عدلا حتى عرف بالمهدي عند أئمة التابعين فقد جاء عن مجاهد رحمه الله أنه قال: "لو رأيتم معاوية لقلتم هذا المهدي". وقال قتادة رحمه الله: "لو أصبحتم في مثل عمل معاوية لقال أكثركم: هذا المهدي". وقد ذكر عند الأعمش عمر بن عبد العزيز وعدله، فقال الأعمش: "فكيف لو أدركتم معاوية؟ قالوا: يا أبا محمد، يعني في حلمه؟ قال: لا والله، ألا بل في عدله".

[1] أحمد: 17152، وأورده الذهبي في سير أعلام النبلاء وبن كثير في البداية والنهاية، والإمام الألباني في السلسلة الصحيحة.

وفيما شجر بين معاوية وعلي رضي الله عنهم يقول الشيخ ابن باز رحمه الله: وأهل السنة يقولون: إنَّ عليًّا وأصحابه هم المصيبون، وأن معاوية قد أخطأ، وأن عمل معاوية عمل بَغْيٍ، ولكنه مجتهد؛ للمُطالبة بدم قتلة عثمان، فاجتهد فأخطأ فله أجر الاجتهاد، وسمَّاه النبيُّ: باغيًا، قال في عمار: تقتل عمّارًا الفئةُ الباغيةُ، وهم معاوية وأصحابه، قتلوه، فعليٌّ وأصحابه هم أهل العدل، ولهم البيعة الصحيحة، والذين مع معاوية بيعتهم غير صحيحةٍ، مجتهدون لهم أجرٌ واحدٌ، رضي الله عنهم وأرضاهم، والواجب الكفُّ عن مساوئهم، والتَّرضي عنهم، والإيمان بأنهم مجتهدون: مَن أصاب فله أجران، ومَن أخطأ فله أجرٌ.

4.7 مختصر سيرة عمر بن عبد العزيز

تبدأ قصة عمر بن عبد العزيز مع الخليفة الراشد أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عندما نهى فِي خِلَافَته عَن مذق اللَّبن بِالْمَاءِ، فَخرج ذَات لَيْلَة فِي حَوَاشِي الْمَدِينَة فَإِذا بِامرأة تَقول لِابنة لَهَا أَلا تمذقين لبنك فقد أَصبَحت. فَقَالَت الْجَارِيَة كَيفَ أمذق وَقد نهى أَمِير الْمُؤمنِينَ عَن المذق. فَقَالَت قد مذق النَّاس فامذقي فَمَا يدْرِي أَمِير الْمُؤمنِينَ. فَقَالَت إِن كَانَ عمر لَا يعلم فإله عمر يعلم، مَا كنت لأفعله وَقد نهى عَنهُ. فَوَقَعت مقالتها من عمر، فَلَمَّا أصبح، دَعَا عَاصِمًا ابْنه فَقَالَ يَا بني اذْهَبْ إِلَى مَوضِع كَذَا وَكَذَا فاسأل عَن الْجَارِيَة ووصفها لَهُ. فَذهب عَاصِم، فَإِذا هِيَ جَارِيَة من بني هِلَال. فَقَالَ لَهُ عمر اذْهَبْ يَا بني فَتَزَوجهَا، فَمَا أحراها أَن تَأْتِي بِفَارِس يسود الْعَرَب. فَتَزَوجهَا عَاصِم بن عمر فَولدت لَهُ بنت عَاصِم بن عمر بن الْخطاب، فَتَزَوجهَا عبد الْعَزِيز بن مَرْوَان بن الحكم فَأَتَت بعمر بن عبد الْعَزِيز. وجاء أيضا أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه ذات يوم استيقظ من نَومه فَمسح النّوم عَن وَجهه وفرك عَيْنَيْهِ وَهُوَ يَقُول من هَذَا الَّذِي من ولد عمر يُسمى عمر يسير بسيرة عمر يُرَدِّدهَا مَرَّات

[17]. وقيل إن عمر بن الخطاب قال إن من ولدي رجلاً بوجهه شتر يملأ الأرض عدلاً [5].

وَولد عمر بن عبد الْعَزِيز بِالْمَدِينَةِ فَلَمَّا شب وعقل وَهُوَ غُلَام كَانَ يَأْتِي عبد الله بن عمر كثيرا لقرابة أمه مِنْهُ (خال أمه) وكان يحبه ويحب التشبه به [17]. وروى ضمام بن إسماعيل عن أبي قبيل أن عمر بن عبد العزيز بكى وهو غلام صغير فأرسلت إليه أمه وقالت ما يبكيك؟ قال ذكرت الموت قال وكان يومئذ قد جمع القرآن فبكت أمه حين بلغها ذلك [5]. ونقل الزبير بن بكار عن العتبي أن أول ما استبين من عمر بن عبد العزيز أن أباه ولي مصر وهو حديث السن يشك في بلوغه فأراد إخراجه فقال يا أبت أو غير ذلك؟ لعله أن يكون أنفع لي ولك أن أبقى في المدينة فأقعد إلى فقهاء أهلها وأتأدب بآدابهم فوجهه إلى المدينة فاشتهر بها بالعلم والعقل مع حداثة سنه [5]. ولما أرادت أم عمر أن تهاجر إلى مصر لتلحق بزوجها عبد العزيز بن مروان الذي كان واليا لمصر، راجعت خالها عبد الله بن عمر رضي الله عنه فطلب منها عبد الله بن عمر ترك عمر بن عبد العزيز في المدينة وقال لها: خَلْفي هَذَا الْغُلَام عندنَا يُرِيد عمر فَإِنَّهُ أشبهكم بِنَا أهل الْبَيْت. فخلفته عِنْده. فنشأ في المدينة وتعلم العلم الشرعي النافع مع ما كان له من خشية الله التي عرف بها. وعند وفاة أبيه، بعث إليه عمه عبد الملك بن مروان وخلطه بولده وقدمه على كثير منهم وزوجه بابنته فاطمة [5]. جاء عنه أنه دائما ما يفقده رفقاءه فيجدونه يجلس باكيا. وسأله عن ذلك أمير المؤمنين وابن عمه سليمان بن عبد الملك فقال: مَا يبكيك يَا أَبَا حَفْص، فقَالَ عمر بن عبد العزيز: أبكاني يَا أَمِير الْمُؤمنِينَ أَنِّي ذكرت يَوْم الْقِيَامَة، من قدم شَيْئا وجده، وَلم أقدم شَيْئا فَلم أجد شَيْئا. وَخرج سُلَيْمَان بن عبد الْملك وَمَعَهُ عمر بن عبد الْعَزِيز إِلَى الْحَج فَأَصَابَهُمْ مطر شَدِيد ورعد وبرق فَقَالَ سُلَيْمَان هَل رَأَيْت مثل هَذَا يَا أَبَا حَفْص فَقَالَ يَا أَمِير الْمُؤمنِينَ هَذَا فِي حِين رَحمته فَكيف بِهِ فِي حِين غَضَبه [17].

وجاء أيضا أنه ذَات لَيْلَة خرج عمر بن عبد العزيز على مركب لَهُ يسير وَحده وَتَبعهُ مُزَاحم فَتقدم

عمر وَتَأَخر مُزَاحم فَنظر مُزَاحم فَإِذا هُوَ بِرَجُل يُسَايِر عمر وَعَهده بِهِ وَحده وَقد وضع الرجل يَده على عاتق عمر قَالَ مُزَاحم فَقلت فِي نَفسِي من هَذَا إِن هَذَا لذُو دَالَّة عَلَيْهِ فحركت للحوق بِهِ فَأَدْرَكته فَإِذا هُوَ وَحده لَا أرى مَعَه أحدا غَيره فَقلت لَهُ رَأَيْت مَعَك رجلا آنِفا قد وضع يَده على عاتقك وَهُوَ يسايرك فَقلت فِي نَفسِي من هَذَا إِن هَذَا لذُو دَالَّة عَلَيْهِ فلحقتكما فَلم أر أحدا غَيْرك فَقَالَ عمر أوقد رَأَيْته يَا مُزَاحم قَالَ نعم قَالَ إِنِّي لأحسبك رجلا صَالحا ذَلِك يَا مُزَاحم الْخضر أعلمني أَنِّي سألي هَذَا الْأَمر وأعان عَلَيْهِ [17]. وذكر ذلك الذهبي فقال: عن رياح بن عبيدة قال خرج عمر بن عبد العزيز إلى الصلاة وشيخ متوكئ على يده فقلت في نفسي هذا شيخ جاف فلما صلى ودخل لحقته فقلت له من الشيخ الذي كان يتكئ على يدك فقال يا رياح رأيته؟ قلت: نعم قال ما أحسبك إلا رجلاً صالحاً ذاك أخي الخضر أتاني فأعلمني أني سألي أمر الأمة وإني سأعدل فيها [5].

وولي عمر بن عبد العزيز أميرا على المدينة بأمر الخليفة قبله سُلَيْمَان بن عبد الْملك حيث أن سليمان لم يستطع توريث الملك لأبناءه لصغرهم فكان يشكوا في مرضه ويقول: (إِن بني صبية صغَار، أَفْلح من كَانَ لَهُ كبار)و ،(إِن بني صبية صيفيون، أَفْلح من كَانَ لَهُ ربعيون). وكان عمر عبد العزيز يرد عليه بقوله: يا أمير الْمُؤمنِينَ، يَقُول الله تبَارك وَتَعَالَى (قد أَفْلح من تزكّى وَذكر اسْم ربه فصلى) عارضا عليه أن يحتسب ذلك لله جل جلاله إن ولى غيرهم. فحدث سليمان بن عبد الملك نَفسه بِولَايَة عمر بن عبد الْعَزِيز لما كَانَ يعرف من حَاله، فَشَاور رَجَاء فِيمَن يعْقد لَهُ فَأَشَارَ عَلَيْهِ رَجَاء بعمر وسدد لَهُ رَأْيه فِيهِ، فَوَافَقَ ذَلِك رَأْي سُلَيْمَان وَقَالَ لأعقدن عقدا لَا يكون للشَّيْطَان فِيهِ نصيب فاسْتخْلف فِيهِ عمر بن عبد الْعَزِيز وَيزِيد بن عبد الْملك من بعد عمر. فلما لَقِي سُلَيْمَان ربه وَقضى الله عَلَيْهِ الْمَوْت فَقَامَ عمر حَتَّى جلس على الْمِنْبَر فنعى للنَّاس سُلَيْمَان وَفتح الْكتاب فَإِذا فِيهِ اسْتِخْلَاف عمر وَيزِيد بن عبد الْملك فَسمع النَّاس وأطاعوا وَقَامُوا فَبَايعُوا لعمر عبد العزيز. وجاء أيضا أن رجلا من أهل المدينة

قد رأى فِي مَنَامه كَأَن قَائِلا من السَّمَاء ينظر إِلَيْهِ يَقُول أَتَاكُم الْعدْل واللين وَإِظْهَار الْعَمَل الصَّالح فِي الْمُصَلِّين فَقَالَ لَهُ الرجل من هُوَ يَرْحَمك الله فَنزل إِلَى الأَرْض وَكتب بِيَدِهِ عمر فاستخلف عمر فِي يَوْم تِلْكَ اللَّيْلَة [17].

وجاء أيضا في كتاب سيرة عمر عبد العزيز [17] أنه لَمَّا دفن سُلَيْمَان دَعَا عمر بن عبد العزيز بِدَوَاةٍ وَقِرْطَاس فَكتب ثَلَاثَة كتب لم يَسعهُ فِيمَا بَينه وَبَين الله عز وَجل أَن يؤخرها فأمضاها من فوره فَأخذ النَّاس فِي كِتَابه إِيَّاهَا هُنَالك فِي همزه يَقُولُونَ مَا هَذِه العجلة أما كَانَ يصبر إِلَى أَن يرجع إِلَى منزله هَذَا حب السُّلْطَان. فإذا به يعجل بالحكم بالعدل في ثلاث مسائل وهي:

- كَانَ سُلَيْمَان قد أمر مسلمة بن عبد الْملك بحصار الْقُسْطَنْطِينِيَّة برا وبحرا وأشفى على فتحهَا ثمَّ خدع عَنْهَا حَتَّى أحرزوا طعامهم وحوائجهم ثمَّ أغلقوها دونه بعد الإشفاء عَلَيْهَا فَبلغ ذَلِك سُلَيْمَان فَغَضب مِمَّا فعل بِهِ فَحلف أَن لَا يقفله مِنْهَا مَا دَامَ حَيا فَاشْتَدَّ عَلَيْهِم الْمقَام وجاعوا حَتَّى أَكلُوا الدَّوَابّ من الْجهد والجوع حَتَّى يتَنَحَّى الرجل عَن دَابَّته فتقطع بِالسُّيُوفِ فَبلغ رَأس الدَّابَّة كَذَا وَكَذَا درهما ولج سُلَيْمَان فِي أَمرهم فَكَانَ ذَلِك يغم عمر فَلَمَّا ولي رأى أَنه لَا يَسعهُ فِيمَا بَينه وَبَين الله عز وَجل أَن يَلِي شَيْئا من أُمُور الْمُسلمين ثمَّ يُؤَخر قفلهم سَاعَة فَذَلِك الَّذِي حمله على تَعْجِيل الْكتاب.
- كتب بعزل أُسَامَة بن زيد التنوخي وَكَانَ على خراج مصر وَأمر بِهِ أَن يحبس فِي كل جند سنة ويقيد وَيحل عَن الْقَيْد عِنْد كل صَلَاة ثمَّ يرد فِي الْقَيْد وَكَانَ غاشما ظلوما معتديا فِي الْعُقُوبَات بِغَيْر مَا أنزل الله عز وَجل يقطع الْأَيْدِي فِي خلاف مَا يُؤمر بِهِ ويشق أَجْوَاف الدَّوَابّ فَيدْخل فِيهَا القطاع ويطرحهم للتماسيح فحبس بِمصْر سنة ثمَّ نقل إِلَى أَرض فلسطين فحبس بهَا سنة ثمَّ مَاتَ عمر رَحمَه الله وَولي يزِيد بن عبد الْملك فَرد أُسَامَة على مصر.

- كتب بعزل يزِيد بن أبي مُسلم عَن إفريقية وَكَانَ عَامل سوء يظْهر التأله والنفاذ لكل مَا أَمر بِهِ السُّلْطَان مِمَّا جلّ أَو صغر من السِّيرَة بالجور والمخالفة للحق وَكَانَ فِي هَذَا يكثر الذّكر وَالتَّسْبِيح وَيَأْمُر بالقوم فيكونون بَين يَدَيْهِ يُعَذبُونَ وَهُوَ يَقُول سُبْحَانَ الله وَالْحَمْد لله شدّ يَا غُلَام مَوضِع كذاوكذا لبَعض مَوَاضِع الْعَذَاب وَهُوَ يَقُول لَا إِلَه إِلَّا الله وَالله أكبر شدّ يَا غُلَام مَوضِع كذاوكذا فَكَانَت حَالَته تِلْكَ شَرّ الْحَالَات فَكتب بعزله.

وكل هذا فيه أن عمر بن عبد العزيز كان رجلا عادلا لا يرضى بالظلم حيث عجل بالعدل والإنصاف عندما تولى الأمر رحمه الله. وجاء عن ميمون بن مهران أنه قال: سمعت عمر بن عبد العزيز يقول لو أقمت فيكم خمسين عاماً ما استكملت فيكم العدل إني لأريد الأمر من أمر العامة فأخاف ألا تحمله قلوبهم فأخرج معه طمعا من طمع الدنيا [5]. وجاء عن عبد الله بن محمد عن الأوزاعي أنه قال كتب إلينا عمر بن عبد العزيز رسالة لم يحفظها غيري وغير مكحول: أما بعد فإنه من أكثر ذكر الموت رضي من الدنيا باليسير ومن عد كلامه من عمله قل كلامه إلا فيما ينفعه والسلام [5]. وقال الأوزاعي كان عمر بن عبد العزيز إذا أراد أن يعاقب رجلا حبسه ثلاثا ثم عاقبه كراهية أن يعجل في أول غضبه [5]. وجاء أيضا أن عمر بن عبد العزيز كتب إلى عدي بن أرطاة عامله على العراق: إذا أمكنتك القدرة على المخلوق فاذكر قدرة الخالق القادر عليك، واعلم أن ما لك عند الله أكثر مما لك عند الناس [18]. وكتب عبد الحميد بن عبد الرحمن إلى عمر: إنّ رجلا شتمك فأردت أن أقتله، فكتب إليه عمر عبد العزيز: لو قتلته لأقدتك به، فإنه لا يقتل أحد بشتم أحد إلا رجل شتم نبيّا [18].

وبعد أن دفن سُلَيْمَان وَقَامَ عمر بن عبد الْعَزِيز بالأمر قربت إِلَيْهِ المراكب، فَقَالَ مَا هَذِه، فَقَالُوا مراكب لم تركب قطّ يركبهَا الْخَلِيفَة أول مَا يَلِي، فَتَركهَا وَخرج يلْتَمس بغلته، وَقَالَ يَا مُزَاحم ضم هَذَا إِلَى بَيت مَال الْمُسلمين. ونصبت لَهُ سرادقات وَحجر لم يجلس فِيهَا أحد قطّ كَانَت تضرب للخلفاء

أول مَا يلون، فَقَالَ مَا هَذِه، فَقَالُوا سرادقات وَحجر لم يجلس فِيهَا أحد قطّ يجلس فِيهَا الْخَلِيفَة أول مَا يَلِي، قَالَ يَا مُزَاحم ضم هَذِه إِلَى أَمْوَال الْمُسلمين ثمَّ ركب بغلته. وَانْصَرف إِلَى الْفرش والوطاء الَّذِي لم يجلس عَلَيْهِ أحد يفرش للخلفاء أول مَا يلون، فَجعل يدْفع ذَلِك برجلِهِ حَتَّى يُفْضِي إِلَى الْحَصِير، ثمَّ قَالَ يَا مُزَاحم ضم هَذَا لأموال الْمُسلمين. فَلَمَّا أصبح عمر، قَالَ لَهُ أهل سُلَيْمَان هَذَا لَك وَهَذَا لنا، قَالَ وَمَا هَذَا وَمَا هَذَا، قَالُوا هَذَا مِمَّا لبس الْخَلِيفَة من الثِّيَاب وَمَسّ من الطّيب فَهُوَ لوَلَده، وَمَا لم يمس وَلم يلبس فَهُوَ للخليفة بعده وَهُوَ لَك، قَالَ عمر مَا هَذَا لي وَلَا لِسُلَيْمَان وَلَا لكم وَلَكِن يَا مُزَاحم ضم هَذَا كُله إِلَى بَيت مَال الْمُسلمين. فتشاور عليه وزراءه فيما بينهم فَقَالُوا أما المراكب والسرادقات وَالْحجر والشوار والوطاء فَلَيْسَ فِيهِ رَجَاء بعد أَن كَانَ مِنْهُ فِيهِ مَا قد علمْتُم، وَبقيت خصْلَة هِيَ الْجَوَارِي نعرضهن عَلَيْهِ فَعَسَى أَن يكون مَا تُرِيدُونَ فِيهِنَّ، فَإِن كَانَ وَإِلَّا فَلَا طمع لكم عِنْده. فَأتي بالجواري فعرضن عَلَيْهِ كأمثال الدمى فَلَمَّا نظر إِلَيْهِنَّ جعل يسألهن وَاحِدَة وَاحِدَة من أَنْت، وَلمن كنت، وَمن بعث بك، فتخبره الْجَارِيَة بأصلها وَلمن كَانَت وَكَيف أخذت، فيأمر بردهن إِلَى أهليهن ويحملن إِلَى بلادهن حَتَّى فرغ مِنْهُنَّ. فَلَمَّا رَأَوْا ذَلِك أيسوا مِنْهُ وَعَلمُوا أَنه سيحمل النَّاس على الْحق. وأحتجب من الناس ثلاثا أيام لَا يدْخل عَلَيْهِ أحد، ووجوه بني مَرْوَان وَبني أُميَّة وأشراف الْجنُود وَالْعرب وغيرهم بِبَابِهِ ينظرُونَ مَا يخرج عَلَيْهِم مِنْهُ، فَجَلَسَ للنَّاس بعد ثَلَاث أيام وَحَملهمْ على شَرِيعَة من الْحق فعرفوها، فَرد الْمَظَالِم، وَأَحْيَا الْكتاب وَالسّنة، وَسَار بِالْعَدْلِ، ورفض الدُّنْيَا وزهد فِيهَا، وتجرد لإحياء أَمر الله عز وجل فَلم يزل على ذَلِك حَتَّى قَبضه الله عزوجل فرحمه الله [17].

وجاء أيضا أنه لما انصرف عمر بن عبد العزيز من دفن سليمان بن الملك تبعه الأمويون، فلما دخل إلى منزله قال له الحاجب: الأمويون بالباب. قال: وما يريدون؟ قال: ما عوّدتهم الخلفاء قبلك. قال ابنه عبد الملك وهو إذ ذاك ابن أربع عشرة سنة: ائذن لي في إبلاغهم عنك. قال: وما تبلغهم؟ قال:

أقول: أبي يقرئكم السلام ويقول لكم إِنِّي أَخافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ [18]. وجاء عن ابنه عبد الملك بن عمر بن عبد العزيز أنه قال لأبيه: يا أبت، مالك لا تنفذ الأمور؟ فو الله ما أبالي لو أن القدور غلت بي وبك في الحق! قال له عمر: لا تعجل يا بنيّ؛ فإنّ الله ذمّ الخمر في القرآن مرتين وحرّمها في الثالثة، وأنا أخاف أن أحمل الحق على الناس جملة فيدفعونه جملة ويكون من ذلك فتنة [18]. وهذا فيه أن عبد الملك بن عمر بن عبد العزيز كان ابنا صالحا، وقد جاء أنه مات قبل أبوه. فلما نزل بعبد الملك بن عمر بن عبد العزيز الموت قال له عمر: كيف تجدك يا بنيّ؟ قال أجدني في الموت، فاحتسبني، فثواب الله خير لك مني، فقال: يا بني، والله لأن تكون في ميزاني أحبّ إليّ من أن أكون في ميزانك. قال: أما والله لأن يكون ما تحب، أحبّ إليّ من أن يكون ما أحب! ثم مات، فلما فرغ من دفنه وقف على قبره وقال: يرحمك الله يا بنيّ فلقد كنت سارّا مولودا، وبارّا ناشئا، وما أحب أني دعوتك فأجبتني؛ فرحم الله كل عبد، من حر أو عبد، ذكر أو أنثى دعا لك برحمة! فكان الناس يترحمون على عبد الملك ليدخلوا في دعوة عمر؛ ثم انصرف، فدخل الناس يعزونه، فقال: إن الذي نزل بعبد الملك أمر لم نزل نعرفه، فلما وقع لم ننكره [18].

وجاء عن عمر عبد العزيز أنه كان لا يحب من يقوم له، وَلما ولي عمر بن عبد الْعَزِيز قَامَ النَّاس بَين يَدَيْهِ فَقَالَ يَا معشر النَّاس إِن تقوموا نقم وَإِن تقعدوا نقعد فَإِنَّمَا يقوم النَّاس لرب الْعَالمين إِن الله فرض فَرَائض وَسن سننا من أَخذ بهَا لحق وَمن تَركهَا محق وَمن أَرَادَ أَن يصحبنا فليصحبنا بِخمْس يُوصل إِلَيْنَا حَاجَة من لَا تصل إِلَيْنَا حَاجته ويدلنا من الْعدْل إِلَى مَا لَا نهتدي إِلَيْهِ وَيكون عونا لنا على الْحق وَيُؤَدِّي الْأَمَانَة إِلَيْنَا وَإِلَى النَّاس وَلَا يغتب عندنَا أحدا وَمن لم يفعل فَهُوَ فِي حرج من صحبتنا وَالدُّخُول علينا [17]. وجاء عنه أنه كان يرد الإطراء فعن عمرو بن عثمان الحمصي حدثنا خالد بن يزيد عن جعونة قال دخل رجل على عمر بن عبد العزيز فقال يا أمير المؤمنين إن من قبلك كانت

الخلافة لهم زينا وأنت زين الخلافة فأعرض عنه [5]. وقال ابن عيينة قال رجل لعمر بن عبد العزيز جزاك الله عن الإسلام خيراً قال بل جزى الله الإسلام عني خيراً [5]. وذات يوم ناداه رجل فَقَالَ يَا خَلِيفَة الله فِي الأَرْض فَقَالَ لَهُ عمر مَه إِنِّي لما ولدت اخْتَار لي أَهلِي اسْما فسموني عمر فَلَو ناديتني يَا عمر أَجَبْتُك [.] فَلَمَّا وليتموني أُمُوركُم سميتموني أَمِير الْمُؤمنِينَ فَلَو ناديتني يَا أَمِير الْمُؤمنِينَ أَجَبْتُك وَأما خَلِيفَة الله فِي الأَرْض فلست كَذَلِك وَلَكِن خلفاء الله فِي الأَرْض دَاوُد النَّبِي عَلَيْهِ السَّلَام وَشبهه قَالَ الله تبَارك وَتَعَالَى: (يَا دَاوُد إِنَّا جعلناك خَلِيفَة فِي الأَرْض) [17].

وَكَانَ عمر بن عبد الْعَزِيز إِذْ كَانَ واليا على الْمَدِينَة إِذا بَات على ظهر الْمَسْجِد مَسْجِد رَسُول الله صلى الله عَلَيْهِ وَسلم لم تقربه امْرَأَة إعظاما لمَسْجِد رَسُول الله صلى الله عَلَيْهِ وَسلم [17]. ومن حكمه أنه أرجع مبدأ الشورى، فلَمَّا قَدِمَ عُمَرُ بْنُ عبد العزيز المدينة ونزل دار مروان دخل عليه الناس فسلموا، فلما صلى الظهر دعا عشرة من فقهاء المدينة: عروة بن الزبير، وعبيد الله بن عبد الله بن عتبة، وأبا بكر بن عبد الرحمن، وأبا بكر بن سُلَيْمَان بن ابى حثمه، وسليمان بن يسار، وو القاسم بْن محمد، وسالم بْن عَبْد اللَّهِ بن عُمَرَ، وعبد اللَّه بن عبد الله ابن عمرو، وعبد الله بن عامر بن ربيعة، وخارجة بن زيد، فدخلوا عليه فجلسوا، فَحَمِدَ اللَّهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ بِمَا هُوَ أَهْلُهُ، ثم قال: إني إنما دعوتكم لأمر تؤجرون عليه، وتكونون فيه أعوانا على الحق، ما أريد أن أقطع أمرا إلا برأيكم أو برأي من حضر منكم، فإن رأيتم أحدا يتعدى، أو بلغكم عن عامل لي ظلامة، فأحرج الله على من بلغه ذلك إلا بلغني. فخرجوا يجزونه خيرا، وافترقوا [19]. وجاء أيضا أنه لما قدم أنس بن مَالك خَادِم النَّبِي صلى الله عَلَيْهِ وَسلم من الْعرَاق إِلَى الْمَدِينَة، كَانَت تعجبه صَلَاة عمر بن عبد الْعَزِيز وَكَانَ عمر أميرها، فصلى أنس خَلفه فَقَالَ مَا صليت خلف إِمَام بعد رَسُول الله صلى الله عَلَيْهِ وَسلم أشبه صَلَاة بِصَلَاة رَسُول الله صلى الله عَلَيْهِ وَسلم من إمامكم هَذَا. وَكَانَ عمر بن عبد الْعَزِيز رَضِي الله عَنهُ يتم الرُّكُوع وَالسُّجُود ويخفف

الْقُعُود وَالْقِيَام [19]. وعن عطاء قال كان عمر بن عبد العزيز يجمع كل ليلة الفقهاء فيتذاكرون الموت والقيامة والآخرة ويبكون [5].

وكان يكره كل الظالمين وبالأخص الحجاج ومن ذلك أن الْحَجَّاج قد ولي الْمَوْسِم، فَكتب عمر إِلَى الْخَلِيفَة يستعفيه أَن يمر عَلَيْهِ بِالْمَدِينَةِ. فَكتب أمير المؤمنين إِلَى الْحَجَّاج إِن عمر بن عبد الْعَزِيز كتب إِلَيّ يستعفيني من ممرك عَلَيْهِ فَلَا عَلَيْك أَن لَا تمر بِمن كرهك فَتنحّى عَن الْمَدِينَة [17]. جاء أيضا حَمَّدُ بْنُ عَلِيٍّ، ثنا أَبُو الْعَبَّاسِ بْنُ قُتَيْبَةَ، ثنا إِبْرَاهِيمُ بْنُ هِشَامِ بْنِ يَحْيَى، حَدَّثَنِي أَبِي، عَنْ جَدِّي قَالَ: قَالَ عُمَرُ: " مَا حَسَدْتُ الْحَجَّاجَ عَدُوَّ اللهِ عَلَى شَيْءٍ حَسَدِي إِيَّاهُ عَلَى حُبِّهِ الْقُرْآنَ وَإِعْطَائِهِ أَهْلَهُ، وَقَوْلِهِ حِينَ حَضَرَتْهُ الْوَفَاةُ: اللهُمَّ اغْفِرْ لِي، فَإِنَّ النَّاسَ يَزْعُمُونَ أَنَّكَ لَا تَفْعَلُ [20].

وكان عمر عبد العزيز متبعا لكتاب الله وسنة نبيه فقال: سنّ رَسُول الله صلى الله عَلَيْهِ وَسلم وولاة الْأَمر من بعده سننا الْأَخْذ بهَا اعتصام بِكِتَاب الله وَقُوَّة على دين الله وَلَيْسَ لأحد تبديلها وَلَا تغييرها وَلَا النّظر فِي أَمر خالفها من اهْتَدَى بهَا فَهُوَ مهتد وَمن استنصر بهَا فَهُوَ مَنْصُور وَمن تركهَا وَاتبع غير سَبِيل الْمُؤمنِينَ ولاه الله مَا تولى وأصلاه جَهَنَّم وَسَاءَتْ مصيرا [17]. وكان عمر بن عبد العزيز يخطب في قومه بالوعظ والتذكير بأمر الله فتارة يخطب عن التقوى وتارة يخطب عن البعث والتوبة والإستغفار وكان يبكي على المنبر ويبكي من حوله من الناس. وخطب أيضا: أيها الناس، لا تستصغروا الذنوب، والتمسوا تمحيص ما سلف منها بالتوبة منها؛ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ، ذلِكَ ذِكْرى لِلذَّاكِرِينَ، وقال عز وجل: وَالَّذِينَ إِذا فَعَلُوا فاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلى ما فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ [18]. وكانت خطبه قصيرة جدا ولكن بالغة ومؤثرة ومن ذلك أنه ذات يوم خطب بالنَّاس فَقَالَ أَيهَا النَّاس إِنَّه لَيْسَ بعد نَبِيكُم نَبِي وَلَيْسَ بعد الْكتَاب الَّذِي أنزل عَلَيْكُم كتَاب فَمَا أحل الله على لِسَان نبيه فَهُوَ حَلَال إِلَى يَوْم الْقِيَامَة وَمَا حرم الله على لِسَان

نبيه فَهُوَ حرَام إِلَى يَوْم الْقِيَامَة أَلا إِنِّي لست بقاض وَإِنَّمَا أَنا منفذ لله وَلست بِمُبْتَدِعٍ وَلكِنِّي مُتبع أَلا إِنَّه لَيْسَ لأحد أَن يطاع فِي مَعْصِيّة الله عز وَجل لست بِخَيْرِكُمْ وَإِنَّمَا أَنا رجل مِنْكُم أَلا وَإِنِّي أثقلكم حملا يَا أَيهَا النَّاس إِن أفضل الْعِبَادَة أَدَاء الْفَرَائِض وَاجْتنَاب الْمَحَارِم أَقُول قولي هَذَا وَأَسْتَغْفِر الله الْعَظِيم لي وَلكم [17]. فأحبه الناس لما كان فيه من خير، ومن ذلك أن سهيل بن أبي صالح قال: كنت مع أبي غداة عرفة فوقفنا لننظر لعمر ابن عبد العزيز وهو أمير الحاج فقلت يا أبتاه والله إني لأرى الله يحب عمر قال لم؟ قلت: لما أراه دخل له في قلوب الناس من المودة وأنت سمعت ابا هريرة يقول قال رسول الله ﷺ: "إذا أحب الله عبدا نادى جبريل إن الله قد أحب فلانا فأحبوه" (صحيح البخاري، صحيح مسلم) [5].

وكان عمر بن عبد العزيز يخاف الله، وسئلت فَاطِمَة بنت عبد الْملك زَوْجَة عمر بن عبد الْعَزِيز عَن عبَادَة عمر فَقَالَت وَالله مَا كَانَ بِأَكْثَرَ النَّاس صَلَاة وَلَا أَكْثَرهم صياما وَلكِن وَالله مَا رَأَيْت أحدا أخوف لله من عمر لقد كَانَ يذكر الله فِي فرَاشه فينتفض انتفاض العصفور من شدَّة الْخَوْف حَتَّى نقُول ليصبحن النَّاس وَلَا خَلِيفَة لَهُم [17]. وَقَرَأَ عمر بن عبد الْعَزِيز بِالنَّاسِ ذَات لَيْلَة (وَاللَّيْل إِذا يغشى) فَلَمَّا بلغ (فأنذرتكم نَارا تلظى) خنقته الْعبْرَة فَلم يسْتَطع أَن ينفذها فَرجع حَتَّى إِذا بلغَهَا خنقته الْعبْرَة فَلم يسْتَطع أَن ينفذها فَتَركهَا وقرأ سورة غَيرهَا [17]. وكان رضي الله عنه رحيما بالمسلمين، ومن ذلك أنه كتب على أبي بكر بن حزم إِن كل من هلك وَعَلِيهِ دين لم يكن دينه فِي خرقه فَاقْض عَنهُ دينه من بَيت مَال الْمُسلمين [17]. كان بتعاهد رعيته بالنصيحة، وعند وقوع الزلازل كتب عمر بن عبد الْعَزِيز إِلَى أهل الْأَمْصَار إِن هَذِه الرجفة شَيْء يُعَاتب الله بِهِ الْعباد وَقد كنت كتبت إِلَى أهل بلد كذاوكذا أَن يخرجُوا يَوْم كذاو كَذَا فَمن اسْتَطَاعَ أَن يتَصَدَّق فيلفعل فَإِن الله عز وَجل يَقُول (قد أَفْلح من تزكّى) وَقَالَ قُولُوا كَمَا قَالَ أبوكم آدم (رَبنَا ظلمنَا أَنْفُسنَا وَإِن لم تغْفر لنا وترحمنا لنكونن

من الخاسرين) وَقُولُوا كَمَا قَالَ نوح (وَإِلَّا تغْفر لي وترحمني أكن من الخاسرين) وَقُولُوا كَمَا قَالَ مُوسَى (رب إِنِّي ظلمت نَفسِي فَاغْفِر لي) [17].

ولقد عرف الناس الغنى في زمن عمر بن عبد العزيز ومن ذلك أن يحيى بن سعيد قال بَعَثَنِي عمر بن عبد الْعَزِيز على صدقَات إفريقية فاقتضيتها وَطلبت فُقَرَاء نعطيها لَهُم فَلم نجد بهَا فَقِيرا وَلم نجد من يَأْخُذهَا مني قد أغْنى عمر بن عبد الْعَزِيز النَّاس فاشتريت بهَا رقابا فأعتقتهم وولاؤهم للْمُسلمين [17]. ومن عدله أنه قال لا تهدموا كنيسة ولا بيعة ولا بيت نار صولحتم عليه، ولا تحدثن كنيسة ولا بيت نار، ولا تجر الشاة إلى مذبحها، ولا تحدوا الشفرة على رأس الذبيحة، ولا تجمعوا بين الصلاتين إلا من عذر [19].

قال معاوية بن يحيى: حدثنا أرطاة قال: قيل لعمر بن عبد العزيز: لو جعلت على طعامك أمينا لا تغتال وحرسيا إذا صليت وتنح عن الطاعون، قال اللهم إن كنت تعلم أني أخاف يوما دون يوم القيامة، فلا تؤمن خوفي [5]. وقد سمم عمر عبد العزيز وشاع بين الناس أنه سحر، فعن معروف بن مشكان عن مجاهد قال لي عمر بن عبد العزيز ما يقول في الناس؟ قلت: يقولون مسحور، قال ما أنا بمسحور، ثم دعا غلاما له فقال ويحك ما حملك على أن سقيتني السم؟ قال ألف دينار أعطيتها وعلى أن أعتق، قال هاتها، فجاء بها، فألقاها في بيت المال وقال اذهب حيث لا يراك أحد [5]. وجاء عن زياد عن مالك قال: دخل مسلمة بن عبد الملك على عمر بن عبد العزيز في المرضة التي مات فيها، فقال له: يا أمير المؤمنين، إنك فطمت أفواه ولدك عن هذا المال، وتركتهم عالة. ولا بدّ لهم من شيء يصلحهم، فلو أوصيت بهم إليّ أو إلى نظرائك من أهل بيتك لكفيتك مئونتهم إن شاء الله. فقال عمر أجلسوني. فأجلسوه، فقال: الحمد لله، أبالفقر تخوّفني يا مسلمة؟ أما ما ذكرت أني فطمت أفواه ولدي عن هذا المال وتركتهم عالة، فإني لم أمنعهم حقا هو لهم، ولم أعطهم حقا هو لغيرهم؛ وأما ما سألت

من الوصاة إليك أو إلى نظرائك من أهل بيتي، فإن وصيتي بهم إلى الله الذي نزّل الكتاب وهو يتولّى الصالحين؛ وإنما بنو عمر أحد رجلين: رجل اتقى الله فجعل الله له من أمره يسرا ورزقه من حيث لا يحتسب، ورجل غيرّ وفجر، فلا يكون عمر أول من أعانه على ارتكابه. ادعوا لي بنيّ، فدعوهم، وهم يومئذ اثنا عشر غلاما، فجعل يصعّد بصره فيهم ويصوّبه حتى اغرورقت عيناه بالدمع ثم قال: بنفسي فتية تركتهم ولا مال لهم! يا بني، إني قد تركتكم من الله بخير، إنكم لا تمرّون على مسلم ولا معاهد إلا ولكم عليه حق واجب إن شاء الله، يا بنيّ، ميّلت رأيي بين أن تفتقروا في الدنيا وبين أن يدخل أبوكم النار، فكان أن تفتقروا إلى آخر الأبد خيرا من دخول أبيكم يوما واحدا في النار؛ قوموا يا بنيّ عصمكم الله ورزقكم! قال: فما احتاج أحد من أولاد عمر ولا افتقر [18]. وعن عبيد بن حسان قال لما احتضر عمر بن عبد العزيز قال اخرجوا عني فقعد مسلمة وفاطمة على الباب فسمعوه يقول مرحبا بهذه الوجوه ليست بوجوه إنس ولا جان ثم تلا: تِلكَ الدّارُ الآخِرَةُ نَجعَلُها لِلَّذينَ لا يُريدونَ عُلُوًّا فِي الأَرضِ وَلا فَسادًا ۚ وَالعاقِبَةُ لِلمُتَّقينَ ﴿٨٣﴾القصص ثم هدأ الصوت فقال مسلمة لفاطمة قد قبض صاحبك فدخلوا فوجدوه قد قبض [5]. وروى عن يوسف بن ماهك قال بينا نحن نسوي التراب على قبر عمر بن عبد العزيز إذاسقط علينا كتاب رق من السماء فيه بسم الله الرحمن الرحيم أمان من الله لعمر بن عبد العزيز من النار. وقال الذهبي عن هذا: مثل هذه الآية لو تمت لنقلها أهل ذاك الجمع ولما انفرد بنقلها مجهول مع أن قلبي منشرح للشهادة لعمر أنه من أهل الجنة [5].

مات عمر بن عبد العزيز يوم الجمعة لخمس بقين من رجب بدير سمعان في سنة إحدى ومائة، وهو ابن تسع وثلاثين سنة وأشهر، وكانت خلافته سنتين وخمسه اشهر، ومات بدير سمعان [19]. وقال هشام لما جاء نعيه إلى الحسن قال مات خير الناس [5].فترك ورائه سيرة عطرة رحمه الله، فقال عنه الذهبي في سير أعلام النبلاء: وكان من أئمة الاجتهاد ومن الخلفاء الراشدين رحمة الله عليه. ولخص

سيرته فقال: قد كان هذا الرجل حسن الخلق والخلق، كامل العقل، حسن السمت، جيد السياسة حريصا على العدل بكل ممكن، وافر العلم، فقيه النفس، ظاهر الذكاء والفهم، أواهاً منيباً قانتاً لله حنيفاً، زاهداً مع الخلافة، ناطقا بالحق مع قلة المعين وكثرة الأمراء الظلمة الذين ملوه وكرهوا محاققته لهم ونقصه أعطياتهم وأخذه كثيراً مما في أيديهم مما أخذوه بغير حق، فما زالوا به حتى سقوه السم فحصلت له الشهادة والسعادة، وعد عند أهل العلم من الخلفاء الراشدين والعلماء العاملين [5]. وقال عنه ميمون بن مهران إن الله كان يتعاهد الناس بنبي بعد نبي وإن الله تعاهد الناس بعمر بن عبد العزيز [5]. وقال حرملة سمعت الشافعي يقول الخلفاء خمسة أبو بكر وعمر وعثمان وعلي وعمر بن عبد العزيز وفي رواية الخلفاء الراشدون وورد عن أبي بكر بن عياش نحوه وروى عباد بن السماك عن الثوري مثله [5]. وعن عبد الرحمن بن زيد عن عمر بن أسيد قال والله ما مات عمر بن عبد العزيز حتى جعل الرجل يأتينا بالمال العظيم فيقول اجعلوا هذا حيث ترون فما يبرح يرجع بماله كله قد أغنى عمر الناس [5]. وقال فيه حماد بن واقد سمعت مالك بن دينار يقول الناس يقولون عني زاهد إنما الزاهد عمر بن عبد العزيز الذي أتته الدنيا فتركها [5]. وفي الزهد لابن المبارك أخبرنا إبراهيم بن نشيط حدثنا سليمان بن حميد عن أبي عبيدة بن عقبة بن نافع أنه دخل على فاطمة بنت عبد الملك فقال ألا تخبريني عن عمر؟ قالت ما أعلم أنه اغتسل من جنابة ولا احتلام منذ استخلف [5]. وعن ابن المبارك عن هشام بن الغاز عن مكحول لو حلفت لصدقت ما رأيت أزهد ولا أخوف لله من عمر بن عبد العزيز [5].

وولي يزيد بن عبد الملك بن مروان بن الحكم، وأمه عاتكة بنت يزيد بن معاوية، يوم الجمعة لخمس بقين من رجب سنة إحدى ومائة [18]. فزاد الظلم بعد ذلك.

4.8 الحساب في زمن الحكم الرشيد

البحث والعناية بعلم الحساب هو غاية جليلة ومهمة عظيمة أعتنى بها المسلمون اللاحقون في زمن الخليفة الراشد هارون الرشيد التي أسس دار الحكمة في بغداد العراق حتى أصبح المسلمين في ذلك الوقت روادا في علم الحساب والذى كان مفتاحا لهم لشتى العلوم الأخرى حتى عرف ذلك الزمان بالعصر الإسلامي الذهبي. ومن أبرز من بحث وألف في علم الحساب هو العالم الفذ محمد بن موسى الخوارزمي رحمه الله تعالى والذي وصل صيته أقطاب الأرض حتى دخل أسمه معاجم وقواميس كافة اللغات الأخرى. فاللوغرتميات جاءت من الترجمة اللاتينية لإسمه وهو ما عرف عند العرب المتأخرين بالخوارزميات. وهذا مفهوم يبنى عليه كافة الحسابات المركبة والمعقدة التي نراها اليوم من انظمة الحساب والمنطق بشتى أنواعها بما فيها أنظمة الصواريخ والطيران وحتى انظمة الذكاء الإصطناعي. وقد ألف الخوارزمي كتابه "المختصر في الجبر والمقابلة" وكان هذا الكتاب نافعا للمسلمين وغيرهم وهو أساس تقدم البشرية في شتى المجالا إلى يومنا هذا. ولهذا سمي علم الموازنة والمقابلة بعلم "الجبر" كما سماه الخوارزمي بذلك وتمت اضافة كلمة "الجبر" أيضا إلى كافة معاجم اللغات الأخرى. ويعتبر الخوارزمي إلى يومنا هو مؤسس علم الجبر والحساب والخوارزميات ومن أهم علماء الحساب في تاريخ البشرية.

وللأسف فقد غاب وغيب على أغلب المسلمين في زماننا هذا أهمية ميراث الخوارزمي في علم الجبر والحساب. وهو ميراث حري بنا جمع شتاته وإعادة بناء أركانه لتقوم الأمة بالميزان الذي أمرنا الله به. فقد جهل الكثير من المسليمن ميراث الخوارزمي حتى بخس قدره ونسي علمه فكان بين مفرط أو مدلس. ومن ذلك ضياع كتابه في الجبر والمقابلة من المسلمين حتى تمت طباعة أول نسحة عربية منه في عام 1939م (1357هـ) بناء على النسخة الأصلية الوحيدة التي سرقت من مصر ونقلت إلى بريطانيا

والتي يرجع تاريخها إلى عام 1439م (843هـ) أي بعد وفاة الخوارزمي بحوالي 500 عام شمسية. ليرجع لنا كتاب الخوارزمي بعد حوالي ألف عام من تأليفه. وفي كل هذه الأعوام ترجم كتابه إلى شتى اللغات ومنها الأنجليزية والألمانية والفرنسية وأصبحت مرجعا لجميع الحضارات الأوروبية وغيرها. ليتفاجأ المسلمين بوجود كلمات عربية في هذه الثقافات ومنها algorithms والتي تعني الخوارزميات وكلمة algebra وهي الجبر في معجم اللغة الانجليزية على سبيل المثال لا الحصر.

ومن التدليس الذي تعرض له الخوارزمي في تقديم كتابه هو نسبة عمله إلى الحضارة المصرية في طرح مخالف للطرح الذي وضعه الخوارزمي في كتابه. وهذا ليس إلا إحقاقا للحق ولا يجب أن يحمل هذا على محمل الإستنقاص لمن نقل هذا العمل لنا تقديما وتعليقا فجزاهم الله خير الجزاء. ومن التدليس أيضا طرح كتابه في الحساب مجردا من الغاية التي كتب لها ومنه عدم ذكر سبب تأليف كتابه في الجبر والذي كان في الأساس سعيا منه رحمه الله لتحقيق الحكم الرشيد بناء على الحساب الصحيح في الميراث والبيع والشراء والكراء وما يتعلق بذلك من حساب المسافات والأرض. وليتبين طرح الخوارزمي نضع مقدمة كتابه رحمه الله والتي جاء فيها:[2]

[2]مع تصرف يسير من حذف لكلمات التي تخالف السياق وفي الغالب قد يظن انها أخطاء خلال النسخ.

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا كتاب وضعه محمد بن موسى الخوارزمي افتتحه بأن قال:

الحمد الله على نعمه بما هو أهله من محامده التي بأداء ما افترض منها على من يعبده من خلقه يقع اسم الشكر ويستوجب المزيد إقرارا بروبوبيته وتذللا لعزته وخشوعا لعظمته. بعث محمدا صلى الله عليه وعلى آله وسلم بالنبوة على حين فترة من الرسل نورا من الحق ودروس من الهدي فبصر به من العمى واستنقذ به من الهلكة وكثر به بعد قلة وألف به بعد الشتات.

تبارك الله ربنا وتعالى جده وتقدست أسماؤه ولا إله غيره, وصلى الله على محمد النبي وآله وسلم. ولم تزل العلماء في الأزمنة الخالية والأمم الماضية يكتبون الكتب مما يصنفون من صنوف العلم ووجوه الحكمة نظرا لمن بعدهم واحتسابا للأجر بقدر الطاقة ورجاء أن يلحقهم من أجر ذلك وذخره وذكره ويبقى لهم من لسان صدق ما يصغر في جنبه كثير مما كانوا يتكفلونه من المؤونة ويحملونه على أنفسهم من المشقة في كشف أسرار العلم وغامضه. إما رجل سبق إلى مالم يكن مستخرجا قبله فورثه من بعده. وإما رجل شرح مما أبقى الأولون ما كان مستغلقا فأوضح طريقه وسهل مسلكه وقرب مأخذه. وإما رجل وجد في بعض الكتب خللا فلم شعثه وأقام أوده وأحسن الظن بصاحبه غير راد عليه ولا مفتخر بذلك من فعل نفسه.

وقد شجعني ما فضل الله به الامام المأمون أمير المؤمنين مع الخلافة التي حاز له إرثها وأكرمه بلباسها وحلاه بزينتها, من الرغبة في الأدب وتقريب أهله وإدنائهم وبسط كنفه لهم ومعونته إياهم على إيضاح ما كان مستبهما وتسهيل ما كان مستوعرا. على أن ألفت من كتاب الجبر والمقابلة كتابا مختصرا حاصرا للطيف الحساب وجليله لما يلزم الناس من الحاجة إليه في مواريثهم ووصياهم وفي مقاسمتهم وأحكامهم وتجارتهم, وفي جميع ما يتعاملون به بينهم من مساحة الأرضين وكرى الأنهار والهندسة وغير ذلك من وجوهه وفنونه, مقدما لحسن النية فيه وراجيا لأن ينزله أهل الأدب بفضل ما استودعوا من نعم الله تعالى وجليل آلائه وجميل بلائه عندهم منزلته وبالله توفيقي في هذا لا في غيره عليه توكلت وهو رب العرش العظيم وصلى الله على جميع الأنبياء والمرسلين.

وعليه يلعم أن الخوارزمي رحمه الله إنما ألف كتابه هذا لتوضيح علم الحساب الصحيح الذي يحتاج إليه الناس في أمور دينهم ودنياهم. فقد إفتتح الخوارزمي رحمه الله كتابه بالبسملة متبعا سنة الأنبياء في ذلك. وكان رحمه الله حريصا وراجيا بأن يعتنى أهل الأدب بهذا الكتاب ويعطونه حقه وينزلونه منزلته لما علم ما فيه من أسس وقواعد لا غنى عنها في علم الحساب الصحيح. وختم مقدمته سائلا الله التوفيق في ذلك ومتوكلا عليه. وبهذا يتبين حسن مقصد الخوارزمي من تأليف كتابه فنسأل الله العلي العظيم أن يرحمه رحمة واسعة وأن يرفغ قدره في الجنة وأن يجزيه عنا خير الجزاء.

فبدأو بالعناية بعلم الحساب وجمع مؤلفاته من كافة أقطاب الدنيا فعكفوا على ترجمتها حتى فهموها وعقلوها وعرفوا ما شابها من خطأ ونقصان. فأسسوا نظام الأرقام الذي نعرفه اليوم فقسموا الأرقام إلى ارقام فردية وأسسوا علم الجبر وحساب المثلثات وغيرها من علوم الحساب بشكل لم تعرفه البشرية من قبل. وكان ذلك سببا في تحقيق الحكم الرشيد في المعاملات والبيع والشراء والكراء. فكان علم الحساب مفتاحا في تطور المسلمين في شتى مجالات الدنيا ومنها مجال الهندسة والطب في العصر الإسلامي الذهبي.

يعتبر المسلمين هم من وضع أسس العلم الحديث في زمن هارون الرشيد الذي أسس دار الحكمة في بغداد لتكون في ذلك الزمان عاصمة الحضارة في العلم حيث عرف هذا العصر بالعصر الإسلامي الذهبي. وبفضل التأمل والنظر في آيات القرآن الكريم الدالة على تعلم العدد والحساب وإقامة الوزن بالقسط وأن كل شئ خلق بقدر، استطاع المسلمين التفوق على غيرهم من الأمم الأخرى في علم الحساب فكانوا هم أول من أسس علم الجبر والمقابلة وكان ذلك على يدي العالم الجليل محمد بن موسى الخوارزمي -رحمه الله تعالى- الذي نُسِيَ فضله وضُيِعَ علمه بين إفراط وتفريط. ولقد بين شيخ الإسلام بن تيمية أن أهل السنة في زمانه قد اعتنوا بالنظر في علم الجبر والمقابلة الذي أسسه الخوارزمي وأشار

إلى أهمية هذا العلم في العلم الشرعي ومن ذلك قوله: "وَكَذَلِكَ كَثِيرٌ مِنْ مُتَأَخِّرِي أَصْحَابِنَا يَشْتَغِلُونَ وَقْتَ بَطَالَتِهِمْ بِعِلْمِ الْفَرَائِضِ وَالْحِسَابِ وَالْجَبْرِ وَالْمُقَابَلَةِ وَالْهَنْدَسَةِ وَنَحْوِ ذَلِكَ؛ لِأَنَّ فِيهِ تَفْرِيحًا لِلنَّفْسِ وَهُوَ عِلْمٌ صَحِيحٌ لَا يَدْخُلُ فِيهِ غَلَطٌ. وَقَدْ جَاءَ عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ أَنَّهُ قَالَ: إذَا لَهَوْتُمْ فَالْهُوا بِالرَّمْيِ وَإِذَا تَحَدَّثْتُمْ فَتَحَدَّثُوا بِالْفَرَائِضِ. فَإِنَّ حِسَابَ الْفَرَائِضِ عِلْمٌ مَعْقُولٌ مَبْنِيٌّ عَلَى أَصْلٍ مَشْرُوعٍ فَتَبْقَى فِيهِ رِيَاضَةُ الْعَقْلِ وَحِفْظُ الشَّرْعِ" [8].[3] وكل هذا فيه اهتمام السلف بهذا العلم العظيم في أوقات فراغهم رغم إنشغالهم بالأمور العظيمة الأخرى في بيان الحق ورد البدع والشبهات التي عصفت في ذلك الزمن كعلم الكلام والفلفسة التي تخالف صريح كتاب الله جل جلاله وسنة نبيه ﷺ.

وينسب لشيخ الإسلام قوله عن الخوارزمي: "وإن كان علمه صحيحا إلا إن العلوم الشرعية مستغنية عنه وعن غيره". ولكن هذا القول لم يثبت عن شيخ الإسلام في حق الخوارزمي. بل هذا من التدليس والتفريط في هذا العلم العظيم الذي ابتلينا به في زماننا. وإنما كان شبخ الإسلام يرد على من غلى في علم الحساب وأراد أن يجعل الشريعة متوقفة عليه من غلاة المنطق، فقال في ذلك: "وَقَدْ بَيَّنَّا أَنَّهُ يُمْكِنُ الْجَوَابُ عَنْ كُلِّ مَسْأَلَةٍ شَرْعِيَّةٍ جَاءَ بِهَا الرَّسُولُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِدُونِ حِسَابِ الْجَبْرِ وَالْمُقَابَلَةِ. وَإِنْ كَانَ حِسَابُ الْجَبْرِ وَالْمُقَابَلَةِ صَحِيحًا فَنَحْنُ قَدْ بَيَّنَّا أَنَّ شَرِيعَةَ الْإِسْلَامِ وَمَعْرِفَتَهَا لَيْسَتْ مَوْقُوفَةً عَلَى شَيْءٍ يُتَعَلَّمُ مِنْ غَيْرِ الْمُسْلِمِينَ أَصْلًا وَإِنْ كَانَ طَرِيقًا صَحِيحًا. بَلْ طُرُقُ الْجَبْرِ وَالْمُقَابَلَةِ فِيهَا تَطْوِيلٌ. يُغْنِي اللَّهُ عَنْهُ بِغَيْرِهِ كَمَا ذَكَرْنَا فِي الْمَنْطِقِ. وَهَكَذَا كُلُّ مَا بُعِثَ بِهِ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِثْلَ الْعِلْمِ بِجِهَةِ الْقِبْلَةِ وَالْعِلْمِ بِمَوَاقِيتِ الصَّلَاةِ وَالْعِلْمِ بِطُلُوعِ الْفَجْرِ وَالْعِلْمِ بِالْهِلَالِ؛ فَكُلُّ هَذَا يُمْكِنُ الْعِلْمُ بِهِ بِالطُّرُقِ الَّتِي كَانَ الصَّحَابَةُ وَالتَّابِعُونَ لَهُمْ بِإِحْسَانِ يَسْلُكُونَهَا وَلَا يَحْتَاجُونَ مَعَهَا إلَى شَيْءٍ آخَرَ" [8].[4]

[3] مجموع الفتاوى 9/129.

[4] مجموع الفتاوى 9/215.

وقد ذكر شيخ الإسلام إعتناء أهل السنة في زمانه بالعلوم الصادقة ومنها الجبر والمقابلة وخص الخوارزمي في ذلك فقال: "لِهَذَا يَرْغَبُ كَثِيرٌ مِنْ عُلَمَاءِ السُّنَّةِ فِي النَّظَرِ فِي الْعُلُومِ الصَّادِقَةِ الدَّقِيقَةِ كَالْجَبْرِ وَالْمُقَابَلَةِ وَعَوِيصِ الْفَرَائِضِ وَالْوَصَايَا وَالدُّورِ وَهُوَ عِلْمٌ صَحِيحٌ فِي نَفْسِهِ [٠] وَأَمَّا "حِسَابُ الْفَرَائِضِ" فَمَعْرِفَةُ أُصُولِ الْمَسَائِلِ وَتَصْحِيحُهَا وَالْمُنَاسَخَاتُ وَقِسْمَةُ التَّرِكَاتِ. وَهَذَا الثَّانِي كُلُّهُ عِلْمٌ مَعْقُولٌ يُعْلَمُ بِالْعَقْلِ كَسَائِرِ حِسَابِ الْمُعَامَلَاتِ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ الْأَنْوَاعِ الَّتِي يَحْتَاجُ إلَيْهَا النَّاسُ. ثُمَّ قَدْ ذَكَرُوا حِسَابَ الْمَجْهُولِ الْمُلَقَّبَ بِحِسَابِ الْجَبْرِ وَالْمُقَابَلَةِ فِي ذَلِكَ وَهُوَ عِلْمٌ قَدِيمٌ لَكِنَّ إدْخَالَهُ فِي الْوَصَايَا وَالدُّورِ وَنَحْوِ ذَلِكَ أَوَّلُ مَنْ عُرِفَ أَنَّهُ أَدْخَلَهُ فِيهَا مُحَمَّدُ بْنُ مُوسَى الخوارزمي. وَبَعْضُ النَّاسِ يَذْكُرُ عَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ أَنَّهُ تَكَلَّمَ فِيهِ وَأَنَّهُ تَعَلَّمَ ذَلِكَ مِنْ يَهُودِيٍّ وَهَذَا كَذِبٌ عَلَى عَلِيٍّ." [8].[5]

سيرة هارون الرشيد اللحيدان

الفوزان

كلام الفوزان في المأمون غرر به المعتزلة

ومن الحكم الرشيد مصالحة الكفار لدرء المفاسد كما في العهد المكي وفيه ايضا ان النجاشي لم يكن مسلم ولا يظلم عنده أحد فهو حقق العدل

4.9 عودة الحكم الرشيد في آخر الزَّمانِ

فقال: يا أبا بكرة، حدثني بشيء سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعجبه الرؤيا الصالحة ويسأل عنها، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم: " أيكم رأى رؤيا؟ " فقال رجل: أنا يا رسول الله، رأيت كأن ميزانا دلي من السماء، فوزنت أنت بأبي

[5] مجموع الفتاوى 9/214.

بكر فرجحت بأبي بكر، ثم وزن أبو بكر بعمر، فرجح أبو بكر بعمر، ثم وزن عمر بعثمان، فرجح عمر بعثمان، ثم رفع الميزان، فاستاء لها رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: " خلافة نبوة، ثم يؤتي الله الملك من يشاء "، قال عفان فيه: فاستآلها، (١) وقال حماد: فساءه ذلك (٢)

فقال حذيفة: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " تكون النبوة فيكم ما شاء الله أن تكون، ثم يرفعها إذا شاء (٢) أن يرفعها، ثم تكون خلافة على منهاج النبوة، فتكون ما شاء الله أن تكون، ثم يرفعها إذا شاء الله أن يرفعها، ثم تكون ملكا عاضا، فيكون ما شاء الله أن يكون، ثم يرفعها إذا شاء أن يرفعها، ثم تكون ملكا جبرية، فتكون ما شاء الله أن تكون، ثم يرفعها إذا شاء أن يرفعها، ثم تكون خلافة على منهاج نبوة " (٣) ثم سكت،

قالَ: كانَتْ بَنُو إسْرائِيلَ تَسُوسُهُمُ الأنْبِياءُ، كُلَّما هَلَكَ نَبِيٌّ خَلَفَهُ نَبِيٌّ، وإنَّه لا نَبِيَّ بَعْدِي، وسَيَكونُ خُلَفاءُ فَيَكْثُرُونَ. قالوا: فَما تَأْمُرُنا؟ قالَ: فُوا ببَيْعَةِ الأوَّلِ فالأوَّلِ، أعْطُوهُمْ حَقَّهُمْ، فإنَّ اللَّهَ سائِلُهُمْ عَمَّا اسْتَرْعاهُمْ.

يَكونُ في آخِرِ الزَّمانِ خَلِيفَةٌ يَقْسِمُ المالَ ولا يَعُدُّهُ. الراوي : أبو سعيد الخدري وجابر بن عبدالله | المحدث :مسلم | المصدر : صحيح مسلم الصفحة أو الرقم: 2913 | خلاصة حكم المحدث : [صحيح]

مِنْ خُلَفائِكُمْ خَلِيفَةٌ يَحْثُو المالَ حَثْيًا، لا يَعُدُّهُ عَدَدًا. وفي رِوايَةِ ابْنِ حُجْرٍ: يَحْثِي المالَ. الراوي : أبو سعيد الخدري | المحدث : مسلم | المصدر : صحيح مسلم | الصفحة أو الرقم : 2914 | خلاصة حكم المحدث : [صحيح]

4.10 معادلات

فيما يلي مثال على معادلة رياضية:

$$E = mc^2 \tag{1}$$

ومثال آخر على معادلة معقدة:

$$\int_0^\infty e^{-x^2}\, dx = \frac{\sqrt{\pi}}{2} \tag{2}$$

4.11 نص الفصل الأول - الصفحة الثانية

هذه الصفحة الثانية للفصل الأول تحتوي على نص إضافي لتوضيح كيفية تنسيق النصوص في كتب اللاتكس باللغة العربية.

4.12 نص الفصل الأول - الصفحة الثالثة

هذه الصفحة الثالثة للفصل الأول تحتوي على المزيد من النصوص لاختبار تقسيم الصفحات وظهور الرؤوس والأقدام بشكل صحيح في النصوص العربية.

علم الحساب في الشريعة

5.1 مقدمة

هذه هي المقدمة للفصل الأول.

5.2 الحساب داخل في المعاملات

ومن رحمة الله بنا أنه أباح لنا التعامل بالمكيال حجما، وبالميزان وزنا، وبالحساب عدا لكل ما هو قابل للقياس كالحجم والوزن وغير ذلك. ومن حكمة الله وعدله أنه كلفنا ووصانا بالوفاء والقسط في ذلك كله كما جاء في العديد من الآيات منها قوله تعالى: وَأَوفُوا الكَيلَ إِذا كِلتُم وَزِنوا بِالقِسطاسِ المُستَقيمِ ۚ ذٰلِكَ خَيرٌ وَأَحسَنُ تَأويلًا ﴿٣٥﴾ (الإسراء). وكل هذا حتى يتدرج الناس في إقامة العدل بسحب ما يستطيعون وبحسب ما علموا كما في قوله تعالى: وَأَوفُوا الكَيلَ وَالميزانَ بِالقِسطِ لا نُكَلِّفُ نَفسًا إِلّا وُسعَها (الأنعام: 152).

ولقد عرف الناس قديما الكيل لسهولته فيقاس بالصاع أي الحجم الثابت دون الحاجة إلى الميزان كما

كان شائعا في عهد يوسف عليه السلام حيث قال لأخوته: أَلا تَرَونَ أَنّي أوفِي الكَيلَ وَأَنا خَيرُ المُنزِلينَ ﴿٥٩﴾ (يوسف). ولم يأتي ذكر الميزان في قصة يوسف عليه السلام فدل ذلك على أن الميزان لم يكن شائعا في ذلك الزمان ولكن يوسف عليه السلام كان عالما بالحساب أيضا كما سيأتي بيانه فأوفى الكيل بالعد والحساب وهذا من تمام حفظه وعلمه عليه السلام. ومما يدل على أن يوسف عليه السلام أقام الكيل بالحجم لا بالوزن هو إستخدامه عليه السلام للسقاية وهي صواع الملك. وجاء في تفسير بن كثير رحمه الله تعالى أن السقاية هي إناء من فضة أو من ذهب وهي نفسها صواع الملك وهو صاعه الذي يكيل به [10].

ويكثر التعامل بالمكيال عند المزارعين لسهولته بينما يكثر التعامل بالميزان عند التجار لدقته. وقد أدرك ذلك النبي ﷺ وأقره في قوله: المِكْيَالُ مِكْيَالُ أَهْلِ المدينةِ، والميزانُ ميزانُ أَهْلِ مَكَّةَ.[1] وهذا لأن أهل مكة عرفوا بالتجارة وأن أهل المدينة عرفوا بالزراعة. وأما في زماننا هذا فقد أصبح التعامل بالميزان والحساب أكثر من التعامل بالمكيال بسبب تطور العلوم والتكنولوجيا والتجارة. ولكن يبقى التعامل بالمكيال والميزان والحساب موجودا ومطلوبا في كل المعاملات.

ومن المعلوم بالقياس أن الوزن يثبت والحجم يتغير وهذا لأن الأشياء في أصلها تثبت بالوزن ولكن قد تتغير في الحجم بحسب ما تتعرض له من حرارة أو ضغط أو غير ذلك من الظروف الأخرى. ولهذا العديد من قوانين الفيزياء في أصلها تبنى على ثبات الوزن كما هو معروف لأهل هذا التخصص. وهذا فيه فضل الميزان بالوزن على المكيال بالحجم فيكون الميزان أفضل وأكمل من المكيال. ومن كمال عدل الله أنه يحاسب المكلفين يوم القيامة بالميزان لا بالكيل كما في قوله تعالى: وَنَضَعُ المَوازينَ القِسطَ لِيَومِ القِيامَةِ فَلا تُظلَمُ نَفسٌ شَيئًا ۖ وَإِن كانَ مِثقالَ حَبَّةٍ مِن خَردَلٍ أَتَينا بِها ۗ وَكَفىٰ بِنا حاسِبينَ ﴿٤٧﴾

[1] صححة الألباني في هداية الرواة.

(الأنبياء). فجعل سبحانه العبرة في يوم الحساب بالوزن الذي يقدر بالميزان وليس بالحجم الذي يقدر بالمكيال. ولهذا فقد قال النبي ﷺ: إِنَّه لَيَأْتِي الرَّجُلُ العَظِيمُ السَّمِينُ يَومَ القِيامَةِ، لا يَزِنُ عِنْدَ اللَّهِ جَناحَ بَعُوضَةٍ، وقالَ اقْرَؤُوا: فَلا نُقِيمُ لَهُم يَومَ القِيامَةِ وَزنًا ﴿١٠٥﴾ (الكهف: 105) [14].[2] وهذا فيه أيضا أن موازين القسط ليوم القيامة ليس بالحجم والشكل وإنما بالوزن لما يحبه الله ويرضاه من الأعمال والتي توافق ما شرعه الله لعباده وهذا هو الميزان الشرعي كما سيأتي بيانه.

5.3 أمثلة حسابية من القرآن والسنة

5.3.1 مكوث أهل الكهف

يقول جل جلاله عن مدة مكوث أهل الكهف في سورة الكهف: وَلَبِثوا في كَهفِهِم ثَلاثَ مِائَةٍ سِنينَ وَازدادوا تِسعًا ﴿٢٥﴾ الكهف. فقد يسأل السائل لماذا جاء النص مع "وازدادوا تسعا" وهذا فيه الحكمة البالغة منه سبحانه. فمن المعلوم أن الرسول ﷺ كان مخاطبا لأهل الكتاب وأن أهل الكتاب يستعملون السنوات الشمسية وأما المسلمين فهم يستعملون السنوات القمرية. فالمطلوب هنا حساب المدة بعدد السنوات الشمسية ليوافق ذلك حساب أهل الكتاب وتحويل ذلك إلى عدد السنوات القمرية الذي يستعمله المسلمين في تاريخهم. وبالحساب الصحيح يتبين الأتي:

عدد الأيام في السنة القمرية = 354 يوم

عدد الأيام في السنة الشمسية = 365 يوم

وبهذا يكون الفارق في عدد الأيام بينهما = 11 يوم

[2] صحيح البخاري: 4710، صحيح مسلم: 2785.

وعليه يكون في المئة سنة شمسية 36500 يوم وفي المئة سنة قمرية 35400 يوم. الفارق هو 1100 يوم. بتقسيم هذا الفارق على 354 نجد أن الفارق هو 3 سنوات قمرية. وبهذا يعلم أن لكل 100 سنة شمسية توجد 103 سنة قمرية تقريبا. وعليه يكون في كل 300 سنة شمسية هناك 309 سنة قمرية. ويكون الفارق هو فقط تسعة سنوات ولهذا جاء لفظ "وازدادوا تسعا" للبيان فهي 300 سنة شمسية بالنسبة لأهل الكتاب وزيادة عليها 9 سنوات لتوافق بذلك 309 سنة قمرية بالنسبة للمسلمين. وهذا ما يعرف في علم الحساب بوحدة قياس الأعداد. فبالحساب يمكن تحويل وحدة قياس من نوع إلى أخر. وفي هذا المثال كانت وحدة القياس هي الزمن وبه علم التحويل من القياس الشمسي إلى القياس القمري والخلاف بينهما لا يعني التعارض بل لكل وحدة قياس حسابها الخاص. وهذا فيه بيان حكمة الله وعلمه سبحانه وأن كلامه هو الحق لهذا جاء بعد هذه الأية قوله تعالى: قُلِ اللَّهُ أَعلَمُ بِما لَبِثوا لَهُ غَيبُ السَّماواتِ وَالأَرضِ ۖ أَبصِر بِهِ وَأَسمِع ۚ ما لَهُم مِن دونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلا يُشرِكُ في حُكمِهِ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ الكهف. ويقول ابن كثير في تفسير الآية التي ذكر فيها عدد السنوات: هذا خبر من الله تعالى لرسوله ﷺ بمقدار ما لبث أصحاب الكهف في كهفهم، منذ أرقدهم الله إلى أن بعثهم وأعثر عليهم أهل ذلك الزمان، وأنه كان مقداره ثلاثمائة سنة وتسع سنين بالهلالية، وهي ثلاثمائة سنة بالشمسية، فإن تفاوت ما بين كل مائة سنة بالقمرية إلى الشمسية ثلاث سنين؛ فلهذا قال بعد الثلاثمائة: (وازدادوا تسعا) [هـ].

5.3.2 مكوث الوحي من عيسى عليه السلام إلى محمد ﷺ

وفي مثال أخر يشه المثال السابق في تفسير قوله تعالى: يا أَهلَ الكِتابِ قَد جاءَكُم رَسولُنا يُبَيِّنُ لَكُم عَلىٰ فَترَةٍ مِنَ الرُّسُلِ أَن تَقولوا ما جاءَنا مِن بَشيرٍ وَلا نَذيرٍ ۖ فَقَد جاءَكُم بَشيرٌ وَنَذيرٌ ۗ وَاللَّهُ عَلىٰ كُلِّ شَيءٍ قَديرٌ

﴿١٩﴾المائدة. يقول ابن كثير في تفسيره عن هذا: (على فترة من الرسل) أي: بعد مدة متطاولة ما بين إرساله وعيسى ابن مريم. وهو أنه ستمائة سنة. ومنهم من يقول: ستمائة وعشرون سنة. ولا منافاة بينهما، فإن القائل الأول أراد ستمائة سنة شمسية، والآخر أراد قمرية، وبين كل مائة سنة شمسية وبين القمرية نحو من ثلاث سنين; ولهذا قال تعالى في قصة أصحاب الكهف: وَلَبِثوا في كَهفِهِم ثَلاثَ مِائَةٍ سِنينَ وَازدادوا تِسعًا ﴿٢٥﴾الكهف. أي: قمرية ، لتكميل الثلاثمائة الشمسية التي كانت معلومة لأهل الكتاب [هـ]. ولهذا فقد فهم المفسرين رحمهم الله بالقران الفرق بين عدد السنوات الشمسية والقمرية كما تقدم. وفيه أيضا عناية السلف رحمهم الله بالحساب وحساب الزمن وتحويله من وحدة قياس إلى أخرى.

5.3.3 عدد ساعات اليوم والليلة

عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ: يَوْمُ الْجُمُعَةِ اثْنَتَا عَشْرَةَ سَاعَةً، لَا يُوجَدُ فِيهَا عَبْدٌ مُسْلِمٌ يَسْأَلُ اللَّهَ شَيْئًا إِلَّا آتَاهُ إِيَّاهُ فَالْتَمِسُوهَا آخِرَ سَاعَةٍ بَعْدَ الْعَصْرِ.(أبو داود(1048), والنسائي(1389) وصححه الألباني). وفيه أن النبي ﷺ علم أن عدد ساعات اليوم بالمتوسط هو 12 ساعة. فإن كان لعدد ساعات الليلة مثل ذلك كانت عدد ساعات اليوم والليلة معا 24 ساعة. وهذا ما أعتاد عليه الناس في زماننا من حساب عدد ساعات اليوم والليلة. فإن ساعات اليوم والليلة تطول وتقصر خلال العام وتتغير بتغير المكان ولكن بالإجمال فهي 24 ساعة. وهذا فيه دليل نبوته ﷺ ففي زمانه لم يكن هناك الساعات الدقيقة التي نعرفها اليوم.

وعدد ساعات اليوم والليل تضبط بالتاريخ الشمسي كما موضح في

وكما موضح أن الأماكن القريبة من القطبين يغيب فيها النهار أو الليل خلال 24 ساعة وبهذا

يمضي اليوم كاملا ويتعذر ضبط أوقات الصلاة بالطريقة المعتادة. وقد رخص أهل العلم على جواز ضبط وقت الصلاة فيها كما اعتاد الناس في سائر أوقات السنة أو قياسا على غيرها من الأماكن. فعَنِ النَّوَّاسِ بْنِ سَمْعَانَ الْكِلاَبِيِّ، قَالَ ذَكَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الدَّجَّالَ فَقَالَ "إِنْ يَخْرُجْ وَأَنَا فِيكُمْ فَأَنَا حَجِيجُهُ دُونَكُمْ وَإِنْ يَخْرُجْ وَلَسْتُ فِيكُمْ فَامْرُؤٌ حَجِيجُ نَفْسِهِ وَاللَّهُ خَلِيفَتِي عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ فَمَنْ أَدْرَكَهُ مِنْكُمْ فَلْيَقْرَأْ عَلَيْهِ فَوَاتِحَ سُورَةِ الْكَهْفِ فَإِنَّهَا جِوَارُكُمْ مِنْ فِتْنَتِهِ". قُلْنَا وَمَا لُبْثُهُ فِي الأَرْضِ قَالَ " أَرْبَعُونَ يَوْمًا يَوْمٌ كَسَنَةٍ وَيَوْمٌ كَشَهْرٍ وَيَوْمٌ كَجُمُعَةٍ وَسَائِرُ أَيَّامِهِ كَأَيَّامِكُمْ". فَقُلْنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ هَذَا الْيَوْمُ الَّذِي كَسَنَةٍ أَتَكْفِينَا فِيهِ صَلاَةُ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ قَالَ "لاَ اقْدُرُوا لَهُ قَدْرَهُ ثُمَّ يَنْزِلُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ عِنْدَ الْمَنَارَةِ الْبَيْضَاءِ شَرْقِيَّ دِمَشْقَ فَيُدْرِكُهُ عِنْدَ بَابِ لُدٍّ فَيَقْتُلُهُ (صححه الألباني). وفي هذا يقول الشيخ ابن باز رحمه الله: الواجب على سكان هذه المناطق التي يطول فيها النهار أو الليل أن يصلوا الصلوات الخمس بالتقدير إذا لم يكن لديهم زوال ولا غروب لمدة أربع وعشرين ساعة، كما صح ذلك عن النبي ﷺ في حديث النواس بن سمعان، المخرج في صحيح مسلم في يوم الدجال الذي كسنة، سأل الصحابة رسول الله ﷺ عن ذلك، فقال: اقدروا له قدره. وهكذا حكم اليوم الثاني من أيام الدجال، وهو اليوم الذي كشهر، وهكذا اليوم الذي كأسبوع. أما المكان الذي يقصر فيه الليل ويطول فيه النهار أو العكس في أربع وعشرين ساعة فحكمه واضح: يصلون فيه كسائر الأيام، ولو قصر الليل جدا أو النهار؛ لعموم الأدلة، والله ولي التوفيق [هـ]. وهذا فيه أهمية الحساب وتسجيل بيانات أوقات الصلاة حتى يمكن تقديرها تقديرا صحيحا بقدر المستطاع إن تعذر معرفة ذلك من بغياب الليل أو النهار خلال 24 ساعة كما في فتنة المسيح الدجال.

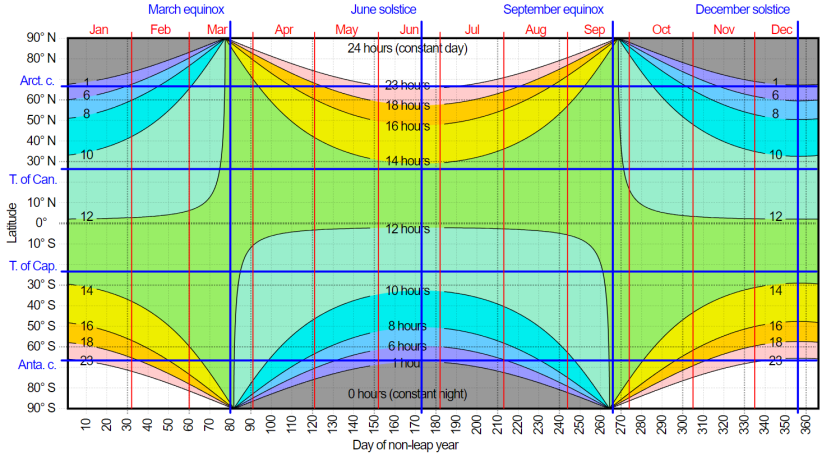

شكل 1.5: عدد ساعات النهار بحسب خطوط العرض

5.3.4 نسبية الوقت في القرآن

قال تعالى في كتابه: وَيَستَعجِلونَكَ بِالعَذابِ وَلَن يُخلِفَ اللَّهُ وَعدَهُ ۚ وَإِنَّ يَومًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلفِ سَنَةٍ مِمّا تَعُدّونَ ﴿٤٧﴾ الحج. ويقول ابن كثير في تفسيره: هو تعالى لا يعجل، فإن مقدار ألف سنة عند خلقه كيوم واحد عنده بالنسبة إلى حكمه. وهذا فيه الدليل على أن حساب الوقت نسبي ويختلف كما أخبر الله سبحانه وتعالى في أكثر من موضع. ومن ذلك قوله تعالى: يُدَبِّرُ الأَمرَ مِنَ السَّماءِ إِلَى الأَرضِ ثُمَّ يَعرُجُ إِلَيهِ في يَومٍ كانَ مِقدارُهُ أَلفَ سَنَةٍ مِمّا تَعُدّونَ ﴿٥﴾ السجدة. وأيضا قوله تعالى: تَعرُجُ المَلائِكَةُ وَالرّوحُ إِلَيهِ في يَومٍ كانَ مِقدارُهُ خَمسينَ أَلفَ سَنَةٍ ﴿٤﴾ المعارج. ففي هذه الأيات الدليل الواضح على أن الوقت لا يجري بنفس السرعة فبين الله تعالى ذلك بالنسبة لوقتنا في قوله "مما تعدون".

ويمكن توضيح ذلك المعنى عن طريق حساب فارق الوقت بين الجنة والأرض. فإن حملنا معنى

"عند ربك" أي في الجنة كما في قوله: وَلا تَحسَبَنَّ الَّذينَ قُتِلوا في سَبيلِ اللَّهِ أَمواتًا ۚ بَل أَحياءٌ عِندَ رَبِّهِم يُرزَقونَ ﴿١٦٩﴾آل عمران, فبهذا يكون لكل يوم واحد في الجنة ألف سنة مما نعد في الأرض كما يلي:

1 يوم في الجنة = 1000 سنة في الأرض

نبدأ أولا بتحويل اليوم الواحد إلى ثواني. فإن علمنا أن اليوم به 12 ساعة بالمتوسط (اليوم والليلة معا 24 ساعة) كما في المثال السابق, وأن الساعة بها 60 دقيقة وأن الدقيقة بها 60 ثانية, عليه يكون اليوم الواحد به 43200 ثانية. ثانيا نحسب عدد الأيام في كل 1000 سنة. فإن إستخدمنا عدد الأيام في السنة القمرية يكون عدد الأيام الكلي في كل 1000 سنة قمرية 354000 يوم. وإبقاء الميزان وإستبدال وحدات القياس يكون الناتج:

43200 ثانية في الجنة = 354000 يوما في الأرض

فإن قسمنا عدد الثواني في الجنة على عدد الأيام يكون:

1 ثانية في الجنة = 8.1944 يوما في الأرض

وعليه بمرور ثانية واحدة في الجنة تمر علينا 8 أيام و4 ساعات و39 دقيقة و22 ثانية في الأرض مما نعد ونحسب. وهذا لا يجب أن يفهم أن الوقت في الجنة بطئ جدا بالنسبة لمن هو في الجنة ولكن فقط بالنسبة للأرض. فالوقت هو نفسه كوحدة قياس ولكن قياس نفس القيمة في نطاق مختلف لا يلزم التساوي وأنما كل قياس يرجع لنطاقه الذي قيس فيه.

وهذه الظاهرة تم إكتشافها حديثا في بداية القرن العشرين على يدي العالم الفيزيائي ألبيرت آنشتاين وتعرف بظاهرة التمدد الزمني وهي جزء من النظرية النسبية. وهي ظاهرة مثبتة ويمكن حسابها بدقة

بإستخدام مفاهيم معروفة وأهمها ثبات سرعة الضوء في الفراغ. وهي ظاهرة مهمة جدا وتستخدم لموائمة أنظمة الإتصال وأنظمة تحديد الموقع مع الأقمار الصناعية. بدون الأخذ بعين الإعتبار ظاهرة التمدد الزمني كل هذه الأنظمة تتعطل.

ومن المثبت أيضا في النظرية النسبية أن مرور الوقت نسبي وهو يبطأ مع زيادة السرعة أو الجاذبية. ومن المعلوم أن الجاذبية تزداد مع زيادة كتلة الكواكب. وبهذا يعلم أن الوقت على القمر يمر أسرع بقليل بالنسبة للأرض بينما الوقت على الأرض يمر أسرع بالنسبة للشمس. وهذا الفارق يزيد من زيادة الفرق في الحجم. وعليه فإن مرور الوقت في الجنة أبطأ بكثير من الأرض دل على عظم الجنة بالنسبة للأرض. وهذا يتوافق مع قوله تعالى: وَسارِعوا إِلىٰ مَغفِرَةٍ مِن رَبِّكُم وَجَنَّةٍ عَرضُهَا السَّماواتُ وَالأَرضُ أُعِدَّت لِلمُتَّقينَ ﴿١٣٣﴾آل عمران.

5.3.5 ظاهرة الغلاف الجوي

سُبحانَ الَّذي خَلَقَ الأَزواجَ كُلَّها مِمّا تُنبِتُ الأَرضُ وَمِن أَنفُسِهِم وَمِمّا لا يَعلَمونَ ﴿٣٦﴾ وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيلُ نَسلَخُ مِنهُ النَّهارَ فَإِذا هُم مُظلِمونَ ﴿٣٧﴾ وَالشَّمسُ تَجري لِمُستَقَرٍّ لَها ۚ ذٰلِكَ تَقديرُ العَزيزِ العَليمِ ﴿٣٨﴾ وَالقَمَرَ قَدَّرناهُ مَنازِلَ حَتّىٰ عادَ كَالعُرجونِ القَديمِ ﴿٣٩﴾ لَا الشَّمسُ يَنبَغي لَها أَن تُدرِكَ القَمَرَ وَلَا اللَّيلُ سابِقُ النَّهارِ ۚ وَكُلٌّ في فَلَكٍ يَسبَحونَ ﴿٤٠﴾يس.

5.3.6 ظاهرة تعاقب الليل والنهار

تولِجُ اللَّيلَ فِي النَّهارِ وَتولِجُ النَّهارَ فِي اللَّيلِ ۖ وَتُخرِجُ الحَيَّ مِنَ المَيِّتِ وَتُخرِجُ المَيِّتَ مِنَ الحَيِّ ۖ وَتَرزُقُ مَن تَشاءُ بِغَيرِ حِسابٍ ﴿٢٧﴾آل عمران.

يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيلَ وَالنَّهارَ ۚ إِنَّ في ذٰلِكَ لَعِبرَةً لِأُولِي الأَبصارِ ﴿٤٤﴾ النور.

5.3.7 ظاهرة توسع الكون

من أعظم بلايا هذا الزمان هو تصوير ووضع العلم في إيطار منفصل عن الايمان بل والاسوأ في ايطار انكار وجود الخالق وهذا والله من اعظم الضلال والجهل.

بينما في الحقيقة العلم هو الطريق للتأمل في آيات الله الكونية والتي جميعها تنادي بوجود الخالق وقدرته وعظمته. فكل ما نراه من تناسق في هذا الكون من ليل ونهار وشمس وقمر ومطر وشجر وحجر ودواب كلها من آيات الله الكونية.

ومن اعظم آيات الله الكونية أن الله عز وجل لم يجعل السماء ثابتة بل جعلها تتوسع فلو كانت ثابتة لقال الكثير ان هذا الكون ليس له بداية وهي ثابتة ازلا وبهذا ينكرون وجود الخالق. ولكن الله جل جلاله جعل السماء تتمدد ليكون هذا التمدد دليلا على ان اطراف السماء كلها جاءت من نقطة واحدة وهذا هو الدليل القاطع على بداية الكون.

الإقرار بأن هذا الكون له بداية كما تشير كل الأدلة والمفاهيم التي توصل لها البشر في القرن العشرين ومنها ما جاء في نظرية الإنفجار العظيم يبطل كل ما تم طرحه من أصحاب النظريات الإلحادية إذا يتعذر على شي له بداية أن يبدأ من لا شئ.

قال تعالى: أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا ۖ وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ ۖ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ [الأنبياء: 30]

فقد اتفق المفسرون على ان معنى هذه الآية ان السماوات والأرض كانتا ملتصقتين وهذا ما يتوافق مع فهمنا اليوم بناء على المشاهدة أن الكون بدأ من نقطة واحدة.

فقد جاء في تفسير القرطبي ان ابن عباس والحسن وعطاء والضحاك وقتادة قالوا في تفسير هذه الآية: يعني أنها كانت شيئا واحدا ملتزقتين ففصل الله بينهما بالهواء. وكذلك قال كعب: خلق الله السماوات والأرض بعضها على بعض ثم خلق ريحا بوسطها ففتحها بها ، وجعل السماوات سبعا والأرضين سبعا. وقول ثان قاله مجاهد والسدي وأبو صالح: كانت السماوات مؤتلفة طبقة واحدة ففتقها فجعلها سبع سماوات، وكذلك الأرضين كانت مرتتقة طبقة واحدة ففتقها فجعلها سبعا

وقال الطبري في تفسير هذه الآيات: أو لم ينظر هؤلاء الذي كفروا بالله بأبصار قلوبهم، فيروا بها، ويعلموا أن السماوات والأرض كانتا رَتْقا: يقول: ليس فيهما ثقب، بل كانتا ملتصقتين،

وقد جاء في تفسير ابن كثير:

ألم يروا (أن السماوات والأرض كانتا رتقا) أي: كان الجميع متصلا بعضه ببعض متلاصق متراكم، بعضه فوق بعض في ابتداء الأمر ، ففتق هذه من هذه. فجعل السماوات سبعا، والأرض سبعا، وفصل بين سماء الدنيا والأرض بالهواء، فأمطرت السماء وأنبتت الأرض; ولهذا قال: (وجعلنا من الماء كل شيء حي أفلا يؤمنون) أي: وهم يشاهدون المخلوقات تحدث شيئا فشيئا عيانا ، وذلك دليل على وجود الصانع الفاعل المختار القادر على ما يشاء

ويقول جل جلاله: وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ [الذاريات: 47]

وقد جاء في تفسير السعدي رحمه الله: بِأَيْدٍ أي: بقوة وقدرة عظيمة وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ لأرجائها وأنحائها،

5.3.8 ظاهرة المجال المغنطيسي

وَجَعَلنَا السَّماءَ سَقفًا مَحفوظًا ۖ وَهُم عَن آياتِها مُعرِضونَ ﴿٣٢﴾ الأنبياء.

الحساب الكوني

6.1 مقدمة

إن أفضل طريقة لفهم علم الحساب هو التأمل والتفكر في الظواهر الطبيعية التي خلقها الله ومحاولة حسابها. فهي المرجع لنا حتى نتحقق من صحة وسلامة الحساب. وهذا النهج هو نهج القرآن وهو أفضل الطرق وأحسنها. ويمكن دراسة علم الحساب مجردا من أي تطبيقات وهذا أيضا نهج معروف. ولكن الجمع بين علم الفيزياء والحساب لمحاولة محاكاة الظواهر الطبيعية من أفضل الطرق لتطوير علم الحساب. وهذا معروف حيث تفوق الباحثين الذين جمعوا بين الحساب والفيزياء مثل نيوتن وأنشتاين وفورير على غيرهم ممن درس علم الرياضيات المجرد فكانوا روادا في ذلك.

ولهذا يكون الطريق للبحث وفهم علم الحساب كما يلي:

1. التفكر في آيات الله الكونية والتأمل فيها ومحاولة فهمها وربطها ببعضها البعض على وجه الإجمال.
2. حساب هذه الظواهر على إنفراد ومع التدرج في التعقيد حتى يمكن حسابها بالدقة المطلوبة

ومن عدة طرق وجوانب.

3. الجمع بين الظواهر المترابطة ومحاولة فهم ترابطها وتأثيرها على بعضها البعض وحساب ذلك لبناء فهم أكثر شمولا ودقة.

4. تلخيص القواعد الحسابية بناءا على ما سبق وتطبيقها في فهم ظواهر أخرى أكثر تعقيدا أو تصحيح الحساب فيما ينفع الناس في أمور دينهم ودنياهم.

6.2 جداول

فيما يلي مثال على جدول:

العنوان 1	العنوان 2	العنوان 3
الخلية 1	الخلية 2	الخلية 3
الخلية 4	الخلية 5	الخلية 6

جدول 1.6: مثال على جدول

6.3 مراجع باستخدام BibTeX

لإضافة مراجع باستخدام BibTeX، يمكن استخدام الملف التالي :`references.bib`

```
@book{example,
  author = "المؤلف",
  title = "عنوان الكتاب",
  publisher = "دار النشر",
  year = "السنة"
}
```

ثم تضمين المراجع في المستند الرئيسي:

```
\bibliographystyle{plain}
\bibliography{references}
```

6.4 نص الفصل الثاني - الصفحة الثانية

هذه الصفحة الثانية للفصل الثاني تحتوي على نص إضافي لاختبار تقسيم الصفحات وظهور الرؤوس والأقدام بشكل صحيح في النصوص العربية.

6.5 نص الفصل الثاني - الصفحة الثالثة

هذه الصفحة الثالثة للفصل الثاني تحتوي على المزيد من النصوص لاختبار تقسيم الصفحات وظهور الرؤوس والأقدام بشكل صحيح في النصوص العربية.

الذكاء الإصطناعي

7.1 مقدمة

7.2 المعرفة والوعي والإدراك

هناك نقاش مهم يتعلق بموضوع ما إذا كانت نماذج الذكاء الإصطناعي العام ستكون قادرة على المعرفة والإدراك والوعي في المستقبل القريب (تقريبا مع حلول 2030). وحبيت أن أنوه على عدة أمور وخاصة للمسلمين.

أغلب الباحثين في مجال الذكاء الإصطناعي يعتقدون أن نماذج الذكاء الإصطناعي العام والتي ستكون لها قدرات معرفية تتجاوز قدرة الإنسان في جميع المجالات, ستكون قادرة على الإدراك وسيكون لها وعي. وبطريقة غير مباشرة هذا ما هو إلا مقدمة للقول بأن هذه النماذج لها أرواح مثلها مثل البشر.

بالمختصر هذا أمر خطير يمس عقيدة المسلمين. والشرح كالأتي.

أولا يجب التنويه لأمر هام جدا ألا وهو أن المعرفة والإدراك والوعي كلها تطلب مشاعر وهي أمور تختص بها الروح والتي هي من أمر الله التي بها يبث الله الحياة في خلقه. وهذا معروف بما نعلمه عن الروح بما دلت عليه البراهين في الكتاب والسنة من أن الروح تنفخ في الجنين في بطن أمه وتصعد إلى السماء وتهبط وتقبض في النوم وترسل وتعذب في القبر وتضرب ضربة يسمعها كل شي إلا الثقلين. فالأنس والجن والحيوانات كلها ذات أرواح وتكون حية فقط عند وجود الروح في الجسد وتموت بمفارقة الروح الجسد. وهذا موضوع بحث فيه الإمام ابن القيم في كتابه الروح لمن أراد أن يطلع. وقد ذكر الشيخ ابن باز رحمه الله أن الحياة نوعاة: حياة روح وحركة مثل الأنسان والحيوان والجن وحياة نمو فقط مثل النباتات وهي ليس لها خصائص حياة الروح مثل السمع والبصر والحركة.

أنظر الرابط أول التعليق.

ولهذا فإن الإدعاء بأن نماذج الذكاء الإصطناعي العام سيكون لها وعي وإدراك بمعنى القدرة على الإحساس والإستقلال بذاتها كما هو معروف من خصائص الروح هو أمر ينافي عقيدة المسلمين.

القدرات المعرفية الخارقة المجردة من الإحساس لا تلزم الوعي والإدراك. فالحاسب الإلي له قدرة كبيرة لحفظ ومعالجة وتحليل كميات كبيرة من البيانات وتزداد هذه القدرة مع زيادة القدرة الحسابية والتخزينية. ولكن هذا لا يجعل الحاسب واعي أو مدرك.

رد شبه الملحدين

8.1 مقدمة

الحساب فيه الرد على شبه الملحدين.

8.2 المعرفة والوعي والإدراك

الملحق

9.1 مسألة كروية الأفلاك لشيخ الإسلام بن تيمية

يقول شيخ الإسلام: هَذَا وَقَدْ ثَبَتَ بِالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ وَإِجْمَاعِ عُلَمَاءِ الْأُمَّةِ أَنَّ الْأَفْلَاكَ مُسْتَدِيرَةٌ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: (وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ) وَقَالَ: (وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ) وَقَالَ تَعَالَى: (لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ) قَالَ ابْنِ عَبَّاسٍ: فِي فَلْكَةٍ مِثْلِ فَلْكَةِ الْمِغْزَلِ وَهَكَذَا هُوَ فِي لِسَانِ الْعَرَبِ الْفَلَكُ الشَّيْءُ الْمُسْتَدِيرُ. وَمِنْهُ يُقَالُ: تَفَلَّكَ ثَدْيُ الْجَارِيَةِ إِذَا اسْتَدَارَ. قَالَ تَعَالَى: (يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ) وَالتَّكْوِيرُ هُوَ التَّدْوِيرُ. وَمِنْهُ قِيلَ: كَارَ الْعِمَامَةَ وَكَوَّرَهَا إِذَا أَدَارَهَا. وَمِنْهُ قِيلَ: لِلْكُرَةِ كُرَةٌ وَهِيَ الْجِسْمُ الْمُسْتَدِيرُ وَلِهَذَا يُقَالُ: لِلْأَفْلَاكِ كُرَوِيَّةُ الشَّكْلِ، لِأَنَّ أَصْلَ الْكُرَةِ كورة تَحَرَّكَتْ الْوَاوُ وَانْفَتَحَ مَا قَبْلَهَا فَقُلِبَتْ أَلِفًا وَكَوَّرْت الْكَارَةَ إِذَا دَوَّرْتهَا وَمِنْهُ الْحَدِيثُ: (إِنَّ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ يُكَوَّرَانِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَأَنَّهُمَا ثَوْرَانِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ) وَقَالَ تَعَالَى: (الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ) مِثْلِ حُسْبَانِ الرَّحَا وَقَالَ: (مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ) وَهَذَا إِنَّمَا يَكُونُ فِيمَا يَسْتَدِيرُ مِنْ أَشْكَالِ الْأَجْسَامِ دُونَ

الْمُضَلَّعَاتِ مِنْ الْمُثَلَّثِ أَوْ الْمُرَبَّعِ أَوْ غَيْرِهِمَا فَإِنَّهُ يَتَفَاوَتُ لِأَنَّ زَوَايَاهُ مُخَالِفَةٌ لِقَوَائِمِهِ وَالْجِسْمِ الْمُسْتَدِيرِ مُتَشَابِهُ الْجَوَانِبِ وَالنَّوَاحِي لَيْسَ بَعْضُهُ مُخَالِفًا لِبَعْضٍ. (وقال النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِلْأَعْرَابِيِّ الَّذِي قَالَ: إنَّا نَسْتَشْفِعُ بِك عَلَى اللَّهِ وَنَسْتَشْفِعُ بِاللَّهِ عَلَيْك. فَقَالَ: وَيْحَك إنَّ اللَّهَ لَا يُسْتَشْفَعُ بِهِ عَلَى أَحَدٍ مِنْ خَلْقِهِ. إنَّ شَأْنَهُ أَعْظَمُ مِنْ ذَلِكَ إنَّ عَرْشَهُ عَلَى سَمَوَاتِهِ هَكَذَا وَقَالَ بِيَدِهِ مِثْلَ الْقُبَّةِ: وَإِنَّهُ لَيَئِطُّ بِهِ أَطِيطَ الرَّحْلِ الْجَدِيدِ بِرَاكِبِهِ) رَوَاهُ. أَبُو دَاوُد وَغَيْرُهُ مِنْ حَدِيثِ جُبَيْرِ بْنِ مُطْعِمٍ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. وَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ: (إذَا سَأَلْتُمْ اللَّهَ الْجَنَّةَ فَاسْأَلُوهُ الْفِرْدَوْسَ فَإِنَّهَا أَعْلَى الْجَنَّةِ وَأَوْسَطُ الْجَنَّةِ وَسَقْفُهَا عَرْشُ الرَّحْمَنِ) فَقَدْ أَخْبَرَ أَنَّ الْفِرْدَوْسَ هِيَ الْأَعْلَى وَالْأَوْسَطُ وَهَذَا لَا يَكُونُ إلَّا فِي الصُّورَةِ الْمُسْتَدِيرَةِ فَأَمَّا الْمُرَبَّعُ وَنَحْوُهُ فَلَيْسَ أَوْسَطُهُ أَعْلَاهُ بَلْ هُوَ مُتَسَاوٍ. وَأَمَّا إجْمَاعُ الْعُلَمَاءِ: فَقَالَ إيَاسُ بْنُ مُعَاوِيَةَ - الْإِمَامُ الْمَشْهُورُ قَاضِي الْبَصْرَةِ مِنْ التَّابِعِينَ -: السَّمَاءُ عَلَى الْأَرْضِ مِثْلُ الْقُبَّةِ. وَقَالَ الْإِمَامُ أَبُو الْحُسَيْنِ أَحْمَد بْنُ جَعْفَرِ بْنِ الْمُنَادِي مِنْ أَعْيَانِ الْعُلَمَاءِ الْمَشْهُورِينَ بِمَعْرِفَةِ الْآثَارِ وَالتَّصَانِيفِ الْكِبَارِ فِي فُنُونِ الْعُلُومِ الدِّينِيَّةِ مِنْ الطَّبَقَةِ الثَّانِيَةِ مِنْ أَصْحَابِ أَحْمَد: لَا خِلَافَ بَيْنَ الْعُلَمَاءِ أَنَّ السَّمَاءَ عَلَى مِثَالِ الْكُرَّةِ وَأَنَّهَا تَدُورُ بِجَمِيعِ مَا فِيهَا مِنْ الْكَوَاكِبِ كَدَوْرَةِ الْكُرَةِ عَلَى قُطْبَيْنِ ثَابِتَيْنِ غَيْرِ مُتَحَرِّكَيْنِ: أَحَدُهُمَا فِي نَاحِيَةِ الشَّمَالِ وَالْآخَرُ فِي نَاحِيَةِ الْجَنُوبِ. قَالَ: وَيَدُلُّ عَلَى ذَلِكَ أَنَّ الْكَوَاكِبَ جَمِيعَهَا تَدُورُ مِنْ الْمَشْرِقِ تَقَعُ قَلِيلًا عَلَى تَرْتِيبٍ وَاحِدٍ فِي حَرَكَاتِهَا وَمَقَادِيرِ أَجْزَائِهَا إلَى أَنْ تَتَوَسَّطَ السَّمَاءَ ثُمَّ تَنْحَدِرُ عَلَى ذَلِكَ التَّرْتِيبِ. كَأَنَّهَا ثَابِتَةٌ فِي كُرَةٍ تُدِيرُهَا جَمِيعَهَا دَوْرًا وَاحِدًا. قَالَ: وَكَذَلِكَ أَجْمَعُوا عَلَى أَنَّ الْأَرْضَ بِجَمِيعِ حَرَكَاتِهَا مِنْ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ مِثْلُ الْكُرَةِ. قَالَ: وَيَدُلُّ عَلَيْهِ أَنَّ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالْكَوَاكِبَ لَا يُوجَدُ طُلُوعُهَا وَغُرُوبُهَا عَلَى جَمِيعِ مَنْ فِي نَوَاحِي الْأَرْضِ فِي وَقْتٍ وَاحِدٍ بَلْ عَلَى الْمَشْرِقِ قَبْلَ الْمَغْرِبِ. قَالَ: فَكُرَةُ الْأَرْضِ مُثَبَّتَةٌ فِي وَسَطِ كُرَّةِ السَّمَاءِ كَالنُّقْطَةِ فِي الدَّائِرَةِ. يَدُلُّ عَلَى ذَلِكَ أَنَّ جُرْمَ كُلِّ كَوْكَبٍ يُرَى فِي جَمِيعِ نَوَاحِي السَّمَاءَ عَلَى قَدْرٍ وَاحِدٍ فَيَدُلُّ ذَلِكَ عَلَى بُعْدِ مَا بَيْنَ

السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ مِنْ جَمِيعِ الْجِهَاتِ بِقَدْرٍ وَاحِدٍ فَاضْطِرَارُ أَنْ تَكُونَ الْأَرْضَ وَسَطَ السَّمَاءِ. وَقَدْ يَظُنُّ بَعْضُ النَّاسِ أَنَّ مَا جَاءَتْ بِهِ الْآثَارُ النَّبَوِيَّةُ مِنْ أَنَّ الْعَرْشَ سَقْفُ الْجَنَّةِ وَأَنَّ اللَّهَ عَلَى عَرْشِهِ مَعَ مَا دَلَّتْ عَلَيْهِ مِنْ أَنَّ الْأَفْلَاكَ مُسْتَدِيرَةٌ مُتَنَاقِضٌ أَوْ مُقْتَضٍ أَنْ يَكُونَ اللَّهُ تَحْتَ بَعْضِ خَلْقِهِ " كَمَا احْتَجَّ بَعْضُ الْجَهْمِيَّةِ عَلَى إنْكَارِ أَنْ يَكُونَ اللَّهُ فَوْقَ الْعَرْشِ بِاسْتِدَارَةِ الْأَفْلَاكِ وَأَنَّ ذَلِكَ مُسْتَلْزَمٌ كَوْنَ الرَّبِّ أَسْفَلَ. وَهَذَا مِنْ غَلَطِهِمْ فِي تَصَوُّرِ الْأَمْرِ وَمَنْ عَلِمَ أَنَّ الْأَفْلَاكَ مُسْتَدِيرَةٌ وَأَنَّ الْمُحِيطَ الَّذِي هُوَ السَّقْفُ هُوَ أَعْلَى عِلِّيِّينَ وَأَنَّ الْمَرْكَزَ الَّذِي هُوَ بَاطِنُ ذَلِكَ وَجَوْفُهُ وَهُوَ قَعْرُ الْأَرْضِ هُوَ " سِجِّينٌ " " وَأَسْفَلُ سَافِلِينَ " عَلِمَ مِنْ مُقَابَلَةِ اللَّهِ بَيْنَ أَعْلَى عِلِّيِّينَ وَبَيْنَ سِجِّينٍ مَعَ أَنَّ الْمُقَابَلَةَ: إنَّمَا تَكُونُ فِي الظَّاهِرِ بَيْنَ الْعُلُوِّ وَالسُّفْلِ أَوْ بَيْنَ السِّعَةِ وَالضِّيقِ وَذَلِكَ لِأَنَّ الْعُلُوَّ مُسْتَلْزَمٌ لِلسِّعَةِ وَالضِّيقِ مُسْتَلْزِمٌ لِلسُّفُولِ وَعَلِمَ أَنَّ السَّمَاءَ فَوْقَ الْأَرْضِ مُطْلَقًا لَا يُتَصَوَّرُ أَنْ تَكُونَ تَحْتَهَا قَطُّ وَإِنْ كَانَتْ مُسْتَدِيرَةً مُحِيطَةً وَكَذَلِكَ كُلَّمَا عَلَا كَانَ أَرْفَعَ وَأَشْمَلَ. وَعَلِمَ أَنَّ الْجِهَةَ قِسْمَانِ: قِسْمٌ ذَاتِيٌّ. وَهُوَ الْعُلُوُّ وَالسُّفُولُ فَقَطْ. وَقِسْمٌ إضَافِيٌّ: وَهُوَ مَا يُنْسَبُ إلَى الْحَيَوَانِ بِحَسَبِ حَرَكَتِهِ: فَمَا أَمَامَهُ يُقَالُ لَهُ: أَمَامٌ وَمَا خَلْفَهُ يُقَالُ لَهُ خَلْفٌ وَمَا عَنْ يَمِينِهِ يُقَالُ لَهُ الْيَمِينُ وَمَا عَنْ يَسْرَتِهِ يُقَالُ لَهُ الْيَسَارُ وَمَا فَوْقَ رَأْسِهِ يُقَالُ لَهُ فَوْقٌ وَمَا تَحْتَ قَدَمَيْهِ يُقَالُ لَهُ تَحْتٌ وَذَلِكَ أَمْرٌ إضَافِيٌّ. أَرَأَيْت لَوْ أَنَّ رَجُلًا عَلَّقَ رِجْلَيْهِ إلَى السَّمَاءِ وَرَأْسُهُ إلَى الْأَرْضِ أَلَيْسَتْ السَّمَاءُ فَوْقَهُ وَإِنْ قَابَلَهَا بِرِجْلَيْهِ وَكَذَلِكَ النَّمْلَةُ أَوْ غَيْرُهَا لَوْ مَشَى تَحْتَ السَّقْفِ مُقَابِلًا لَهُ بِرِجْلَيْهِ وَظَهْرُهُ إلَى الْأَرْضِ لَكَانَ الْعُلُوُّ مُحَاذِيًا لِرِجْلَيْهِ وَإِنْ كَانَ فَوْقَهُ وَأَسْفَلُ سَافِلِينَ يَنْتَهِي إلَى جَوْفِ الْأَرْضِ. وَالْكَوَاكِبُ الَّتِي فِي السَّمَاءِ وَإِنْ كَانَ بَعْضُهَا مُحَاذِيًا لِرُءُوسِنَا وَبَعْضُهَا فِي النِّصْفِ الْآخَرِ مِنْ الْفَلَكِ فَلَيْسَ شَيْءٌ مِنْهَا تَحْتَ شَيْءٍ بَلْ كُلُّهَا فَوْقَنَا فِي السَّمَاءِ وَلَمَّا كَانَ الْإِنْسَانُ إذَا تَصَوَّرَ هَذَا يَسْبِقُ إلَى وَهْمِهِ السُّفْلُ الْإِضَافِيُّ كَمَا احْتَجَّ بِهِ الجهمي الَّذِي أَنْكَرَ عُلُوَّ اللَّهِ عَلَى عَرْشِهِ وَخَيَّلَ عَلَى مَنْ لَا يَدْرِي أَنَّ مَنْ قَالَ: إنَّ اللَّهَ فَوْقَ الْعَرْشِ فَقَدْ جَعَلَهُ تَحْتَ نِصْفِ الْمَخْلُوقَاتِ أَوْ جَعَلَهُ فَلَكًا آخَرَ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يَقُولُ الْجَاهِلُ. فَمَنْ ظَنَّ أَنَّهُ

لَازِمٌ لِأَهْلِ الْإِسْلَامِ مِنْ الْأُمُورِ الَّتِي لَا تَلِيقُ بِاللَّهِ وَلَا هِيَ لَازِمَةٌ بَلْ هَذَا يُصَدِّقُهُ الْحَدِيثُ الَّذِي رَوَاهُ أَحْمَد فِي مُسْنَدِهِ مِنْ حَدِيثِ الْحَسَنِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ وَرَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ فِي حَدِيثِ الْإِدْلَاءِ؛ فَإِنَّ الْحَدِيثَ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ اللَّهَ فَوْقَ الْعَرْشِ وَيَدُلُّ عَلَى إحَاطَةِ الْعَرْشِ كَوْنُهُ سَقْفَ الْمَخْلُوقَاتِ. وَمَنْ تَأَوَّلَهُ عَلَى قَوْلِهِ هَبَطَ عَلَى عِلْمِ اللَّهِ كَمَا فَعَلَ التِّرْمِذِيُّ لَمْ يَدْرِ كَيْفَ الْأَمْرُ وَلَكِنْ لَمَّا كَانَ مِنْ أَهْلِ السُّنَّةِ وَعَلِمَ أَنَّ اللَّهَ فَوْقَ الْعَرْشِ وَلَمْ يَعْرِفْ صُورَةَ الْمَخْلُوقَاتِ وَخَشِيَ أَنْ يَتَأَوَّلَهُ الجهمي أَنَّهُ مُخْتَلِطٌ بِالْخَلْقِ قَالَ: هَكَذَا وَإِلَّا فَقَوْلُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كُلُّهُ حَقٌّ يُصَدِّقُ بَعْضُهُ بَعْضًا. وَمَا عُلِمَ بِالْمَعْقُولِ مِنْ الْعُلُومِ الصَّحِيحَةِ يُصَدِّقُ مَا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ وَيَشْهَدُ لَهُ. فَنَقُولُ: إذَا تَبَيَّنَ أَنَّا نَعْرِفُ مَا قَدْ عُرِفَ مِنْ اسْتِدَارَةِ الْأَفْلَاكِ عُلِمَ أَنَّ الْمُنْكِرَ لَهُ مُخَالِفٌ لِجَمِيعِ الْأَدِلَّةِ لَكِنْ الْمُتَوَقِّفُ فِي ذَلِكَ قَبْلَ الْبَيَانِ فَعَلَ الْوَاجِبَ وَكَذَلِكَ مَنْ لَمْ يَزَلْ يَسْتَفِيدُ ذَلِكَ مِنْ جِهَةٍ لَا يَثِقُ بِهَا [8].[1]

9.2 مسألة دوران الأرض حول نفسها وحول الشمس

يقول الشيخ الألباني رحمه الله:

نحن الحقيقة لا نشك في أن قضية دوران الأرض حقيقة علمية لا تقبل جدلا، في الوقت الذي نعتقد أنه ليس من وظيفة الشرع عموما والقرآن خصوصا أن يتحدث عن علم الفلك ودقائق علم الفلك وإنما هذه تدخل في عموم قوله عليه الصلاة والسلام الذي أخرجه مسلم في صحيحه من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه في قصة تأبير النخل حينما قال لهم (سإنما هو ظن ظننته فإذا أمرتكم بشيء من أمر دينكم فأتوا منه ما استطعتم وما أمرتكم بشيء من أمور دنياكم فأنتم أعلم بأمور دنياكم).

[1] مجموع الفتاوى 25/193.

فهذه القضايا ليس من المفروض أن يتحدث عنها الرسول عليه السلام وإن تحدث هو في حديثه أو ربنا عز وجل في كتابه فإنما لبالغة أو لآية أو لمعجزة أو نحو ذلك، ولذلك فنستطيع أن نقول أنه لا يوجد في الكتاب ولا في السنة ما ينافي هذه الحقيقة العلمية المعروفة اليوم والتي تقول أن الأرض كروية وأنها تدور بقدرة الله عز وجل في هذا الفضاء الواسع، بل يمكن للمسلم أن يجد ما يشعر إن لم نقل ما ينص على أن الأرض كالشمس وكالقمر من حيث أنه كلها في هذا الفراغ كما قال عز وجل (وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ) ، لا سيما إذا استحضرنا أن قبل هذا التعميم الإلهي بلفظة (وكُلٌّ)تعني الكواكب الثلاثة حيث ابتدأ بالأرض فقال (وَآيَةٌ لَهُمُ الأَرْضُ المَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ) ثم قال (وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ العَزِيزِ العَلِيمِ وَالقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالعُرْجُونِ القَدِيمِ لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ القَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ)، فلفظة (كُلٌّ) تشمل الآية الأولى الأرض ثم الشمس ثم القمر ثم قال تعالى (وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ) هذا ظاهر من سياق الآيات وهي بلا شك آيات في ملك الله عز وجل باهرة، أقول هذا مع العلم بأن العلماء في التفسير أعادوا اسم كل إلى أقرب مذكور وهو الشمس والقمر لكن ليس هناك ما يمنع أبدا من أن نوسّع معنى الكل فيشمل الأرض التي ذكرت قبل الشمس وقبل القمر، هذا أقوله فإن صح فبها ونعمت وإن لم يصح فأقل ما يقال أنه لا يوجد في القرآن كما قلت آنفا ولا في السنة ما ينفي هذه الحقيقة العلمية، أما ما يقال أو ما يستدل به من الآيات كجعل الله عز وجل الجبال رواسي أَنْ تَمِيدَ بِهِم وكـ (الأرض بعد ذلك دحاها)ونحو ذلك من الآيات فهي في الحقيقة لا تنهض لإبطال هذه الحقيقة العلمية الكونية من جهة بل لعل بعضها تكون حجة على المستدلين بها، فجعل الله عز وجل للجبال كالأوتاد تشبيها بالأوتاد فهذا نص صريح بأن ذلك لا يمنع تحركها مطلقا وإنما يمنع تحرك الأرض تحركا اضطرابيا بحيث لا يتمكن الساكنون عليها من التمتع بما

فيها بل من الحياة عليها، ذلك لأننا نعلم أن الرواسي بالنسبة للسفن لا تمنع حركتها مطلقا لكنها تمنع أن تفلت هكذا في خضم البحر فتضربها الأمواج يمينا ويسارا ثم يكون مصيرها الغرق، كذلك الأوتاد التي تضرب للخيل ونحو ذلك من الدواب فهي لا تمنع أبدا أن تتحرك تحركا في مدى محدود أراد ذاك الحيوان الواتد إن صح التعبير وهو الذي ضرب الوتد بالحيوان. ونحن نرى في سوريا في بعض البساتين التي تزرع فيها بعض الحشائش التي هي طعام للخيل وللبقر ونحو ذلك من الحيوانات يسمّى عندنا في بلاد الشام بالفصّة وربما يسمى عندكم بالبرسيم. فهذا يزرع فيأتي الفلاح حينما ينبت فيضرب وتدا لفرسه أو لبقرته فتجد هذه البقرة تأكل من هذا البرسيم المقدار الذي يريده صاحبها فهي تتحرك لكن لا تتحرك كيف تشاء كحركة الفوضى كما لو أطلق لها الزمام وإنما تتحرك حركة نظامية ولذلك تجد قد شكلت دائرة، الفصة أو البرسيم الذي أكلته فأصبحت الأرض جرداء من الخضار وما حولها الخضار به لا يزال قائما، فتشبيه رب العالمين تبارك وتعالى للجبال بالنسبة للأرض كالمراسي بالنسبة للسفينة والأوتاد بالنسبة للحيوانات هذه أيضا بالنسبة للأرض، كل ذلك لا ينفي عن الأرض الحركة المنظمة بقدرة الله تبارك وتعالى،

لذلك قلت أن هذه الآيات أو بعضها على الأقل هي أقرب إلى الدلالة على أن الأرض تتحرك أقل ما يقال وأنها ليست ثابتة جامدة كما يتوهم كثير من الناس. فخلاصة القول لا يوجد في الشرع أبدا ما ينفي كروية الأرض، ثم كروية الأرض أصبحت اليوم حقيقة علمية ملموسة لمس اليد، يعني يتهم الإنسان في عقله وعلى الأقل في علمه فيما إذا جحد هذه الحقيقة لأنك اليوم تستطيع أن ترفع السماعة وتتصل مع صديق لك صادق وتقول له ماذا عندكم اليوم نهار أم ليل سيقول لك عندنا ليل في الوقت الذي يؤذن عندنا مثلا لأذان المغرب يؤذن عندهم لصلاة الفجر أو يكون قد طلعت الشمس وهذا لا يمكن تصوره أبدا إلا كما يقول العلم بالتجربة أن هذا ينتج بسبب أن الأرض تدور حول الشمس دائرة

كاملة ينتج من ورائها الليل والنهار، ثم أدق من ذلك حصول الفصول الأربعة بسبب ابتعاد الأرض عن الشمس واقترابها وهذا له تفصيله في علم الفلك وعلم الجغرافيا لسنا في صدده، لكن الشاهد أنه لا يمكن أن تحصل هذه الأمور الواضحة إلا والأرض أولا كروية وإذا سلبت كرويتها فلا يمكن أن يقال بأنها ثابتة لأن البشر يسكنون هذه الأرض في كل جوانبها كما يقال اليوم في القطب الشمالي في القطب الجنوبي فلو كانت هي كروية وثابتة كيف يثبت من كانوا في أسفل القطب الجنوبي مثلا بل ومن كان في طرفيها لكنها لما كانت تدور بقدرة الله العجيبة الدوران الذي لا يجعل حياة المستوطنين والساكنين عليها مضطربة فهذا أمر في غاية الإعجاز الدالة على عظمة وقدرة الله تبارك وتعالى.

وأنا أريد أن أذكّر بشيء يقرّب هذا الشيء البعيد الذي لا يدخل في أذهان بعض الناس، وأنا في ألبانيا كنت أجيرا في دكان خالي كان حلّاقا، فكان يأتيه زبون مثلا فيطلب له فنجان قهوة، يأتي أجير القهوجي وفي يده صحن صينية مثل هذه الصواني أكبر منها قليلا لكن هذه لها حاملة يعني يمكن أن نصورها هكذا هنا يضع إصبعه ويمشي أولا يلهوا ويتسلى ويعمل فيها هكذا والفنجان على الصحن الصغير كما هي العادة لا يتحرك من مكانه، هذا مصغّر جداً جدا ليفهم الإنسان كيف تدور الأرض ولا يضطرب البشر عليها والبشر بشر كما قال تعالى و (لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ) فإذا كان هذا الفنجان وهو موضوع في الصينية والذي يحركه هو إنسان جاهل غشيم قدرته ومداركه محدودة ومع ذلك ربنا عز وجل أعطاه شيء من العقل وشيء من القدرة بحيث أنه يدير هذه الصينية وعليها الفنجان وهو فوق صحن صغير فلا يقطر منه قطرة، هذا كنا نراه ونحن صغار، فالله عز وجل ماذا نقول "وليس يصح في الأذهان شيء فاحتاج إلى دليل" فالله عزوجل على كل شيء قدير . إذن القضية لا تحتاج إلا إلى شيء من العلم والإدراك الصحيح مع وجود الإيمان الكامل طبعا بعظمة وقدرة الله التي لا يمكن أن يتصورها إنسان ☐ ☐.

يقول الشيخ ابن باز رحمه الله تعالى:

الله جل وعلا أخبرنا أنه جعل الأرض قرارا، وأرساها بالجبال وثبتها وجعلها قرارا لعباده. عليها يسيرون وعليها ينامون وفيها يحرثون ويغرسون الأشجار. وفي بحارها كذلك يعملون ما يعملون لطلب الرزق. فإذا زعم زاعم أو صور مصور أنها تسبح في الفضاء، لم يلزم بذلك أن يكون صادقا سواء كان شيوعيا أو نصرانيا أو يهوديا أو مسلما. كلام الله أصدق من الجميع. أما الإنسان قد يتصور الشيء أنه يدور أو يسبح بالحركة وليس الأمر كما قال. وإنما يكون في الجو وربما يكون في رأيه الظاهري وهو بعيد عنه لا يمسه ولا يتيقن مما يقوله هؤلاء وما يصوره هؤلاء. فما أخبر الله عنه أنه يتحرك هو كما أخبر عنه سبحانه وتعالى. وما شاهده الناس من سير الكواكب هو كما أخبر، كما يرى ويشاهد. وأما زعم الزاعمين بأن هذا يدل على أن الأرض تدور وأنها تسبح في الفضاء وأنها محتركة والله يقول جعلها لنا قرارا وقال: وألقى في الأرض رواسي أن تميد بكم. وبين سبحانه وتعالى أنه ثبتها بالجبال وأرساها وجعلها لها أوتادا، فالواجب التمسك بهذا والأخذ بهذا وأنها لا تميد ولا تضطرب ولا تدور، ولو دارت لأحسوا بها العباد من أجل الزلازل. ولو زلازل قليلة عرفها الناس. وربما هلك من حولها إذا عظمت الزلزلة وتهدمت البيوت وسقطت الأشجار وهلك الناس بأقل زلزلة.

فهذه التي يحكيها الناس من هؤلاء الفضائيين أو غيرهم يزعمون أنها تدل على حركة الأرض ودورانها ليس لنا أن نسلم لهم ذلك ولا يمكن أن نسلم لهم ذلك إلا بدليل من كتاب الله وسنة رسوله عليه الصلاة والسلام أو شئ نلمسه بأيدينا ونراه بأبصارنا ونعقله لا شبهة فيه. فإذا وجد ذلك أمكن تأويل أن تميد بالإضطراب الذي يضر الناس وأن الحركة التي لا تضر الناس من دوران وغيره لا تخالف الميد الذي ذكره الله. أما أن نفسر الميد بالإضطراب فقط وأن الأرض تدور وتتحرك ولكن ليس ميدا فهذا يحتاج إلى دليل. ومن قنع لذلك، من رأى وشاهد واعتقد لا يضره ذلك. ومن

لم يعتقد ذلك ولم يظهر له ما يخالف ذلك لا يضره اعتقاده الذي يراه صحيحا، ويراه موافقا لكتاب الله وكل واحد له اعتقاده، فمن اعتقد ما ظهر له من كتاب الله فهو غير ملوم. ومن شاهد أشياء وتيقنها يقينا وأن هناك حركة لا تمنع وصف الأرض بأنها غير مائدة وأنها قرار وأنه دوران خاص لا ينافي كونها قرارا ولا ينافي كونها قد أرسيت بالجبال ولا ينافي كونها لا تميد، من تيقن هذا وعرفه بقلبه وصدقه بعينه فلا لوم عليه إذا اعتقد ذلك. وليس له أن يلوم الآخرين. وليس له أن يقدح في الآخرين لأنهم لم يعلموا ما علم، وكل له علمه. كما أن من علم أن الحكم الفلاني هو التحريم أو الوجوب والآخر أشكل عليه الأمر فليس له أن يلوم من علم. فالحجة حجة على من لم يعلم. ومن علم وحفظ حجة على من لم يحفظ ولم يعلم. وكل له حجته وكل له دليل. فأنا أعتقد، وقد كتبت هذا في كتابا من مدة سنوات، أعتقد أنها قارة كما قال الله وأنها لا تدور ولا تضطرب ولا تتحرك بل هي ثابتة. وقد ذكرت كلام أهل العلم في ذلك. ومن زعم خلاف ذلك فإن كان متيقنا فلا لوم عليه وله ما اعتقد ولا يلزمنا أن نوافقه ونقلده، ولا يلزمنه أن يقلدنا ومن قال بقولنا ↗.

9.3 مسألة أول ما خلق الله

لقد تبث عن النبي ﷺ أن الله عز وجل لم يخلق السموات والأرض إلا بعد كتابة المقادير وكان عرشه على الماء سبحانه. ولكن اختلف أهل العلم في أول ما خلق الله قبل أن يخلق السموات والأرض. فمنهم من قدم العرش والماء على القلم واللوح المحفوظ، ومنهم من قدم القلم واللوح المحفوظ على العرش والماء. ولكن أهل العلم الذين بحثوا في هذه المسألة وجمعوا أدلتها وإجماع السلف وجهور أهل العلم فيها، قدموا الماء والعرش على القلم واللوح المحفوظ وهذا هو الحق كما قرر ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية

وكذلك ابن القيم، وابن كثير، والهمداني، والعسقلاني والعديد من علماء الإسلام، والله أعلى وأعلم. وفيما يلي بيان أدلة وأقوال أهل العلم في هذه المسألة.

9.3.1 الأحاديث الخاصة بالمسألة

الحديث الأول

حَدَّثَنِي أَبُو الطَّاهِرِ، أَحْمَدُ بْنُ عَمْرِو بْنِ عبد الله بْنُ عَمْرِو بْنِ سَرْحٍ. حَدَّثَنَا ابْنُ وَهْبٍ. أخبرني أَبُو هَانِئٍ الْخَوْلَانِيُّ عَنْ أَبِي عَبْدِ الرَّحْمَنِ الْحُبُلِيِّ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ، قَالَ: النبي ﷺ أنه قال: كَتَبَ اللَّهُ مَقَادِيرَ الخَلَائِقِ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِخَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ، وَعَرْشُهُ عَلَى المَاءِ [3].[2]

وهذا الحديث فيه تقديم العرش والماء على كتابة المقادير أي القلم واللوح المحفوظ، والكتابة كانت قبل خلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة.

الحديث الثاني

حدثنا عُمَرُ بْنُ حَفْصِ بْنِ غِيَاثٍ، حَدَّثَنَا أَبِي، حَدَّثَنَا الْأَعْمَشُ، حَدَّثَنَا جَامِعُ بْنُ شَدَّادٍ، عَنْ صَفْوَانَ بْنِ مُحْرِزٍ، أَنَّهُ حَدَّثَهُ عَنْ عِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ رضي الله عنه قَالَ: دَخَلْتُ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ وَعَقَلْتُ نَاقَتِي بِالْبَابِ، فَأَتَاهُ نَاسٌ مِنْ بَنِي تَمِيمٍ فَقَالَ: "اقْبَلُوا البُشْرَى يَا بَنِي تَمِيمٍ"، قَالُوا: قَدْ بَشَّرْتَنَا فَأَعْطِنَا - مَرَّتَيْنِ - ثُمَّ دَخَلَ عَلَيْهِ نَاسٌ مِنْ أَهْلِ اليَمَنِ فَقَالَ: "اقْبَلُوا البُشْرَى يَا أَهْلَ اليَمَنِ إِذْ لَمْ يَقْبَلْهَا بَنُو تَمِيمٍ"، قَالُوا: قَدْ قَبِلْنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ. قَالُوا: جِئْنَاكَ نَسْأَلُكَ عَنْ هَذَا الأَمْرِ؟ قَالَ: "كَانَ اللَّهُ وَلَمْ يَكُنْ شَيْءٌ غَيْرُهُ، وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى المَاءِ، وَكَتَبَ فِي الذِّكْرِ كُلَّ شَيْءٍ، وَخَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ". فَنَادَى مُنَادٍ: ذَهَبَتْ

[2] صحيح مسلم: 2653، وصححه الألباني في شرح الطحاوية.

نَاقَتُكَ يَا ابْنَ الحُصَيْنِ، فَانْطَلَقْتُ فَإِذَا هِيَ يَقْطَعُ دُونَهَا السَّرَابُ، فَوَاللَّهِ لَوَدِدْتُ أَنِّي كُنْتُ تَرَكْتُهَا [14].[3] وهذا إن حمل على وجه الترتيب فيه تقديم العرش والماء على كتابة المقادير، ومن ثم خلق السموات والأرض.

وجاء أيضا في صحيح البخاري نفس الحديث بسند آخر: حدثنا عَبْدَانُ، عَنْ أَبِي حَمْزَةَ، عَنِ الْأَعْمَشِ، عَنْ جَامِعِ بْنِ شَدَّادٍ، عَنْ صَفْوَانَ بْنِ مُحْرِزٍ، عَنْ عِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ قَالَ: إِنِّي عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ إِذْ جَاءَهُ قَوْمٌ مِنْ بَنِي تَمِيمٍ فَقَالَ: "اقْبَلُوا الْبُشْرَى يَا بَنِي تَمِيمٍ"، قَالُوا: بَشَّرْتَنَا فَأَعْطِنَا، فَدَخَلَ نَاسٌ مِنْ أَهْلِ الْيَمَنِ فَقَالَ: "اقْبَلُوا الْبُشْرَى يَا أَهْلَ الْيَمَنِ إِذْ لَمْ يَقْبَلْهَا بَنُو تَمِيمٍ"، قَالُوا: قَبِلْنَا، جِئْنَاكَ لِنَتَفَقَّهَ فِي الدِّينِ، وَلِنَسْأَلَكَ عَنْ أَوَّلِ هَذَا الْأَمْرِ مَا كَانَ؟ قَالَ: "كَانَ اللَّهُ وَلَمْ يَكُنْ شَيْءٌ قَبْلَهُ، وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ، ثُمَّ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ، وَكَتَبَ فِي الذِّكْرِ كُلَّ شَيْءٍ"، ثُمَّ أَتَانِي رَجُلٌ فَقَالَ: يَا عِمْرَانُ، أَدْرِكْ نَاقَتَكَ فَقَدْ ذَهَبَتْ، فَانْطَلَقْتُ أَطْلُبُهَا فَإِذَا السَّرَابُ يَنْقَطِعُ دُونَهَا، وَايْمُ اللَّهِ، لَوَدِدْتُ أَنَّهَا قَدْ ذَهَبَتْ وَلَمْ أَقُمْ [14].[4] وهذا فيه تقديم السموات والأرض على كتابة المقادير، وهذا إن حمل على وجه الترتيب فهو يتعارض مع أغلب الأحاديث الأخرى. ولهذا أغلب أهل العلم أخذ بالحديث السابق.

الحديث الثالث

حدَّثنا جعفرُ بنُ مسافر الهُذليُّ، حدَّثنا يحيى بن حسَّان، حدَّثنا الوليدُ بن رباحٍ، عن إبراهيمَ بن أبي عَبْلَة، عن أبي حفصةَ، قال: قال عبادةُ بن الصَّامت لابنه: يا بُنيَّ إنَّك لن تَجِدَ طعمَ حقيقةِ الإيمان حتّى تَعلمَ أن ما أصابَكَ لم يكُنْ ليُخْطئَكَ، وما أخطَاكَ لم يكُنْ ليُصيبَك، سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: إنَّ أولَ ما خلق اللهُ القلمُ، فقال لهُ: اكتبْ، قال: ربِّ وماذا أكتبُ؟ قال: اكتُبْ مقاديرَ كلِّ شيءٍ

[3] صحيح البخاري: 3199

[4] صحيح البخاري: 7413

حتى تقومَ الساعةُ. وفي رواية: اكتُبْ القدَرَ، ما كان و ما هو كائِنٌ إلى الأبَدِ. ومن مات على غيرِ هذا فليسَ مِني [16].[5] وفي الأخذ بظاهر هذا الحديث دون الجمع مع الأحاديث السابقة تقديم القلم واللوح المحفوظ على العرش والماء، أي أن الله خلق القلم أولا ثم خلق اللوح المحفوظ وأمر القلم بكتابة المقادير على اللوح المحفوظ قبل العرش والماء وخلق السموات والأرض.

الحديث الرابع

حَدَّثَنَا يَزِيدُ بْنُ هَارُونَ، أَخْبَرَنَا حَمَّادُ بْنُ سَلَمَةَ، عَنْ يَعْلَى بْنِ عَطَاءٍ، عَنْ وَكِيعِ بْنِ عُدُسٍ، عَنْ عَمِّهِ أَبِي رَزِينٍ، قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَيْنَ كَانَ رَبُّنَا عَزَّ وَجَلَّ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ خَلْقَهُ؟ قَالَ: " كَانَ فِي عَمَاءٍ مَا تَحْتَهُ هَوَاءٌ، وَمَا فَوْقَهُ هَوَاءٌ، ثُمَّ خَلَقَ عَرْشَهُ عَلَى الْمَاءِ" [4].[6] ولكن هذا الحديث ضعفه الشيخ الألباني وقال فيه نظر، لأن وكيعاً هذا مجهول [7]، وقال شعيب الأرناؤوط في تخريج مسند الإمام أحمد إسناده ضعيف لنفس السبب.

9.3.2 أقوال أهل العلم

قال شيخ الإسلام ابن تيمية في مجموع الفتاوى:

وَمِنْ هَذَا: الْحَدِيثُ الَّذِي رَوَاهُ أَبُو دَاوُد وَالتِّرْمِذِي وَغَيْرُهُمَا عَنْ عبادة بْنِ الصَّامِتِ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ: "أَوَّلُ مَا خَلَقَ اللَّهُ الْقَلَمَ فَقَالَ لَهُ: اُكْتُبْ قَالَ: وَمَا أَكْتُبُ. قَالَ: مَا هُوَ كَائِنٌ إلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ" (9.3.1 الحديث الثالث) فَهَذَا الْقَلَمُ خَلَقَهُ لِمَا أَمَرَهُ بِالتَّقْدِيرِ الْمَكْتُوبِ قَبْلَ خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بِخَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ وَكَانَ مَخْلُوقًا قَبْلَ خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ أَوَّلُ مَا خُلِقَ

[5] أبي داود: 4700 واللفظ له، أحمد: 22705، الترمذي: 3319، وصححه الألباني في صحيح الجامع.

[6] أحمد: 16188 واللفظ له، الترمذي: 3109، ابن ماجه: 182، ضعفه الألباني.

مِنْ هَذَا الْعَالَمِ وَخَلَقَهُ بَعْدَ الْعَرْشِ كَمَا دَلَّتْ عَلَيْهِ النُّصُوصُ (9.3.1 الحديث الأول، 9.3.1 الحديث الثاني) وَهُوَ قَوْلُ جُمْهُورِ السَّلَفِ كَمَا ذَكَرْتُ أَقْوَالَ السَّلَفِ فِي غَيْرِ هَذَا الْمَوْضِعِ.

وأورد شيخ الإسلام خمسة عشرة وجها، وقال في الوجه الرابع عشر:

مِثْلُ قَوْلِهِ فِي الْحَدِيثِ الْآخَرِ: "قَدَّرَ اللَّهُ مَقَادِيرَ الْخَلَائِقِ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِخَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ" (9.3.1 الحديث الأول) فَإِنَّ الْخَلَائِقَ هُنَا الْمُرَادُ بِهَا الْخَلَائِقُ الْمَعْرُوفَةُ الْمَخْلُوقَةُ بَعْدَ خَلْقِ الْعَرْشِ وَكَوْنِهِ عَلَى الْمَاءِ. وَلِهَذَا كَانَ التَّقْدِيرُ لِلْمَخْلُوقَاتِ هُوَ التَّقْدِيرُ لِخَلْقِ هَذَا الْعَالَمِ كَمَا فِي حَدِيثِ الْقَلَمِ: (إِنَّ اللَّهَ لَمَّا خَلَقَهُ قَالَ: اُكْتُبْ قَالَ: وَمَاذَا أَكْتُبُ؟ قَالَ: اُكْتُبْ مَا هُوَ كَائِنٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ) (9.3.1 الحديث الثالث). وَكَذَلِكَ فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ: "إِنَّ اللَّهَ قَدَّرَ مَقَادِيرَ الْخَلَائِقِ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِخَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ" (9.3.1 الحديث الأول) وَقَوْلُهُ فِي الْحَدِيثِ الْآخَرِ الصَّحِيحِ: "كَانَ اللَّهُ وَلَا شَيْءَ قَبْلَهُ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ وَكَتَبَ فِي الذِّكْرِ كُلَّ شَيْءٍ ثُمَّ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ" (9.3.1 الحديث الثاني) يُرَادُ بِهِ أَنَّهُ كَتَبَ كُلَّ مَا أَرَادَ خَلْقَهُ مِنْ ذَلِكَ.

قال ابن القيم في نونية ابن القيم الكافية الشافية ↗:

هذا وعرش الرب فوق الماء من ... قبل السنين بمدة وزمان

والناس مختلفون في القلم الذي ... كتب القضاء به من الديان

هل كان قبل العرش أو هو بعده ... قولان عند أبي العلا الهمداني

والحق أن العرش قبل لأنه ... قبل الكتابة كان ذا أركان

وكتابة القلم الشريف تعقبت ... إيجاده من غير فصل زمان

لما براه الله قال اكتب كذا ... فغدا بأمر الله ذا جريان

فجرى بما هو كائن أبدا إلى ... يوم المعاد بقدرة الرحمن

قال ابن كثير في البداية والنهاية ﷺ:

واختلف هؤلاء في أيها خُلِق أولًا؟ فقال قائلون: خلق القلم قبل هذه الأشياء كلها، وهذا هو اختيار ابن جرير، وابن الجوزي، وغيرهما. قال ابن جرير: وبعد القلم السحاب الرقيق، وبعده العرش. واحتجوا بالحديث الذي رواه الإمام أحمد، وأبو داود والترمذي، عن عُبادة بن الصامت رضي الله عنه قال: قال رسولُ اللَّه ﷺ: "إنَّ أَوَّلَ ما خَلَقَ اللَّهُ القَلَمُ. ثُمَّ قالَ لَهُ اكْتُبْ، فجرى في تلك السَّاعة بما هُوَ كائنٌ إلى يَوْمِ القيَامَةِ" لفظ أحمد. وقال الترمذي: حسن صحيح غريب (9.3.1 الحديث الثالث).

والذي عليه الجمهور، فيما نقله الحافظ أبو العلاء الهَمَذَاني وغيره: أنَّ العرش مخلوق قبل ذلك، وهذا هو الذي رواه ابن جرير من طريق الضحاك عن ابن عباس، كما دلَّ على ذلك الحديث الذي رواه مسلم في "صحيحه" حيث قال: حدّثني أبو الطاهر أحمدُ بْن عمرو بن السَّرْح، حدَّثنا ابن وهب، أخبرني أبو هانئ الخوْلاني، عن أبي عبد الرحمن الحُبُلي، عن عبد اللَّه بن عمرو بن العاص قال: سمعتُ رسولَ اللَّه ﷺ يقول: "كَتَبَ اللَّهُ مَقَادِيرَ الخلَائِقِ قَبْلَ أنْ يَخْلُقَ السَّموَاتِ وَالأَرْضَ بخَمْسين أَلْفَ سَنةٍ، قالَ: وعَرْشُهُ على المَاءِ" (9.3.1 الحديث الأول)، قالوا: فهذا التقدير هو كتابته بالقلم المقاديرَ. وقد دلَّ هذا الحديثُ أنَّ ذلك بعد خلق العرش، فثبتَ تقدُّم العرش على القلم الذي كتبت به المقادير كما ذهب إلى ذلك الجماهير. ويُحمل حديثُ القلم على أنَّه أوَّلُ المخلوقات من هذا العالم.

ويؤيد هذا ما رواه البخارى، عن عِمْران بن حصين: قال: قال أهلُ اليمن لرسول اللَّه ﷺ: جِئْنَاكَ لنَتَفقَّه في الدِّيْن وَلنَسْأَلَكَ عَنْ أَوَّلِ الأَمْرِ. فَقَالَ: "كانَ اللَّهُ وَلَمْ يكُنْ شَيْءٌ قَبْلَهُ -وفي رواية: معه، وفي رواية: غيره- وكَان عَرْشُهُ عَلَى الماءِ، وكَتَبَ في الذِّكْرِ كُلَّ شَيْءٍ، وخَلَقَ السَّمواتِ والأَرْضَ"، وفي لفظ: " ثمَّ خَلَقَ السَّمواتِ والأَرْضَ" (9.3.1 الحديث الثاني). فسألوه عن ابتداء خلق السَّمواتِ والأرض، ولهذا قالوا: جئناك نسألك عن أول هذا الأمر، فأجابهم عمَّا سألوا فقط. ولهذا لم يخبرهم

بخلق العرش كما أخبر به في حديث أبي رَزين المتقدم.

قال ابن جرير: وقال آخرون: بل خلقَ اللَّهُ عز وجل الماءَ قَبْلَ العَرْشِ. رواه السُّدّي عن أبي مالك، وعن أبي صالح عن ابن عباس، وعن مُرَّة عن ابن مسعود، وعن ناس من أصحاب النبي ﷺ قالوا: إنَّ اللَّه كان عرشُه على الماء، ولم يخلق شيئًا غير ما خلق قبل الماء.

وقال أبو حجر العسقلاني في كتاب فتح البارئ بشرح صحيح البخاري تعليقا على (9.3.1 الحديث الثاني):

قَوْلُهُ: (كَانَ اللَّهُ وَلَمْ يَكُنْ شَيْءٌ غَيْرُهُ) [.] وَفِيهِ دَلَالَةٌ عَلَى أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ شَيْءٌ غَيْرُهُ لَا الْمَاءُ وَلَا الْعَرْشُ وَلَا غَيْرُهُمَا، لِأَنَّ كُلَّ ذَلِكَ غَيْرُ اللَّهِ تَعَالَى، وَيَكُونُ قَوْلُهُ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ مَعْنَاهُ أَنَّهُ خَلَقَ الْمَاءَ سَابِقًا ثُمَّ خَلَقَ الْعَرْشَ عَلَى الْمَاءِ، وَقَدْ وَقَعَ فِي قِصَّةِ نَافِعِ بْنِ زَيْدٍ الْحِمْيَرِيِّ بِلَفْظِ: كَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ ثُمَّ خَلَقَ الْقَلَمَ، فَقَالَ: اكْتُبْ مَا هُوَ كَائِنٌ، ثُمَّ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا فِيهِنَّ فَصَرَّحَ بِتَرْتِيبِ الْمَخْلُوقَاتِ بَعْدَ الْمَاءِ وَالْعَرْشِ.

قَوْلُهُ: (وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ، وَكَتَبَ فِي الذِّكْرِ كُلَّ شَيْءٍ، وَخَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ) هَكَذَا جَاءَتْ هَذِهِ الْأُمُورُ الثَّلَاثَةُ مَعْطُوفَةً بِالْوَاوِ، وَوَقَعَ فِي الرِّوَايَةِ الَّتِي فِي التَّوْحِيدِ: ثُمَّ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَقَعْ بِلَفْظِ ثُمَّ إِلَّا فِي ذِكْرِ خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَقَدْ رَوَى مُسْلِمٌ مِنْ حَدِيثِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو مَرْفُوعًا: (أَنَّ اللَّهَ قَدَّرَ مَقَادِيرَ الْخَلَائِقِ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِخَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ) (9.3.1 الحديث الأول) وَهَذَا الْحَدِيثُ يُؤَيِّدُ رِوَايَةَ مَنْ رَوَى: ثُمَّ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِاللَّفْظِ الدَّالِّ عَلَى التَّرْتِيبِ.

قَوْلُهُ: (وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ) قَالَ الطِّيبِيُّ: هُوَ فَصْلٌ مُسْتَقِلٌّ؛ لِأَنَّ الْقَدِيمَ مَنْ لَمْ يَسْبِقْهُ شَيْءٌ، وَلَمْ يُعَارِضْهُ فِي الْأَوَّلِيَّةِ، لَكِنْ أَشَارَ بِقَوْلِهِ: وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ إِلَى أَنَّ الْمَاءَ وَالْعَرْشَ كَانَا مَبْدَأُ

هَذَا الْعَالَمِ لِكَوْنِهِمَا خُلِقَا قَبْلَ خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَلَمْ يَكُنْ تَحْتَ الْعَرْشِ إِذْ ذَاكَ إِلَّا الْمَاءُ. وَمُحَصَّلُ الْحَدِيثِ أَنَّ مُطْلَقَ قَوْلِهِ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ مُقَيَّدٌ بِقَوْلِهِ وَلَمْ يَكُنْ شَيْءٌ غَيْرُهُ، وَالْمُرَادُ بِـ كَانَ فِي الْأَوَّلِ الْأَزَلِيَّةَ وَفِي الثَّانِي الْحُدُوثَ بَعْدَ الْعَدَمِ. وَقَدْ رَوَى أَحْمَدُ، وَالتِّرْمِذِيُّ وَصَحَّحَهُ مِنْ حَدِيثِ أَبِي رَزِينٍ الْعُقَيْلِيِّ مَرْفُوعًا: أَنَّ الْمَاءَ خُلِقَ قَبْلَ الْعَرْشِ، وَرَوَى السُّدِّيُّ فِي تَفْسِيرِهِ بِأَسَانِيدَ مُتَعَدِّدَةٍ: أَنَّ اللَّهَ لَمْ يَخْلُقْ شَيْئًا مِمَّا خَلَقَ قَبْلَ الْمَاءِ، وَأَمَّا مَا رَوَاهُ أَحْمَدُ، وَالتِّرْمِذِيُّ وَصَحَّحَهُ مِنْ حَدِيثِ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ مَرْفُوعًا: (أَوَّلُ مَا خَلَقَ اللَّهُ الْقَلَمَ، ثُمَّ قَالَ: اكْتُبْ، فَجَرَى بِمَا هُوَ كَائِنٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ) (9.3.1 الحديث الثالث) فَيُجْمَعُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ مَا قَبْلَهُ بِأَنَّ أَوَّلِيَّةَ الْقَلَمِ بِالنِّسْبَةِ إِلَى مَا عَدَا الْمَاءَ وَالْعَرْشَ أَوْ بِالنِّسْبَةِ إِلَى مَا مِنْهُ صَدَرَ مِنَ الْكِتَابَةِ، أَيْ أَنَّهُ قِيلَ لَهُ اكْتُبْ أَوَّلَ مَا خُلِقَ [.].

وَحَكَى أَبُو الْعَلَاءِ الْهَمْدَانِيُّ أَنَّ لِلْعُلَمَاءِ قَوْلَيْنِ فِي أَيِّهِمَا خُلِقَ أَوَّلًا الْعَرْشُ أَوِ الْقَلَمُ؟ قَالَ: وَالْأَكْثَرُ عَلَى سَبْقِ خَلْقِ الْعَرْشِ، وَاخْتَارَ ابْنُ جَرِيرٍ وَمَنْ تَبِعَهُ الثَّانِي، وَرَوَى ابْنُ أَبِي حَازِمٍ مِنْ طَرِيقِ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: خَلَقَ اللَّهُ اللَّوْحَ الْمَحْفُوظَ مَسِيرَةَ خَمْسِمِائَةِ عَامٍ، فَقَالَ لِلْقَلَمِ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ الْخَلْقَ وَهُوَ عَلَى الْعَرْشِ: اكْتُبْ، فَقَالَ: وَمَا أَكْتُبُ؟ قَالَ: عِلْمِي فِي خَلْقِي إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، ذَكَرَهُ فِي تَفْسِيرِ سُورَةِ سُبْحَانَ، وَلَيْسَ فِيهِ سَبْقُ خَلْقِ الْقَلَمِ عَلَى الْعَرْشِ، بَلْ فِيهِ سَبْقُ الْعَرْشِ. وَأَخْرَجَ الْبَيْهَقِيُّ فِي الْأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ مِنْ طَرِيقِ الْأَعْمَشِ، عَنْ أَبِي ظَبْيَانَ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: أَوَّلُ مَا خَلَقَ اللَّهُ الْقَلَمَ، فَقَالَ لَهُ: اكْتُبْ، فَقَالَ: يَا رَبِّ وَمَا أَكْتُبُ؟ قَالَ: اكْتُبِ الْقَدَرَ، فَجَرَى بِمَا هُوَ كَائِنٌ مِنْ ذَلِكَ الْيَوْمِ إِلَى قِيَامِ السَّاعَةِ (9.3.1 الحديث الثالث) وَأَخْرَجَ سَعِيدُ بْنُ مَنْصُورٍ، عَنْ أَبِي عَوَانَةَ، عَنْ أَبِي بِشْرٍ عَنْ مُجَاهِدٍ قَالَ: بَدْءُ الْخَلْقِ الْعَرْشُ وَالْمَاءُ وَالْهَوَاءُ، وَخُلِقَتِ الْأَرْضُ مِنَ الْمَاءِ وَالْجَمْعُ بَيْنَ هَذِهِ الْآثَارِ وَاضِحٌ.

قَوْلُهُ: (وَكَتَبَ) أَيْ قَدَّرَ (فِي الذِّكْرِ) أَيْ فِي مَحَلِّ الذِّكْرِ، أَيْ فِي اللَّوْحِ الْمَحْفُوظِ (كُلَّ شَيْءٍ) أَيْ مِنَ الْكَائِنَاتِ، وَفِي الْحَدِيثِ جَوَازُ السُّؤَالِ عَنْ مَبْدَإِ الْأَشْيَاءِ وَالْبَحْثُ عَنْ ذَلِكَ وَجَوَازُ جَوَابِ الْعَالِمِ

بِمَا يَسْتَحْضِرُهُ مِنْ ذَلِكَ، وَعَلَيْهِ الْكَفُّ إِنْ خَشِيَ عَلَى السَّائِلِ مَا يَدْخُلُ عَلَى مُعْتَقَدِهِ. وَفِيهِ أَنَّ جِنْسَ الزَّمَانِ وَنَوْعَهُ حَادِثٌ، وَأَنَّ اللَّهَ أَوْجَدَ هَذِهِ الْمَخْلُوقَاتِ بَعْدَ أَنْ لَمْ تَكُنْ، لَا عَنْ عَجْزٍ عَنْ ذَلِكَ بَلْ مَعَ الْقُدْرَةِ.

9.4 مسألة يدين الله

يَطْوِي اللَّهُ عزَّ وجلَّ السَّمَواتِ يَومَ القِيامَةِ، ثُمَّ يَأْخُذُهُنَّ بيَدِهِ اليُمْنَى، ثُمَّ يقولُ: أنا المَلِكُ، أيْنَ الجبَّارُونَ؟ أيْنَ المُتَكَبِّرُونَ. ثُمَّ يَطْوِي الأرَضِينَ بشِمالِهِ، ثُمَّ يقولُ: أنا المَلِكُ أيْنَ الجبَّارُونَ؟ أيْنَ المُتَكَبِّرُونَ؟ صحيح مسلم

قال الشيخ ابن باز رحمه الله مجيبا على: ما معنى حديث "وكلتا يدي الرحمن يمين"؟

الحديث ثابتٌ، ورواه مسلم، ومسلم رحمه الله توخَّى الأحاديث الصَّحيحة، وإذا كان جرح عمر بن حمزة بعض الناس فمُسلم لم يجرحه، وروى عنه، ووثَّقه ابنُ حبان، وصحح له الحاكم. فالمقصود أن الحديث لا بأس به، وهي شمال في الاسم، وأما في الفضل فهي يمين، ولهذا في الحديث الصحيح: كلتا يدي ربي يمين مباركة، فكلاهما يمين مباركة في الشرف والفضل، وتُسمَّى إحداهما: يمينًا، كما قال تعالى: وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ [الزمر:67]، وتُسمَّى الأخرى: شمالًا، وهي يمينٌ في الفضل والبركة والشرف، وإن سُمِّيَتْ شمالًا، لكنها في الفضل والشرف لها ما لليمين باليُمن والخير والبركة والشرف، ولا منافاة، فالحديث كلتا يدي ربي يمين مباركة، يُبين فضلها وشرفها، وأنه لا نقصَ فيها، والتَّسمية بتسميتها شمالًا لا يدل على النقص، بل إنما هي مجرد أسماء فقط، كما أن تسمية يده: يد، وتسميته قدمه: قدم، وعين، وسمع، وبصر، كل هذا لا يتضمن المشابهة والتَّمثيل، فكلها صفات تليق بالله،

وكلها كاملة، ليس فيها نقصٌ، تليق بالله جلَّ وعلا، لا يُماثل فيها خلقه .

9.5 مسألة أثقل المخلوقات

قال شيخ الإسلام ابن تيمية في مجموع الفتاوى:

وَقَدْ ثَبَتَ فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنْ جُوَيْرِيَّةَ بِنْتِ الْحَارِثِ: أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ دَخَلَ عَلَيْهَا وَكَانَتْ تُسَبِّحُ بِالْحَصَى مِنْ صَلَاةِ الصُّبْحِ إلَى وَقْتِ الضُّحَى فَقَالَ: لَقَدْ قُلْت بَعْدَك أَرْبَعَ كَلِمَاتٍ لَوْ وُزِنَتْ بِمَا قلتيه لَوَزَنَتْهُنَّ: سُبْحَانَ اللَّهِ عَدَدَ خَلْقِهِ سُبْحَانَ اللَّهِ زِنَةَ عَرْشِهِ سُبْحَانَ اللَّهِ رِضَى نَفْسِهِ سُبْحَانَ اللَّهِ مِدَادَ كَلِمَاتِهِ . فَهَذَا يُبَيِّنُ أَنَّ زِنَةَ الْعَرْشِ أَثْقَلُ الْأَوْزَانِ.

9.6 مسألة تفاوت الزمان

وفي تفاوت الزمان، يقول شيخ الإسلام ابن تيمية:

وَالرُّسُلُ أَخْبَرَتْ بِخَلْقِ الْأَفْلَاكِ وَخَلْقِ الزَّمَانِ الَّذِي هُوَ مِقْدَارُ حَرَكَتِهَا (أي حركة الأفلاك) مَعَ إخْبَارِهَا بِأَنَّهَا خُلِقَتْ مِنْ مَادَّةٍ قَبْلَ ذَلِكَ وَفِي زَمَانٍ قَبْلَ هَذَا الزَّمَانِ؛ فَإِنَّهُ سُبْحَانَهُ أَخْبَرَ أَنَّهُ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَسَوَاءٍ قِيلَ: أَنَّ تِلْكَ الْأَيَّامَ بِمِقْدَارِ هَذِهِ الْأَيَّامِ الْمُقَدَّرَةِ بِطُلُوعِ الشَّمْسِ وَغُرُوبِهَا؛ أَوْ قِيلَ: إنَّهَا أَكْبَرُ مِنْهَا كَمَا قَالَ بَعْضُهُمْ: إنَّ كُلَّ يَوْمٍ قَدْرُهُ أَلْفُ سَنَةٍ فَلَا رَيْبَ أَنَّ تِلْكَ الْأَيَّامَ الَّتِي خُلِقَتْ فِيهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ غَيْرُ هَذِهِ الْأَيَّامِ وَغَيْرُ الزَّمَانِ الَّذِي هُوَ مِقْدَارُ حَرَكَةِ هَذِهِ الْأَفْلَاكِ. وَتِلْكَ الْأَيَّامُ مُقَدَّرَةٌ بِحَرَكَةِ أَجْسَامٍ مَوْجُودَةٍ قَبْلَ خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ. وَقَدْ أَخْبَرَ سُبْحَانَهُ أَنَّهُ اسْتَوَى إلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ

خُلِقَتْ مِنْ الدُّخَانِ وَقَدْ جَاءَتْ الْآثَارُ عَنْ السَّلَفِ إنَّهَا خُلِقَتْ مِنْ بُخَارِ الْمَاءِ، وَهُوَ الْمَاءُ الَّذِي كَانَ الْعَرْشُ عَلَيْهِ الْمَذْكُورُ فِي قَوْلِهِ: وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ.

9.7 مسألة فناء النار

راجع كافة التفاسير

فَأَمَّا الَّذينَ شَقوا فَفِي النّارِ لَهُم فيها زَفيرٌ وَشَهيقٌ ﴿١٠٦﴾ خالِدينَ فيها ما دامَتِ السَّماواتُ وَالأَرضُ إِلّا ما شاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعّالٌ لِما يُريدُ ﴿١٠٧﴾ وَأَمَّا الَّذينَ سُعِدوا فَفِي الجَنَّةِ خالِدينَ فيها ما دامَتِ السَّماواتُ وَالأَرضُ إِلّا ما شاءَ رَبُّكَ عَطاءً غَيرَ مَجذوذٍ ﴿١٠٨﴾ هود.

9.8 مسألة العدل مع الكفار

الدولة الكافرة العادلة لها وعليها، فيذم كفرها ويحمد عدلها، ولا يرد عليها كل أمرها، بل يحمد ما فيها من العدل والإنصاف والمحاسن الإنسانية الموافقة للفطرة، ويذم ما فيها من كفر وفسق وعدوان على دين الله ورسله وهذا ما أوصانا به جل جلاله في كتابه العظيم فقال: يا أَيُّهَا الَّذينَ آمَنوا كونوا قَوّامينَ لِلَّهِ شُهَداءَ بِالقِسطِ وَلا يَجرِمَنَّكُم شَنَآنُ قَومٍ عَلى أَلّا تَعدِلُوا اعدِلوا هُوَ أَقرَبُ لِلتَّقوىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبيرٌ بِما تَعمَلونَ ﴿٨﴾ المائدة. وقال القرطبي في تفسيره: ودلت الآية أيضا على أن كفر الكافر لا يمنع من العدل عليه. وقال ابن كثير في تفسيره: وقوله: (ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا) أي: لا يحملنكم بغض قوم على ترك العدل فيهم، بل استعملوا العدل في كل أحد، صديقا كان أو عدوا [هـ].

وقول شهادة الحق في الدولة الكافرة لا يعني موالاتها وإن كانت عادلة، بل هذا ما هوا إلا شهادة الحق وقد تقدم بيان ذم ما فيها من كفر وفسق وعصيان لدين الله ورسله. وهذا لأن الله جل جلاله أمرنا بالعدل في القول ولو على أنفسنا فقال جل في علاه: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنوا كونوا قَوّامينَ بِالقِسطِ شُهَداءَ لِلَّهِ وَلَو عَلىٰ أَنفُسِكُم أَوِ الوالِدَينِ وَالأَقرَبينَ ۚ إِن يَكُن غَنِيًّا أَو فَقيرًا فَاللَّهُ أَولىٰ بِهِما ۖ فَلا تَتَّبِعُوا الهَوىٰ أَن تَعدِلوا ۚ وَإِن تَلووا أَو تُعرِضوا فَإِنَّ اللَّهَ كانَ بِما تَعمَلونَ خَبيرًا ﴿١٣٥﴾النساء. وقد جاء في تفسير ابن كثير: وقوله (فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا) أي : فلا يحملنكم الهوى والعصبية وبغضة الناس إليكم، على ترك العدل في أموركم وشؤونكم، بل الزموا العدل على أي حال كان، كما قال تعالى : (ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى) [المائدة: 8] [هـ]. ومن ذلك ما صح عن جابِرُ بنُ عبدِ اللهِ رضِيَ اللهُ عنهما أنه قال: أفاءَ اللهُ عزَّ وجلَّ خَيبرَ على رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسَلَّم، فأقَرَّهُم رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسَلَّم كما كانوا، وجَعَلَها بَينَه وبَينَهُم، فبَعَثَ عَبدَ اللهِ بنَ رَواحةَ، فخَرَصَها عليهم، ثُمَّ قال لهم: يا مَعشَرَ اليَهودِ، أنتُم أبغَضُ الخَلْقِ إليَّ، قتَلتُم أنبياءَ اللهِ عزَّ وجلَّ، وكَذَبتُم على اللهِ، وليس يَحمِلُني بُغْضي إيَّاكم على أنْ أَحيفَ عليكم، قد خَرَصتُ عِشرينَ ألْفَ وَسْقٍ مِن تَمرٍ، فإنْ شِئتُم فلكُم، وإنْ أبَيتُم فلي، فقالوا: بهذا قامَتِ السَّمَواتُ والأرضُ، قد أخَذْنا، فاخْرُجوا عنَّا.(صحيح على شرط مسلم، تخريج المسند لشعيب، تخريج سنن الدارقطني). وهذا فيه أن اليهود عرفوا أنه بالعدل قامت السموات والأرض وهذا ما سبق بيانه في الميزان الكوني، وأن عبد الله بن رواحة رضي الله عنه أقام فيهم الميزان الشرعي وأقر لهم بذلك بعدله معهم.

وقد جاء في تفسير الطبري عن ابن عباس قوله: "كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين"، قال: أمر الله المؤمنين أن يقولوا الحقَّ ولو على أنفسهم أو آبائهم أو أبنائهم، ولا يحابوا غنيًّا لغناه، ولا يرحموا مسكينًا لمسكنته، وذلك قوله: "إن يكن غنيًّا أو فقيرًا فالله أولى بهما فلا

تتبعوا الهوى أن تعدلوا "، فتذروا الحق، فتجوروا [هـ]. وأيضا جاء في تفسير الطبري: حدثنا سعيد، عن قتادة: "يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله" الآية، هذا في الشهادة. فأقم الشهادة، يا ابن آدم، ولو على نفسك، أو الوالدين، أو على ذوي قرابتك، أو شَرَفِ قومك. فإنما الشهادة لله وليست للناس، وإن الله رضي العدل لنفسه، والإقساط والعدل ميزانُ الله في الأرض، به يردُّ الله من الشديد على الضعيف، ومن الكاذب على الصادق، ومن المبطل على المحق. وبالعدل يصدِّق الصادقَ، ويكذِّب الكاذبَ، ويردُّ المعتدي ويُرَنِّخُه، تعالى ربنا وتبارك. وبالعدل يصلح الناس، يا ابن آدم "إن يكن غنيًّا أو فقيرًا فالله أولى بهما"، يقول: أولى بغنيكم وفقيركم. قال: وذكر لنا أن نبيَّ الله موسى عليه السلام قال: "يا ربِّ، أي شيء وضعت في الأرض أقلّ؟"، قال: " العدلُ أقلُّ ما وضعت في الأرض". فلا يمنعك غِنى غنيّ ولا فقر فقير أن تشهد عليه بما تعلم، فإن ذلك عليك من الحق، وقال جل ثناؤه: " فالله أولى بهما " [هـ].

[14].[7]

وقال ابن إسحاق: حدثني الزهري عن أبي بكر بن عبد الرحمن بن حارث بن هشام عن أم سلمة رضي الله عن ها قالت:

لما ضاقت (مكة) وأوذي أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وفتنوا ورأوا ما يصيبهم من البلاء والفتنة في دينهم وأن رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يستطيع دفع ذلك عنهم وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم في منعة من قومه ومن عمه لا يصل إليه شيء مما يكره ومما ينال أصحابه فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إن بأرض الحبشة ملكا لا يظلم أحد عنده فالحقوا ببلاده حتى

[7]صحيح البخاري: 3199، أورده الألباني في صحيح السيرة النبوية وفي السلسلة الصحيحة، وصححه الأرناؤوط في تخريج سير أعلام النبلاء

يجعل الله لكم فرجا ومخرجا مما أنتم فيه) فخرجنا إليها أرسالا حتى اجتمعنا بها فنزلنا بخير دار إلى خير جار آمنين على ديننا ولم نخش فيها ظلما

لَمَّا ضاقتْ علينا مكَّةُ، وأُوذيَ أصحابُ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ وفُتِنوا، ورأَوْا ما يُصيبُهم مِن البَلاءِ، وأنَّ رسولَ اللهِ لا يَستطيعُ دَفْعَ ذلك عنهم، وكان هو في مَنَعةٍ مِن قَومِه وعَمِّه، لا يَصِلُ إليه شيءٌ ممَّا يَكرَهُ ممَّا يَنالُ أصحابَه. فقال لهم رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: إنَّ بأرضِ الحَبَشةِ ملِكًا لا يُظلَمُ أحدٌ عندَه؛ فالحَقوا ببِلادِه حتى يَجعَلَ اللهُ لكم فَرَجًا ومَخرجًا. فخرَجْنا إليه أرسالًا ، حتى اجتَمَعْنا، فنزَلْنا بخيرِ دارٍ إلى خيرِ جارٍ، أمِنَّا على دِينِنا.

9.9 مسألة الخروج على ولي أمر المسلمين

إن من المسائل المهمة لأمة الإسلام بالعموم هي مسئلة الخروج على ولي أمر المسلمين. فهذه مسألة خطيرة وعظيمة يجب ألا يتكلم فيها إلا بعلم. وقد نهى النبي ﷺ عن الخروج على الدولة المسلمة الظالمة وبالأخص لما يترتب على ذلك من ظلم الذي يخالف الميزان الفطري والذي به يكون فساد المصالح العامة في الدنيا كسفك الدماء ونهب الأموال وهتك الأعراض، والتي هي أشد ظلما في الدنيا من الظلم الذي يكون بمخالفة الميزان الديني كمنع الزكاة أو الحكم بغير ما أنزل الله من باب الهوى. وقد تقدم معنا أن الله جل جلاله قدم في الدنيا إقامة الميزان بين الناس بالعدل على إقامة الحق في نفوس الناس لتقديم المصلحة العامة على الخاصة. ولذلك فقد نهى النبي ﷺ عن الخروج على ولاة الأمر المسلمين ولو كانوا ظالمين وعاصين لله ولرسوله ما أقاموا فينا الصلاة وكفى بنا أن نبغضهم في الله على ما عصوا به الله ورسوله كما جاء عن عوف بن مالك الأشجعي أن النبي ﷺ قال: خِيارُ أئِمَّتِكُمُ الَّذِينَ تُحِبُّونَهُمْ ويُحِبُّونَكُمْ،

ويُصَلُّونَ عليْكُم وتُصَلُّونَ عليهم، وشِرارُ أئِمَّتِكُمُ الَّذِينَ تُبْغِضُونَهُمْ ويُبْغِضُونَكُمْ، وتَلْعَنُونَهُمْ ويَلْعَنُونَكُمْ، قيلَ: يا رَسولَ اللهِ، أفَلا نُنابِذُهُمْ بالسَّيْفِ؟ فقالَ: لا، ما أقامُوا فِيكُمُ الصَّلاةَ، وإذا رَأَيْتُمْ مِن وُلاتِكُمْ شيئًا تَكْرَهُونَهُ، فاكْرَهُوا عَمَلَهُ، ولا تَنْزِعُوا يَدًا مِن طاعَةٍ ، وفي رواية أخرى، قالَ: لا، ما أقامُوا فِيكُمُ الصَّلاةَ، لا، ما أقامُوا فِيكُمُ الصَّلاةَ، ألا مَن ولِيَ عليه والٍ، فَرآهُ يَأْتي شيئًا مِن مَعْصِيَةِ اللهِ، فَلْيَكْرَهْ ما يَأْتي مِن مَعْصِيَةِ اللهِ، ولا يَنْزِعَنَّ يَدًا مِن طاعَةٍ (صحيح مسلم، وصححه الألباني في تخريج كتاب السنة).

وعن حذيفة بن اليمان رضي الله أن النبي ﷺ قال: يكونُ بَعْدِي أَئِمَّةٌ لا يَهْتَدُونَ بِهُدَايَ، وَلَا يَسْتَنُّونَ بِسُنَّتِي، وَسَيَقُومُ فيهم رِجَالٌ قُلُوبُهُمْ قُلُوبُ الشَّيَاطِينِ في جُثْمَانِ إِنْسٍ، قُلتُ: كيفَ أَصْنَعُ يا رَسولَ اللهِ، إنْ أَدْرَكْتُ ذلكَ؟ قالَ: تَسْمَعُ وَتُطِيعُ لِلأَمِيرِ، وإنْ ضُرِبَ ظَهْرُكَ، وَأُخِذَ مَالُكَ، فَاسْمَعْ وَأَطِعْ (صحيح مسلم). وقد أوصى بذلك النبي ﷺ في حجة الوداع فعن أم الحصين الأحمسية أنها قالت: سمعتُ رسولَ اللَّهِ صلَّى اللَّهُ عليْهِ وسلَّمَ يخطبُ في حجَّةِ الوداعِ يقولُ: يا أيُّها النَّاسُ اتَّقوا اللَّهَ وإن أمِّرَ عليْكم عبدٌ حبشيٌّ مجدَّعٌ فاسمعوا لَهُ وأطيعوا ما أقامَ لَكم كتابَ اللَّهِ (صحيح الترمذي، وصححه الألباني). وأيضا حديث العرباض بن سارية رضي الله عنه أنه قال: وعظَنا رسولُ اللَّهِ صلَّى اللَّهُ عليْهِ وسلَّمَ يومًا بعدَ صلاةِ الغداةِ موعِظةً بليغةً ذرِفَت منْها العيونُ ووجِلَت منْها القلوبُ، فقالَ رجلٌ إنَّ هذِهِ موعظةُ مودِّعٍ فماذا تعْهدُ إلينا يا رسولَ اللَّهِ، قالَ أوصيكم بتقوى اللَّهِ والسَّمعِ والطَّاعةِ وإن عبدٌ حبشيٌّ فإنَّهُ من يعِش منْكم يرَ اختلافًا كثيرًا وإيَّاكم ومحدَثاتِ الأمورِ فإنَّها ضَلالةٌ فمن أدرَكَ ذلِكَ منْكم فعليْهِ بِسُنَّتي وسنَّةِ الخلفاءِ الرَّاشدينَ المَهديِّينَ عضُّوا عليْها بالنَّواجذِ (صحيح الترمذي، وصححه الألباني).

فالأدلة في نهي الرسول ﷺ على الخروج على الولاة العصاة كثيرة جدا، فلا يسعنا الخروج على ولاة الأمر الظالمين والعاصين لله ورسوله ليس مجاملة أو حبا لهم ولا مداهنة في دين الله وإنما إلتزاما بأمر النبي ﷺ حقنا للدماء وتقديما للمصلحة العامة على الخاصة، ولكن نبغضهم في الله على ما عصوا به

الله ورسوله ولا نصدقهم ولا نعينهم على ظلمهم كما صح ذلك عن النبي ﷺ أنه قال لكَعبِ بنِ عُجْرةَ: أعاذَكَ اللهُ من إمارةِ السُّفهاءِ، قال: وما إمارةُ السُّفهاءِ؟ قال: أُمراءُ يكونونَ بَعْدي، لا يَقتَدونَ بهَدْيي، ولا يَستَنُّونَ بسُنَّتي، فمَن صدَّقَهم بكذِبِهم، وأعانَهم على ظُلْمِهم، فأولئك ليسوا منِّي، ولستُ منهم، ولا يَرِدوا عليَّ حَوْضي، ومَن لم يُصدِّقْهم بكذِبِهم، ولم يُعِنْهم على ظُلْمِهم، فأولئك منِّي وأنا منهم، وسيَرِدوا عليَّ حَوْضي (صحيح ابن حبان). ويكفي ولي الأمر المسلم الظالم ذلا وخسرانا أن أن النبي ﷺ قد تبرأ منه كما جاء في حديث سعد بن تميم أنه قيل: يا رسولَ اللهِ، ما للخليفةِ مِن بعدِك؟ قال: مِثلُ الذي لي، ما عدَلَ في الحُكمِ، وقسَطَ في القِسطِ، ورَحِمَ ذا الرَّحِمِ، فمَن فعَلَ غيرَ ذلك فليس منِّي ولستُ منه (صحيح، تخريج سنن أبي داود، وصححه الألباني).

ويفرق بين النصح لولي الأمر الظالم وبين إنكار المنكر بالعموم، فإنكار المنكر بالعموم واجب على كل مسلم، وبالأخص رد الظالمين لمن استطاع أن يغير ويصلح بدون أن يترتب على ذلك مفسدة أعظم، فقد جاء عن أبوبكر الصديق أنه قال بعد أن حمِد اللهَ وأثنَى عليه: يا أيُّها النَّاسُ، إنَّكم تقرءون هذه الآيةَ، وتضعونها على غيرِ موضعِها (عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ)، وإنَّا سمِعنا النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يقولُ: إنَّ النَّاسَ إذا رأَوُا الظَّالمَ فلم يأخُذوا على يدَيْه أوشك أن يعُمَّهم اللهُ بعقابٍ وإنِّي سمِعتُ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يقولُ: ما من قومٍ يُعمَلُ فيهم بالمعاصي، ثمَّ يقدِرون على أن يُغيِّروا، ثمَّ لا يُغيِّروا إلَّا يوشِكُ أن يعُمَّهم اللهُ منه بعقابٍ (صحيح أبي داود، وصححه الألباني). ولقد بايع النبي ﷺ أصحابه على السمع والطاعة والنصح لكل مسلم كما جاء ذلك عن جرير بن عبدالله أنه قال: بايَعْتُ النبيَّ صَلَّى اللَّهُ عليه وسلَّمَ علَى السَّمْعِ والطَّاعَةِ، فَلَقَّنَنِي، فِيما اسْتَطَعْتُ، والنُّصْحِ لِكُلِّ مُسْلِمٍ (صحيح مسلم). فالنصح يكون لكل مسلم سواء كان ولي الأمر وغير ولي الأمر ويكون بحسب الحاجة وبالحكمة والموعظة الحسنة. ومن المصلحة في أغلب الأحوال أن تكون النصيحة لولي الأمر بالسر لما

قد يترتب على الجهر بها من الفتن أو التحريض. ولهذا فقد قال النبي ﷺ: مَن أرادَ أن ينصحَ لذي سلطانٍ في أمرٍ فلا يُبدِهِ عَلانيةً ولكِن ليأخذْ بيدِهِ فيَخلوَ بهِ فإن قبِلَ منهُ فذاكَ وإلَّا كانَ قد أدَّى الَّذي علَيهِ لَهُ (صححه الألباني في تخريج كتاب السنة). فلو كانت هذه النصيحة لسلطان ظالم فهذا من أفضل الجهاد كما جاء ذلك عن أبو سعيد الخدري أن النبي ﷺ قال: أفضَلُ الجِهادِ كلمةُ عدلٍ، وفي رواية: كلمة حق، عندَ سُلطانٍ جائرٍ (صحيح ابن ماجه، وصححه الألباني).

وأما الخروج على ولاة الأمور فشرطه أن يكون عندهم كفرا بواحا ظاهرا لا شك فيه. فقد جاء عن عبادة بن الصامت أنه قال: دَعَانَا رَسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عليه وسلَّمَ فَبَايَعْنَاهُ، فكانَ فِيما أَخَذَ عَلَيْنَا: أَنْ بَايَعَنَا علَى السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ في مَنْشَطِنَا وَمَكْرَهِنَا، وَعُسْرِنَا وَيُسْرِنَا، وَأَثَرَةٍ عَلَيْنَا، وَأَنْ لا نُنَازِعَ الأَمْرَ أَهْلَهُ، قالَ: إلَّا أَنْ تَرَوْا كُفْرًا بَوَاحًا عِنْدَكُمْ مِنَ اللهِ فيه بُرْهَانٌ (صحيح مسلم). ومن المعلوم أنه ليس كل حكم بغير ما أنزل الله كفر ومن ذلك بلا شك القوانين الوضعية التي لا تعارض كتاب الله وسنة نبيه ﷺ. ومثال ذلك الأمور التي فيها مصالح الناس كالأمور التنظيمة المباحة فهذا أمر مطلوب ولازم وبه يؤجر ولي الأمر لما في ذلك من نفع عام لجميع المسلمين، كتنظيم طرق سير السيارات، وقوانين حماية البيانات، وغيرها من القوانين التي بها تحفظ الدماء، والأموال، والأعراض. والكفر البواح لا يكون بالحكم بغير ما أنزل الله مع الإقرار بالذنب دون الإعتقاد بجواز ذلك والجهر به كمن يفعل ذلك من باب الهوى. وإنما الكفر البواح هو الإعتقاد مع الجهر أن الحكم المخالف لشرع الله وكتابه هو حكم جائز على وجه التفضيل أو المساواة أو الرد أو غير ذلك. ومن ذلك من يعتقد بأفضلية حكم غير الله على حكم الله أو مساواة حكم غير الله مع حكم الله أو جواز حكم غير الله أو رد حكم الله، المخالف لشرع الله وكتابه والجهر بذلك. ولقد بين ذلك الشيخ ابن باز رحمه الله في بيان القوانين الوضعية والآراء البشرية **التي تخالف شرع الله** فقال: الحكم بغير ما أنزل الله [بالقوانين التي تخالف شرع الله] أقسام،

تختلف أحكامهم بحسب اعتقادهم وأعمالهم، فمن حكم بغير ما أنزل الله يرى أن ذلك أحسن من شرع الله فهو كافر عند جميع المسلمين، وهكذا من يحكّم القوانين الوضعية بدلا من شرع الله ويرى أن ذلك جائز، ولو قال: إن تحكيم الشريعة أفضل فهو كافر لكونه استحل ما حرم الله. أما من حكم بغير ما أنزل الله اتباعا للهوى أو لرشوة أو لعداوة بينه وبين المحكوم عليه أو لأسباب أخرى وهو يعلم أنه عاص لله بذلك وأن الواجب عليه تحكيم شرع الله [وإنما خالفها فعلا لا عقيدة لهوى] فهذا يعتبر من أهل المعاصي والكبائر ويعتبر قد أتى كفرا أصغر وظلما أصغر وفسقا أصغر كما جاء هذا المعنى عن ابن عباس رضي الله عنهما وعن طاووس وجماعة من السلف الصالح وهو المعروف عند أهل العلم. والله ولي التوفيق (مجموع فتاوى ومقالات الشيخ ابن باز: 4/416).

9.10 مسألة التفرق في الدين

9.11 مسألة تجريح الأعيان

يقول شيخ الإسلام بن تيمية: وليعلم أن المؤمن تجب موالاته، وإن ظلمك واعتدى عليك، والكافر تجب معاداته، وإن أعطاك وأحسن إليك؛ فإن الله سبحانه بعث الرسل وأنزل الكتب؛ ليكون الدين كله لله، فيكون الحب لأوليائه، والبغض لأعدائه، والإكرام لأوليائه، والإهانة لأعدائه، والثواب لأوليائه، والعقاب لأعدائه. وإذا اجتمع في الرجل الواحد خير وشر وفجور، وطاعة ومعصية، وسنة وبدعة: استحق من الموالاة والثواب بقدر ما فيه من الخير، واستحق من المعاداة والعقاب بحسب ما فيه من الشر، فيجتمع في الشخص الواحد موجبات الإكرام والإهانة، فيجتمع له من هذا وهذا، كاللص

الفقير تقطع يده لسرقته، ويعطى من بيت المال ما يكفيه لحاجته. هذا هو الأصل الذي اتفق عليه أهل السنة والجماعة، وخالفهم الخوارج، والمعتزلة، ومن وافقهم عليه، فلم يجعلوا الناس لا مستحقًّا للثواب فقط، ولا مستحقًّا للعقاب فقط.

وقال أيضًا: معلوم أنه في كل طائفة بر، وفاجر، وصديق، وزنديق، والواجب موالاة أولياء الله المتقين من جميع الأصناف، وبعض الكفار والمنافقين من جميع الأصناف، والفاسق المِلِّيُّ يعطى من الموالاة بقدر إيمانه، ويعطى من المعاداة بقدر فسقه، فإن مذهب أهل السنة والجماعة أن الفاسق الملي له الثواب والعقاب إذا لم يعف الله عنه، وإنه لا بد أن يدخل النار من الفساق من شاء الله، وإن كان لا يخلد في النار أحد من أهل الإيمان، بل يخلد فيها المنافقون كما يخلد فيها المتظاهرون بالكفر. اهـ.

وراجع للفائدة الفتوى رقم: 113503.

9.12 دعاء النبي ﷺ

اسئل الله العلي العظيم أن يجعل هذا العمل خالصا لوجهه الكريم وأن يبارك فيه ويجعله سببا لعودة أمة الإسلام إلى الطريق المستقيم، وأن يجعل دعوتنا دعوة الراسخين في العلم كما في قوله تعالى: وَالرَّاسِخُونَ فِي العِلمِ يَقولونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِن عِندِ رَبِّنا وَما يَذَّكَّرُ إِلّا أُولُو الأَلبابِ ﴿٧﴾ رَبَّنا لا تُزِغ قُلوبَنا بَعدَ إِذ هَدَيتَنا وَهَب لَنا مِن لَدُنكَ رَحمَةً إِنَّكَ أَنتَ الوَهّابُ ﴿٨﴾ آل عمران. اللهم اجعل دعائنا كدعاء نبينا ﷺ كما جاء عن عائشة أم المؤمنين أن النبي ﷺ كان إِذَا قَامَ مِنَ اللَّيْلِ افْتَتَحَ صَلَاتَهُ: اللَّهُمَّ رَبَّ جِبْرَائِيلَ، وَمِيكَائِيلَ، وإِسْرَافِيلَ، فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ، عَالِمَ الغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ، أَنْتَ تَحْكُمُ بيْنَ عِبَادِكَ فِيما

كَانُوا فيه يَخْتَلِفُونَ، اهْدِنِي لِما اخْتُلِفَ فيه مِنَ الحَقِّ بإذْنِكَ؛ إنَّكَ تَهْدِي مَن تَشَاءُ إلى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (صحيح مسلم). وكما جاء أيضا عن عائشة أم المؤمنين أن النبي ﷺ علمها هذا الدعاء: للَّهمَّ إنِّي أسألُكَ مِنَ الخيرِ كلِّهِ عاجلِهِ وآجلِهِ، ما عَلِمْتُ منهُ وما لم أعلَمْ، وأعوذُ بِكَ منَ الشَّرِّ كلِّهِ عاجلِهِ وآجلِهِ، ما عَلِمْتُ منهُ وما لم أعلَمْ، اللَّهمَّ إنِّي أسألُكَ من خيرِ ما سألَكَ عبدُكَ ونبيُّكَ، وأعوذُ بِكَ من شرِّ ما عاذَ بِهِ عبدُكَ ونبيُّكَ، اللَّهمَّ إنِّي أسألُكَ الجنَّةَ وما قرَّبَ إليها من قَولٍ أو عملٍ، وأعوذُ بِكَ منَ النَّارِ وما قرَّبَ إليها من قولٍ أو عملٍ، وأسألُكَ أن تجعلَ كلَّ قَضاءٍ قضيتَهُ لي خيرًا (صحيح ابن ماجه وصححه الألباني). وكما جاء عن أم المؤمنين أم سلمة أن أكثر دعاء نبينا ﷺ كان: اللهم يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك (صحيح الترمذي وصححه الألباني). وكما جاء عن عبدالله بن عمر أن نبينا ﷺ قلَّما يقوم من مجلس حتى يدعو بهؤلاء الدعوات لأصحابه: اللهمَّ اقسِمْ لنا مِنْ خشيَتِكَ ما تحولُ بِهِ بينَنَا وبينَ معاصيكَ، ومِنْ طاعَتِكَ ما تُبَلِّغُنَا بِهِ جنتَكَ، ومِنَ اليقينِ ما تُهَوِّنُ بِهِ علَيْنَا مصائِبَ الدُّنيا، اللهمَّ متِّعْنَا بأسماعِنا، وأبصارِنا، وقوَّتِنا ما أحْيَيْتَنا، واجعلْهُ الوارِثَ مِنَّا، واجعَلْ ثَأْرَنا عَلَى مَنْ ظلَمَنا، وانصرْنا عَلَى مَنْ عادَانا، ولا تَجْعَلِ مُصِيبَتَنا في دينِنا، ولَا تَجْعَلْ الدنيا أكبرَ هَمِّنَا، ولَا مَبْلَغَ عِلْمِنا، ولَا تُسَلِّطْ عَلَيْنا مَنْ لَا يرْحَمُنا (صحيح الترمذي). وكما جاء عن زيد بن أرقم رضي الله عنه أنه قال: لا أُعلِّمُكم إلا ما كان رسولُ اللهِ ﷺ يُعلِّمُنا: اللَّهمَّ إني أعوذُ بك من العجزِ والكسلِ، والبخلِ والجبنِ، والهَرَمِ وعذابِ القبرِ، اللَّهمَّ آتِ نفسي تقْوَاها وزكِّها أنت خيرُ من زكَّاها أنت وليُّها ومولاها، اللَّهمَّ إني أعوذُ بك من قلبٍ لا يخشعُ ومن نفسٍ لا تشبعُ وعلمٍ لا ينفعُ ودعوةٍ لا يُستجابُ لها (صحيح النسائي). وعن أنس ابن مالك أنه قال: كثيرًا ما كُنتُ أسمعُ النَّبيَّ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّمَ يدعو بِهَؤلاءِ الكلِماتِ (وفي رواية في صحيح النسائي: لا يدعهُنَّ): اللَّهمَّ إنِّي أعوذُ بِكَ منَ الهمِّ والحزنِ والعَجزِ والكَسلِ والبُخلِ وضَلَعِ الدَّينِ وغلبةِ الرِّجالِ (صحيح الترمذي، صححه الألباني).

المصادر

[1] عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله السعدي (ت 1376 هـ). تفسير السعدي - تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان. مؤسسة الرسالة, الطبعة الأولى، 1420 هـ - 2000 م. الكتاب في المكتبة الشاملة.

[2] أبو جعفر محمد بن جرير الطبري (ت 310 هـ). تفسير الطبري - جامع البيان عن تأويل آي القرآن. دار هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان - مصر, الطبعة الأولى، 1422 هـ - 2001 م. الكتاب في المكتبة الشاملة.

[3] أبو الحسين مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري (ت 261 هـ). صحيح مسلم. مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه - مصر, الطبعة الأولى، 1374 هـ - 1955 م. الكتاب في المكتبة الشاملة.

[4] الإمام أحمد بن حنبل (ت 241 هـ). مسند الإمام أحمد بن حنبل. مؤسسة الرسالة, الطبعة الأولى، 1421 هـ - 2001 م. الكتاب في المكتبة الشاملة.

[5] شمس الدين الذهبي (673-748 هـ). سير أعلام النبلاء. دار الحديث - مصر, الطبعة الأولى، 1427 هـ - 2006 م. الكتاب في المكتبة الشاملة.

[6] عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير الدمشقي (ت 774 هـ). البداية والنهاية. دار هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان, الطبعة الأولى، 1420 هـ - 1999 م. الكتاب في المكتبة الشاملة.

[7] محمد ناصر الدين الألباني (ت 1460 هـ). سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها. مكتبة المعارف للنشر والتوزيع - السعودية, الطبعة الأولى، 1415 هـ - 1995 م. الكتاب في المكتبة الشاملة.

[8] شيخ الإسلام أحمد بن تيمية (ت 728 هـ). مجموع الفتاوى. مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف - السعودية, الطبعة الأولى، 1423 هـ - 2003 م. الكتاب في المكتبة الشاملة.

[9] عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي (ت 911 هـ). الجامع الصغير وزيادته مع أحكام محمد ناصر الدين الألباني من صحيح أو ضعيف الجامع الصغير. مكتبة الشاملة - إلكتروني فقط. الكتاب في المكتبة الشاملة.

[10] عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير الدمشقي (ت 774 هـ). تفسير بن كثير - تفسير القرآن العظيم. دار طيبة للنشر والتوزيع - السعودية, الطبعة الثانية، 1420 هـ - 1999 م. الكتاب في المكتبة الشاملة.

[11] محيي السنة، أبو محمد الحسين بن مسعود البغوي (ت 510 هـ). تفسير البغوي - معالم التنزيل في تفسير القرآن. دار طيبة للنشر والتوزيع, الطبعة الرابعة، 1417 هـ - 1997 م. الكتاب في المكتبة الشاملة.

[12] شيخ الإسلام أحمد بن تيمية (ت 728 هـ). درء تعارض العقل والنقل. جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية - السعودية, الطبعة الثانية، 1411 هـ - 1991 م. الكتاب في المكتبة الشاملة.

[13] أبو هلال العسكري (ت 395 هـ). معجم الفروق اللغوية. مؤسسة النشر الإسلامي, الطبعة الأولى، 1412 هـ - 1991 م. الكتاب في المكتبة الشاملة.

[14] أبو عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة الجعفي البخاري (ت 256 هـ). صحيح البخاري. دار التأصيل - مصر, الطبعة الأولى، 1433 هـ - 2012 م. الكتاب في المكتبة الشاملة.

[15] أبو عبد الله، محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي (ت 671 هـ). تفسير القرطبي - الجامع لأحكام القرآن. دار الكتب المصرية - مصر, الطبعة الثانية، 1384 هـ - 1964 م. الكتاب في المكتبة الشاملة.

[16] أبو داود سليمان بن الأشعث الأزدي السجستاني (ت 275 هـ). سنن أبي داود. دار الرسالة العالمية, الطبعة الأولى، 1430 هـ - 2009 م. الكتاب في المكتبة الشاملة.

[17] عبد الله بن عبد الحكم الفقيه (ت 214 هـ). سيرة عمر بن عبد العزيز على ما رواه الإمام مالك بن أنس وأصحابه. عالم الكتب - لبنان, الطبعة السادسة، 1404 هـ - 1984 م. الكتاب في المكتبة الشاملة.

[18] ابن عبد ربه الأندلسي (ت 368 هـ). العقد الفريد. دار الكتب العلمية - لبنان, الطبعة الأولى، 1404 هـ - 1984 م. الكتاب في المكتبة الشاملة.

[19] محمد بن جرير الطبري (224-310 هـ). كتاب تاريخ الطبري، تاريخ الرسل والملوك. دار المعارف - مصر, الطبعة الثانية، 1387 هـ - 1967 م. الكتاب في المكتبة الشاملة.

[20] أبو نعيم الأصبهاني (ت 430 هـ). حلية الأولياء وطبقات الأصفياء. مطبعة السعادة - مصر, الطبعة الأولى، 1394 هـ - 1974 م. الكتاب في المكتبة الشاملة.